طريق الجنوب

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
009722340035
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

❋

عثمان أبو غربية

طريق الجنوب

❋

الطبعةالثانية (2014).

❋

لوحة الغلاف: الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

رواية

طريق الجنوب

عثمان أبو غربية

دار الجندي للنشر والتوزيع

الأمواج الهادئة

أخذت الطريق تتعرج في صعودها المنحنيات الجبلية، وأصبح انحناؤها يحتد أحياناً مع أن الجبال لم تكن شديدة الارتفاع.

شعرت أن هذه الطبيعة مألوفة لي، الجبال نفسها، التربة الطينية الحمراء، أشجار الزيتون، التين، الكروم، شجيرات السويد والزعرور، الزحيف، بقايا النباتات الصيفية، الجدران الحجرية المتراصة من حجارة أجيد تركيبها. إنها ملامح فلسطين، وطني!.

اندلعت عاصفة من الحنين والذكريات، عبرت بقلبي، توهج الجمر المقدس، كدت أتخيل نفسي وأنا في هذا الطريق بين مدينتي لارنكا وليماسول من جزيرة قبرص، وكأنني في إحدى مناطق فلسطين.

هل هي الطبيعة الواحدة لحوض المتوسط؟! ربما، حتى هذا الهواء الخريفي المعتدل، وشمس ما بعد الظهيرة، يأخذاني بعيداً في عمق الذاكرة.

غادرت فلسطين آخر مرة في عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، بعد أن دخلت إليها متسللاً عبر نهر الأردن، الذي قطعنا إحدى مخاضاته في عز النهار، ما زلت أذكر تفاصيل تلك اللحظة مع أنها لم تكن مثيرة أو حتى محفوفة بالمخاطر كغيرها. فقد اتجهنا بعد عبورنا النهر نحو قرية العوجا القريبة من مدينة أريحا في منطقة الغور، شاهدت أنا ورفاقي طائرة مراقبة صهيونية تحوم فوقنا، كانت أرضاً رملية جرداء منبسطة. لا بد أنها لاحظتنا، فبعد أن اقتربنا من القرية ميزنا غباراً أثارته من بعيد عجلات سيارة عسكرية صهيونية، فاختبأنا في إحدى المزارع التي أصبحت بمحاذاتنا. مرت السيارة العسكرية باتجاه النهر، غادرنا مخبأنا وتمكنا من دخول قرية العوجا، حيث قضينا تلك الليلة فيها.

هذه هي المرة الثانية التي أتسلل فيها عبر قرية العوجا، فلم تكن سلطات الاحتلال قد أحكمت في ذلك الوقت سيطرتها على معابر ومخاضات نهر الأردن، على الرغم من تعمدها قتل الكثيرين من الأبرياء العائدين إلى ذويهم. سقط الكثيرون قرب نهر الأردن من الذين لم يجدوا بعد الحرب سوى النهر معبراً للعودة إلى أطفالهم أو زوجاتهم أو أمهاتهم.

وصلت مدينة الخليل مشياً على قدمي، أذكر أنهما كانتا داميتين عندما ساعدتني شقيقاتي على خلع حذائي المطاطي. مكثت في المدينة حوالي أسبوعين، صعدت أثناءها إلى منطقة نائية وعرة كي التقي بمجموعات من أصدقائي الشباب الذين أصبحوا فدائيين.

لقد عثر هؤلاء الشباب الوطنيين الذين جاش في صدورهم إرهاص الثورة على ما ينضوون تحت لوائه، وتجمع بعضهم في قواعد سرية انتشرت تلك الفترة في كثير من المناطق المواتية داخل الأرض المحتلة من بينها هذه القاعدة في واد وعر مشجر، يقع على سفح أحد الجبال الشاهقة في الخليل. ما أروع جبال الخليل الشامخة، وما أبهى حلل كرومها الخضراء. لن أنسى ما حييت لحظات وداعي لها بعد أن اشتد من حولي طوق التفتيش والمطاردة، وبعد أن أصبح ضرورياً أن أتابع خطوات تنظيم علاقتنا بخارج الأرض المحتلة، وهي المهمة التي كنت أقوم بها.

غادرت الخليل وقلبي ينجذب إليها أكثر من أية مرة سابقة، عاهدت جبالها، عاهدت طيفها الجميل أن استمر في النضال من أجل وطني.

تأملت الكروم الخضراء على مشارف بلدة حلحول ساعة ذلك الفجر الندي، وكأني أعاهد كل ذرة تراب، شعرت برهبة العهد تستقر في

أعماقي وأنا في محراب الخشوع الروحاني الغامر. لقد شعرت بأعمق وأقوى تصميم على الوفاء والصدق.

فاض الحنين بقلبي، كنت أودع مدينتي ووطني، وفي ذات اللحظة تدفقت في زوايا القلب اليافع تراكمات من المشاعر الخاصة تركتها مراحل الصبا لهيباً دافئاً، ملأت الخيال بصورها، وجعلتني أشعر وكأن قطعة من روحي غادرت جسدي.

بقيت هذه الصور قمراً ورودياً في سماء خيالي، وحلماً جميلاً يراود حياتي حتى هذه اللحظة، وبقي الحلم نداءاً يحرك أشواق الذاكرة ولا يبدده واقع الحياة. ما أحلى ذلك الحلم يختلط فيه الحنين إلى الوطن بوجيب الفؤاد، ويرسم قلبي وذكرياتي وصورة وطني في لوحة واحدة.

لم أعد أنتبه إلى الطريق الذي ردني إلى لحظات كثيفة المشاعر، سوف تبقى حية في جدران روحي ما دام في جسدي رمق من حياة.

وثب فؤادي مثل غزال يبحث عن مدى، أو مثل قبرة بلون الأرض، وذهب وحده بعيداً.. واشتعل الضوء المقدس ليغمر زوايا المعبد، واستيقظ الجمر الإنساني متقداً ودافئاً، يستل لون الشفق من غمد البحر.

لعلني أفقت من الحلم الذي بعثر فؤادي، لقد مضى على آخر مرة شاهدت فيها وطني قرابة تسع سنوات كرست كل نبض فيها من أجله، هو الفردوس الذي وعدت نفسي به والذي لا أتصور مصيري من دونه، أنني رجل حالم يمتلئ بالطموح، ولا أشعر وأنا أحلق وراء حلمي بأي خيط يشدني إلى الحياة خارج انتمائي إلى تلك البقعة النورانية المقدسة من الأرض.قد يكون للمرء أن يختار انتماءه حينما يكون الانتماء ارادياً،

ولكن ثمة نوع من الانتماء غير الإرادي، يسكن الإنسان قبل مولده، ويصبح من مكونات ذاته التي لا يستطيع أن يفر منها مهما تراءى له غير ذلك. فالإنتماء حاجة من حاجات التبلور الذاتي للإنسان، وتجسيد للذات الفردية والجماعية في آن واحد، وحافز من حوافز التحدي والعمل.

أي منطق يأخذني إليه ؟! لقد سلمت أن هناك ما هو فوق المنطق، ما لا يمكن تفسيره بعامل واحد من عوامل الطبيعة الإنسانية، ما لا يمكن اختصاره دون تفاعل العقل والإرادة والروح والجسد، جميعها مع الطبيعة والحياة، ما لا يمكن أن يقتصر على المقاييس العلمية البحتة.

إن شعوري بالإنتماء هو تفاعل تراكمات الماضي مع تطلعات المستقبل، هو حاجة الإنسان إلى موطيء معنوي لوجوده وتبلور غريزة بقائه، هو ما يمكن وصفه بلغة العلم، أو ما يمكن استشفافه بالإحساس والوجدان. إنه خيط من لهيب الروح وضياء الشمس.

ربما أصبحت النقطة التي يجذبني منها هذا الطريق وطابعه الذي مس أوتار فؤادي، ليعزف نغم الحنين إلى إنتمائي، مع أنه لم يمض على وجودي فوق هذه الجزيرة سوى ساعات قليلة. فقد أخذت قراري بالسفر إلى قبرص قبل يوم واحد، في أجواء مشحونة بالعواطف التي ملأت أرجاء بيتنا في الكويت طيلة مساء يوم السادس من تشرين أول عام ألف وتسعمائة وستة وسبعين.

راحت والدتي بوقارها، وحزنها الذي أصبحنا نلمحه منذ أن توفى والدي في الثالث من أيلول، تكرر عليّ طلبها أن أرجيء سفري إلى ما بعد ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاة والدي مستخدمة كل ما تستطيع

من حجة ورجاء.

ليس من السهل أن أخبرهم في تلك الظروف عن وجهتي الحقيقية، فاضطررت إلى أن أكتفي بالقول أنني مسافر إلى البحرين، واخترتها بالذات لأنها محطة في طريقي.

شعرت أن لدي إصراراً قوياً للتوجه إلى لبنان، لأن واجبي يحتم عليّ أن آخذ موقعي بين رفاقي من المناضلين وهم يقاتلون دفاعاً عن الثورة.

كنت أفكر بإلحاح أن من واجبي أن أعود بأسرع ما يمكن، فقد احتدم كثيراً وطيس القتال، وتعقدت علاقاتنا بالسوريين أكثر من ذي قبل، وليس أمامي سوى المخاطرة بعبور البحر ما بين قبرص وصيدا، حيث تتعرض السفن والمراكب لمطاردة الزوارق المعادية ومحاولات الإغراق والأسر، وسوقها إلى موانيء الأرض المحتلة. شعرت أنني سوف أصبح أقرب إلى روح والدي حينما أواصل مسيرتي في الطريق إلى فلسطين، رحمه الله، لقد أحبها، وكانت أعزّ أمنية عليه أن يدفن فيها، وعندما توفى في الكويت صممنا أن نلبي رغبته. قد يعبّر هذا التصميم عن الوفاء لوالدنا الذي أعطى كل شيء من أجلنا أو عن اللاوعي الذي يكمن في داخلي، ويجسد رغبتي العارمة في أن يصير مآلي إلى القدس، أو إلى مدينتي الأصلية الخليل. عاش والدي غريباً وتوفى غريباً، وقد لامس شغاف فؤاده دائماً أمل العودة وحنين الوطن.

ما زلت أذكر كيف كان ينعكس ظل فؤاده في عينيه وهو يتحدث عن القدس أو عن الخليل أو عن فلسطين ووالده الذي توفى دون أن يراه، لقد ورثت منه هذا الحنين الرقيق الصامت، تماماً كما ورثت من جدي لأمي عناده وإصراره الذي لا يلين، والذي يختلط بحسه العارم بأصالة

أرومته وجذوره التميمية.
عاش والدي رجلاً كافح في سبيل وطنه، وحمل السلاح شاباً يافعاً وهو وحيد أبويه، وقد احتفظنا دائماً بكثير من الاعتزاز بصورة له وهو في ريعان الشباب يأتزر برداء الجهاد المقدس.
ومات رجلاً صلباً تحمل المرض في أشد لحظات آلامه بجلد ويأس شديدين ضاناً على جميع من حوله أن يلحظوا عليه علامة ضعف واحدة طيلة صحوته.
انصرفت إلى حوائجي ارتبها في حقيبتي، ثم اضفت إلى محتوياتها ستة جوازات سفر تخص بعض الأخوة في دمشق وبيروت، وقبل أن أكمل التفَتَت إليّ والدتي تذكرني بموضوع إبن عمي الذي يرغب في الالتحاق بدراسة جامعية وسألتني:

- هذه شهادات إبن عمك، هل تأخذها معك أم نبقيها لإرسالها إلى دمشق؟.

- سآخذها معي، ربما يستجد جديد.

نهضت في الصباح مبكراً، وارتديت ملابسي قبل أن يستيقظ أحد في البيت، ثم رحت أوقظهم لنتوجه إلى المطار، فلي موعد مع الأخ أبي خلوي مدير مكتب "فتح" في الكويت، ويجب أن أنهي بعض الإجراءات، خاصة وأن عدداً من شباب الحركة سيرافقني أثناء رحلتي.
التقيت فعلاً بأربعة من الشباب الذين تعرفت عليهم في المطار، وحملت معي كتاباً موجهاً إلى الأخ أبي جهاد يتعلق بهم.
أنزوى شقيقي عبد الحي الذي يليني سناً، يحذرني وخاصة من البحر،

فهو الوحيد من عائلتي الذي أخبرته أنني ذاهب إلى لبنان، إنه أقرب أشقائي إلى قلبي، بل إنه أقرب الناس، فهو رفيق عمري، عشنا الطفولة والصبا والشباب معاً، زرعنا أحلامنا ولهونا في وهاد المكان والزمان ومرتفعاتها، وليس بيني وبين ذلك المنبت الحبيب من ذكرى إلا وهو الموازي الأثير، إنه معدن حقيقي وصلب.

أما والدتي فقد ظهرت كأنما تودع مفارقاً آخر من الأسرة. ولعله إحساس غريب انتابها، وربما هي الحاسة السادسة، إذ بدا على وجهها القلق والحزن وانعكس في وجوم على وجه شقيقي وباقي أفراد الأسرة.

لم تكن المرة الأولى التي أذهب فيها إلى أداء المهمات الخطرة، كلهم يعرفون أية طريق هي طريقنا، كان واضحاً على الجميع إحساسهم أن شيئاً ما سوف يحدث، أما أنا فقد شعرت بالاطمئنان تماماً، لأنني تعودت أن أواجه القدر وأن أعبره في كل الظروف، وجدت دائماً شيئاً له الأولوية أمامي، اسمه واجبي.

غادرنا مطار الكويت إلى مطار البحرين الذي وجدنا فيه مندوباً من مكتب "فتح" رافقنا داخل قاعة الانتظار خلال الفترة التي مكثناها، والتي أقلتنا بعدها الطائرة متوجهين إلى مطار لارنكا في قبرص.

أتصلت من المطار بمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيقوسيا، فأفادني أحد الأخوة بتوفر سفينة ستتوجه الليلة إلى صيدا، وأعطاني عنوان "وكالة بدر" في مدينة ليماسول، مؤكداً أنه سيتصل بالحاج بدر صاحب الوكالة، كي يؤمّن لنا الحجوزات. وجدت نفسي بعدها في هذا الطريق الذي أنار الشوق والذاكرة وزوايا الفؤاد.

عندما وصلنا إلى وكالة بدر وجدنا ابنته وموظفة أخرى اخبرتني أن

مكتب منظمة التحرير طلب أن أتصل به حال وصولي، ولما أتصلت تحدث معي الأخ أبو يحيى، مدير المكتب، فعزاني بوفاة والدي، واعتذر عن عدم دعوتنا إلى نيقوسيا، بسبب توفر سفينة للسفر إلى صيدا ذات اليوم الذي وصولنا فيه.

وجدنا أشخاصاً آخرين في وكالة بدر ينتظرون صاحب الوكالة، وعندما وصل قدمت له الفتاة جوازات سفرنا، ولما وصلني الدور بدت عليه علامات الاهتمام وسألني ما إذا كنت من مدينة الخليل، فأجبته مؤكداً ذلك، ومظهراً معرفتي بأنه هو أيضاً من المدينة نفسها، وأضفت:

- يرافقني أحد أقربائك.

- أين هو؟ .

- هذا هو، الأخ وليد بدر.

قدمت له أحد الشباب الأربعة، فراح الحاج بدر يسأل الشاب عن أسم والده وجده حتى عرف أرومته، بعد برهة، وصل مندوب من "فتح" يتابع المسائل الإدارية لحركة مناضلينا بين لبنان وقبرص، وما أن رأينا بعضنا البعض حتى تعانقنا، فنحن زملاء دورة عسكرية بكلية نانكين في الصين الشعبية قبل حوالي ثمانية أعوام، فقدمني بدوره للحاج بدر على أنني أحد مسؤولي فتح، ورحب بي صاحب الوكالة من جديد، وطلب على الفور فنجان قهوة لي، لأن علينا أن نتحرك إلى الميناء بسرعة. وجدنا عدداً من الركاب على رصيف الميناء، فذهبنا جميعنا مع الحاج بدر إلى مركز الأمن لإنجاز الخروج على جوازات السفر، ثم صعدنا إلى

السفينة "بيسميكر".

تحدث الحاج بدر مع قبطانها عني موصياً إياه أن يعطيني غرفة خاصة للنوم، وأن يقدم الخدمات اللازمة، فأدركت من لهجته الآمرة أنه مالك السفينة.

نزل الحاج بدر ومندوب الحركة إلى الرصيف بعد أن ودعانا، وانتزع البحارة الحبال، وبدأ المحرك يدور، ثم أخذت السفينة ترجع إلى الخلف بإتجاه الرصيف ليبدأ صياح البحارة وصياح الحاج بدر محاولين أن ينبهوا القبطان وأن يستحثوه على تدارك الأمر.

خرج جميع الركاب من المقصورة في محاولة لتبين سر الضوضاء، وتكاثر الناس على الرصيف، وحتى تلك اللحظة لم استطع أن أعي ما الذي يحدث!.

كانت السفينة تسير بسرعة باتجاه الرصيف، والبحارة يرمون الحبال إلى بعض المتحفزين عليه، فأخذ بعضهم يشد الحبال إلى المرابط الموجودة في الميناء، وهرع البعض الآخر يعدل من وضع دواليب المطاط على حافة جدار الرصيف.

أخذ القبطان يصرخ على العامل المختص بشؤون المحرك في الأسفل، ويطلب دون جدوى إيقاف السفينة التي أصبحت على وشك الارتطام بجدار الميناء، وبعد أن أمكن إيقافها في آخر لحظة أخذ المتجمعون على الميناء يحمدون الله على سلامتنا، كل ذلك حدث في غضون لحظات قصيرة. بالنسبة لي لم أكن أقدر خطورة الموقف، ونظرت إلى ما يجري باستغراب، فليست لدي خبرة سابقة بالبحر، لقد قمت برحلتين بحريتين في السابق، ولكنهما قصيرتان، ولم أعرف منهما أي شيء عن

المراكب وسيرها بأكثر من المعلومات العادية.
كان القبطان قد أدار المحرك وبدأ بالرجوع إلى الخلف استعداداً لإخراج السفينة من الميناء، وعندما أراد إيقافها تعطلت الآلة الخاصة بإيقافها، فاستمرت السفينة تواصل تقهقرها باتجاه الحائط الخلفي الاسمنتي الصلب، موشكة أن ترتطم به، وهو ما يشكل خطراً عليها وعلى الركاب، لولا تدارك الموقف عن طريق شدها بالحبال إلى مرابط وقوفها الجانبية في الميناء، صرخ الحاج بدر للقبطان:

- لماذا لم توقف المحرك؟.

- تعطلت الآلة عندي، فناديت على العامل في الأسفل، ولم يتمكن هو الآخر من إيقافها.

- تأكد لي أن كان هناك ما يدعو إلى بعض الإصلاحات.

- ليس في الأمر ما يجعلنا نتأخر، يجب أن نتابع الإبحار.

****

بدأت سفينتنا في الساعة الثامنة من مساء السابع من تشرين الأول، عام ألف وتسعمائة وستة وسبعين تغادر ميناء ليماسول متجهة إلى صيدا، وعلى ظهرها أربعة عشر راكباً، وعشرة بحارة، جميعهم يتحسبون قرصنة الزوارق الصهيونية التي اعتادت أن تقطع على المراكب طريقها. رافقني على متن السفينة الشباب الأربعة من أعضاء "فتح"، وهم وليد بدر، معين أحمد، علي حسين، محمد الزغموت، الذي كان يحمل وثيقة

سفر لبنانية للاجئين، ويحمل الثلاثة الباقون جوازات سفر أردنية، وبقية الركاب يحملون جوازات سفر لبنانية، أما أنا فكنت أحمل جواز سفر يمني جنوبي.

وكان هناك عدد من البحارة الباكستانيين، وواحد قبرصي، واثنان من مواليد مدينة حيفا، يحمل أحدهم وثيقة سفر لبنانية للاجئين الفلسطينيين، واسمه عبد الفتاح أمين خالد ويلقب أبو مروان، والآخر يحمل جواز سفر لبناني ويلقب أبو علي، أما القبطان فقد كان لبنانياً.

اختلط جميع الركاب بعضهم ببعض، وبدأوا يتناولون المأكولات السريعة والمرطبات، اقتربت الساعة من التاسعة مساء عندما شعرت بالتعب والحاجة للنوم، فلم أنم في الليلة الماضية إلا القليل، وذهبت إلى القبطان في غرفة القيادة، فاستقبلني بقوله:

- سأعطيك غرفة تستريح فيها.

- نعم إنني أشعر بالحاجة إلى الراحة.

أمر أحد بحارته بترتيب غرفة في الأسفل لأنام فيها. ودعاني للجلوس برهة لشرب العصير، وبدأ يشرح لي كيف يحدد اتجاه سير السفينة بواسطة البوصلة، وإلى جواره البحّار الفلسطيني عبد الفتاح، الذي يناديه القبطان بلقبه أبي مروان.

راح الاثنان يدققان اتجاه الإبحار بين بوصلة بجوار مقود السفينة، وأخرى في الطرف الثاني من المقود حتى استقر الاتجاه تماماً.

جاءني بعد هنيهة أحد البحارة، ودعاني لأن أتبعه إلى غرفة أنام فيها، فتبعته إلى أسفل،حيث فتح باب إحدى الغرف، وهي غرفة صغيرة فيها

حامل خشبي يشبه السرير، مفروش بطريقة ملائمة ومريحة، وأشار علي:

- بإمكانك أن تنام هنا، وإذا احتجت شيئاً يمكنك أن تبعث لي بواسطة العمال بقرب هذه الغرفة.

- شكراً، لا أريد شيئاً.

صعدت إلى الفراش ولم أمكث سوى برهة قصيرة، استغرقت بعدها في نوم عميق.

أفقت في الصباح متأخراً، وقد تسلل الضوء إلى الغرفة من نافذة دائرية بالقرب من رأسي، نظرت من خلالها إلى أمواج البحر المتلاطمة، ولم تكن هذه النافذة تعلو عن سطح الماء إلا بمقدار يقل عن نصف المتر، فمددت يدي لألامس المياه التي تشقها السفينة محدثة فجوة وخطاً يحيطها من الزبد والماء النافر والرذاذ الكثيف، وهي تسير متأرجحة تجعلني أهتز مع تأرجحها.

أحسست برأسي يدور، وفكرت: إنه دوار البحر ثم قررت النهوض والصعود إلى الأعلى، إذ شعرت بحاجتي إلى التقيؤ. وجدت قسماً من الركاب على سطح السفينة يجلسون حول المقصف وهم يشربون الشاي أو المرطبات، فسألني بعضهم:

- أين أنت؟ لقد افتقدناك..

مع أنني لم أتصور أن هناك من يمكن أن يفتقدني من غير رفاقي، فقد أجبت بدون إبداء الاستغراب:

- كنت نائماً في الأسفل..

جلست معهم قليلاً، ورأسي ما زال يدور، إنه الغثيان! لقد اشتدت حاجتي إلى التقيؤ، فنهضت مسرعاً إلى حافة السفينة ورحت اتقيأ بشدة. أخذت أتشبث بحبال السفينة بينما رأسي يتدلى نحو البحر، وأنا أشعر بأمعائي تتلوى ومعدتي تتقلب وهي تضغط ضغطاً شديداً كي تطرد الطعام، اعتصرتني هذه الحالة، أبقت فمي فاغراً، وضغطت في أعلى الحلق، فأخرجت سائلاً أصفراً، وتكرر خروجه مع دفع ضغطات المعدة المتلاحقة، جاءني البحّار أبو علي قائلاً:

- لا بأس، يجب أن تخرج الصفراء من معدتك، لأنها السبب.

ثم أحضر لي بعض الماء، وطلب مني أن أغسل وجهي وفمي، استرحت قليلاً ثم شعرت براحة أكبر، وذهبت لأجلس في مقدمة السفينة أتأمل العباب.

راقبت حركة الماء وتجعدات الموج الخفيف، عصفت بذاكرتي الأفكار الكثيرة وأنا في مواجهة البحر. لم أر في تلك اللحظة من العباب سوى خيال والدي، هل رحل إلى الأبد حقاً؟! وهل طوته الحياة بعد أن كان يملؤها ؟! وفكرت لا بد لي أن احتفظ ببعض صوره، ولعل الأجمل منها تلك التي يضع فيها بندقيته على كتفه ويتمنطق (بالسلاحلك)، ويأتزر بزي الجهاد المقدس.

بدت لي تلك الصورة أجمل ما يتراءى من وجوه الطيف الذي يتماوج في خيالي على صفحة الماء، لكأنها تحمل المعاني التي تلامس أعماق جيلنا وأمانيه. شعرت بشيء من الراحة يعاودني لأننا تمكنا من الوفاء له، ونقل

رفاته إلى مدينة القدس ليدفن في مقبرة باب الاسباط بجوار الكثيرين من أبناء عائلتنا.

لعلها أمنيته الوحيدة التي أفصح عنها، وكأنها إرادته الأخيرة أن يدفن هناك بباب الأسباط، في ظل أسوار القدس التي أحبها وقاتل دفاعاً عنها، وارتبطت بها كل أمانيه وذكرياته.

لن أنسى أبداً عيون النسر المهاجر الذي زرع فينا لون الصخور الشامخة، لقد عاش صلباً ودافئاً ومضحياً، وعارك الحياة وحده، وجعل ابناءه ينبتون في ظل تربية صارمة، وعلّمهم كيف يعتمدون على صلابة أجنحتهم.

حقاً كان نسراً جديراً بالمهابة التي ظللت حياته، وبجلال الموت لحظة السكون الأخير، وبثرى الوطن مآلاً حنوناً للجسد الذي أجهدته تضاريس الحياة.

خطفتني من الذكرى أسئلة بعض الركاب الذين اقتربوا مني وهم يستفسرون من أحد البحارة عن الزمن المتبقي، فأجابهم:

- لم يظهر البر حتى الآن، بعد قليل سنشاهد الجبال، ثم ننتظر بضع ساعات للوصول.

نظرت إلى ساعتي فوجدتها العاشرة صباحاً، ومكثت بعض الوقت قبل أن يدفعني الغثيان إلى التقيؤ في البحر مرة أخرى، وقد كرر البحّارة معي المساعدة نفسها، أراد البحّار المسن أبو علي أن يهدئني بالقول:

- انك تربح كثيراً بخروج هذه الصفراء اللعينة.

عدت لأجلس في مقدمة السفينة، ومضى أكثر من ساعة قبل أن تظهر ملامح واهية للجبال، عندها بدأ بعض الركاب يشيرون إلى البر ويهتفون: إنها الجبال، لقد ظهر البر.

راحت السفينة تشق عباب الأمواج بأناة وبطء، فهي سفينة قديمة، ليست كغيرها من السفن أو المراكب الحديثة سرعة وثباتاً. كانت شمس تشرين معتدلة في ظهيرة ذلك اليوم، والبحر ليس عالياً ولا منخفضاً، والجو صاف لا تشوبه أية آثار للأحوال التي تضعف الرؤية، ومعالم الجبال تزداد وضوحاً وهي تملأ الأفق بخط متعرج يغلب عليه اللون البني.

كانت الجبال كأنها مجموعة من الأهلّة القوسية والمثلثات النافرة فوق صورة مجسمة، ترتفع شاهقة، تكللها نتف من بقايا الغيوم البيضاً البعيدة وشذراتها الممتدة في سماء نقية تغمرها الشمس بالضوء والوضوح، والبحر ينبسط أمام هذا الخط الذي يتقوس أحياناً ويحتد أحياناً أخرى، كأنه صفحة زرقاء تتماوج مع مدى الرؤية، وتترك فيها الشمس الساطعة لوناً من الصفاء والانعكاسات المبهرة الجذابة، التي تتناغم مع حركة الموج الخفيفة.

كان البحر يلتقي بزرقته المائلة إلى الاخضرار مع امتداد السماء في أقصى خط الأفق لولا تلك الجبال التي وقفت فاصلاً يربط بينهما، وكأنها خط الصعود. انطلق البصر في رحابة الأفق الواسع دون أن يجد ما يحده، ففي مثل هذه الرحابة تأخذ العيون مداها لتتمعن في الأبعاد الطبيعية للحياة خارج السواتر البرية، ولتلقي في الذهن إحساساً بالمدى الكوني العميق اللامتناهي.

ما أبدع المنظر! إنه لوحة رائعة التصميم تختلط فيها الألوان الزرقاء والبيضاء والبنية مع الضوء الغامر فتبهر النظر وتشد حدقات العيون بين مد وجزر، وتعطي وقعاً للطبيعة، يجعل الإحساسات الجمالية تستيقظ داخل النفس، ويلقي في الفؤاد إنشراحاً وحساً بالإنطلاق، ويجعل مسامات الروح تتفتح والأفكار تتداعى بغير حواجز.

ما أروع البحر، يرى الإنسان الأمور على مداه الهادىء، بمنظار جديد يتأمل فيما هو أعمق، ويذهب بعيداً يسبر معنى الحياة والأشياء، ويخوض بين أمواجه العاتية أقسى أنواع الكفاح وأكثرها رهبة وحدّة.

أخذت اللوحة تزداد وضوحاً وجمالاً كلما اقتربت معالم الجبال، وقد بدأت مدينة صيدا تلوح في الأفق البعيد ممتدة على مدى طويل في أدنى السفوح، وهي تعانق البحر عناقها التاريخي الذي يصل بعيداً في عمر الزمان. ويذكر بالمجد الفينيقي والحركة العامرة ما بين البحر والبر في ملتقى الحضارات القديمة.

فتحت صيدا للفلسطينيين أذرعها، وعزمت أن تسير معهم في الطريق الطويل، وهي تقف الآن قبالة البحر معبراً لحركتهم، ترقب المشهد المعقد في كفاحهم وكفاحها معهم، وتطل من عليائها على بداية الفتنة ومسارها ومآسيها.

برز عنصر آخر على صفحة البحر الممتدة، بعض الزوارق لاحت من مدى الرؤية البعيدة، قطع أحد البحارة الصمت قائلاً:

- إنها زوارق العدو !!.

وقع المحظور، وران الصمت والقلق عندما انطلق أحد هذه الزوارق متجهاً نحونا بسرعة فائقة، باقترابه قطع الشك، وقال أبو مروان:

- إنه أحد الزوارق التي سرقها العدو من فرنسا!.

أمر الزورق الصهيوني قبطان السفينة بالتوقف، وراح يدور حولها بحركة سريعة مرنة، ثم تباطأ واقترب منا، وقام بعض رجاله بتصوير مركبنا في حين حافظ البعض الآخر من جنوده على تصويب رشاشاتهم باتجاهنا.

كان واضحاً أن هذا الزورق حسن التجهيز والتسلح والكفاءة وأنه مزود بالرادار وأجهزة الاتصال، ولديه مرونة فائقة تظهر بوضوح من سرعته وحركته والتفافه.

توترت أعصاب الركاب تماماً، وبدأ البعض يتمنى لو كان معنا أي سلاح، وتخوف بعض البحارة من أن يتم اقتيادنا إلى الأرض المحتلة، أو إغراقنا، إذ سبق أن حاول زورق صهيوني إغراق السفينة (فينيسيا) بينما هي تقل الزعيم اللبناني كمال جنبلاط. وكان وقتها قبطان مركبنا وبحارته هم طاقم الفينيسيا، حدثونا عن ذلك فور ظهور الزوارق في البحر، كما حدثونا عن احتمال محاولة الإغراق والمضايقة أو الأسر.

ساد في المركب جو من التوتر والتخوف والترقب، ونحن ننتظر ما يمكن أن يفعله الزورق الصهيوني!، في النهاية فاجأنا بأن أشار لقبطان مركبنا أن يتابع سيره.

تنفس البحّار الفلسطيني أبو مروان الصعداء، قائلاً:

- الحمد لله.

فرد عليه أحد الركاب:

- ما زالت هناك زوارق أخرى قادمة باتجاهنا.

لاح العلم اللبناني على سارية أحد الزوارق وهو يقترب منا، وتبين أنه زورق حربي. وتساءلنا ما الأمر؟ أيعقل أن يكون الزورق لجيش لبنان العربي !! وإذا كان للانعزاليين، فكيف وصل إلى هنا؟!.

أجاب أحد البحّارة اللبنانيين:

- إنه في حماية الزورق الصهيوني!.

معادلة التحالف أمام عيوننا في البحر، واضحة تماماً والمنظر يشرح العلاقة الوثيقة، قلت في نفسي: ليس ما هو أوضح من هذا بكل أسف! . وفكرت أيضاً: "كم هم أعداؤك كثيرون أيتها الأمة! وكم هو النضال العربي مطوق وشاق! إن معركة تحرير فلسطين هي نفسها المعركة ضد التجزئة، ومن أجل النهوض الجديد، إن طريق الأمة شاق وطويل ومرير".

أمرنا الزورق الجديد بالتوقف، سأل أحد ضباطه قبطاننا بأعلى صوته: هل تحملون معكم فلسطينيين؟

رد عليه القبطان: ليس معنا أي فلسطيني.

وقف البحّار أبو مروان واجماً ومتخوفاً، وسمعته يقول للقبطان: لم يعد الظرف يسمح لي بسفرات أخرى، لن أعود مرة ثانية، فأجابه القبطان:

- نعم يجب أن تكون هذه آخر رحلة نقوم بها، الطريق أصبح خطراً للغاية.

كانت عينا أبي مروان تقدحان حذراً وريبة، وكان يقف بقامته الطويلة وبنيته القوية يراقب كل حركة أو إشارة، فهو يدرك خطورة موقفه كفلسطيني.

دفعني حب الاستطلاع والمعرفة أن أبدي له شيئاً من الاستغراب الذي يحمل تساؤلاً: أراك قلقاً للغاية؟!، فأجابني بحدة: أنا فلسطيني، هل تعرف معنى أن أكون فلسطينياً في مثل هذا الظرف؟!.

وأضاف على الفور: معناه الموت!، يكفي أن تكون فلسطينياً كي يحكم عليك بالقتل والتمثيل!

وكأنه انتبه إلى أمري فسألني بدون تفكير من أين أنت؟

- من عدن.

هز رأسه بأسى وقال: لا يبدو عليك! على أي حال فهم لا يرحمون العرب أيضاً.

مرت لحظات أخرى حرجة، التقط الجميع فيها أنفاسهم عندما صعد الضابط الذي يرتدي الملابس العسكرية الرسمية للجيش اللبناني قائلاً:

- اذهبوا في طريقكم.

بقي زورق ثالث مشغولاً بمركب صيد وجده في طريقه، ويبدو أنه أمر مركب الصيد بأن يتبعه، وما أن وصل إلينا هذا الزورق الذي يرفع أيضاً علماً لبنانياً حتى أمر قبطان مركبنا دون أي سؤال: إتجه إلى جونيه.

انتشرت كلمة جونيه في المركب بسرعة كبيرة، فبلدة جونيه القريبة من بيروت هي الميناء الرئيسي للقوات الانعزالية، وأحد مراكزهم الأساسية، صرنا جميعنا بين مصدق ومكذب.. حاول القبطان أن

يراوغ، لكن ضابط الزورق أعطى له أمراً واضحاً وحاسماً، وقد وجه رجاله مدافعهم الرشاشة صوبنا، وهم في غاية اليقظة والحذر والاستعداد للإطلاق.

التف الزورق من حولنا، بينما غاب الزورق الآخر مع الزورق الصهيوني بعيداً باتجاه عمق البحر إلى الجنوب منا.

عاد الزورق الذي يقودنا إلى قارب الصيد وعدل له الاتجاه ليستمر في تتبعه، بدأنا نتساءل: ما العمل؟!

قلنا للقبطان يجب أن نتصرف، أسر لي البحّار الفلسطيني:

- سنحاول الاقتراب من الشاطيء، عسى أن تقوم مدفعيتنا بالرماية إن هم أدركوا ما يجري، فهذه فرصتنا الوحيدة برغم ما فيها من خطر!.

أخذ مركبنا بالسير موازية مقترباً من الشاطيء، ومحاولاً الاتجاه نحو منطقة الجية. ولكن الزورق الآخر تبعنا من جديد وقادنا إلى عمق البحر باتجاه الغرب والشمال، أدركنا في تلك اللحظة أننا وقعنا في قبضتهم لا محالة.

ذهب الدوار من رأسي كلياً، ولم أشعر بأي ضعف، وقلت لنفسي: الموت لا بأس، ولكن ينبغي أن أموت واقفاً.

أشرت لأثنين من الشباب الذين برفقتي، وقلت لهم باختصار ووضوح، يجب أن تمزقوا كل الأوراق التي يمكن أن تكشف علاقتكم بالثورة، وترموا بها في البحر، هذا أولاً: أما ثانياً فعلى كل واحد منكم أن يفكر في رواية مناسبة يضع فيها سبباً مقبولاً لمجيئة إلى صيدا، يبعد

فيها الشك عن نفسه، وينبغي أن تكون رواية منطقية، ويمكن تصديقها ثم الإصرار عليها.

يجب أن لا يعترف أحد من المجموعة بأنه يعرف أي واحد من رفاقه، وأن يتظاهر وكأنه لم يشاهد أياً منا إلا على المركب فقط، وأن يحاول ترتيب أسلوب خاص به للتوصل إلى وكالة بدر، ثالثاً، يجب أن نكون رجالاً، "وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العار أن تموت جباناً"، ينبغي أن نحتفظ بأنفتنا وشموخنا، أعدت لهم كلامي مؤكداً على كل نقطة، ثم قلت: كل واحد منكم يخبر أحد الأخوة الآخرين دون أن يشعر بقية الركاب، من جهتي بدأت أفكر:

"لو اكتشفوا هويتي سيقتلونني حتماً، وربما يحاولون الإساءة لي أو إجباري على الإساءة إلى شعبي وثورتي!".

قلت في نفسي: "كلي ثقة بأنني لن أرضخ، سأموت قبل أن يكسروا إرادتي، من الأفضل لي أن أموت على خط دفاعي الأول، وأن أصر على أنني يمني". وتابعت تفكيري: "إنني أحمل جواز سفر يمنياً، ولكن هناك عدة ثغرات متعلقة بشكلي، ولهجتي، وسبب مجيئي في مثل هذه الظروف إلى لبنان، إضافة إلى أنه من المؤكد أن "فتح" سوف تطالب بنا إن نحن بقينا على قيد الحياة، إذن لا بد من أن تتوفر علاقة ما تربطني بفتح، ولا تؤدي إلى إدانتي أمامهم.

يجب أن أنسج رواية أتلافى فيها كل هذه الثغرات الحرجة، رواية منطقية ويمكن تصديقها، وأن تتوافق مع جواز السفر الذي أحمله، وكل الأختام التي على أوراقه، وأن لا أحتفظ بغير الأوراق التي تؤكدها وتنسجم معها، والأهم من كل ذلك، يجب الثبات عليها.

بدأت في البحث عن الأوراق التي بحوزتي، وأخذت أمزقها جيداً، وانزويت إلى الجانب الآخر من المركب حتى لا يراني من في الزورق الانعزالي، ورميت بتلك الأوراق في البحر.

تذكرت أن في حقيبتي ستة جوازات سفر لبعض الأخوة في دمشق، وسألت نفسي، ما الذي يجب أن أفعله بها؟

وقلت: لأنتظر قليلاً!.

ثم فكرت: "ولكن الانتظار سوف يجعلنا على مسافة أقرب لمنطقة نفوذهم، ولا أدري ما الذي سيكون عليه الأمر، إذن عليّ أن أوثقها ببعض القطع الحديدية وأغرقها في البحر.

تناولت حقيبتي، وأخرجت جوازات السفر، ولففتها جيداً، ثم جئت لأحد البحّارة –وهو مسن وساعدني أثناء التقيؤ– وطلبت منه بعض قطع الحديد، فسألني: لماذا؟

- لأمر ما!.

- ولكن يجب أن أعرف! فربما تريد أمراً لا ينبغي أن تقوم به!!

- حسنا! اتبعني.

نزل إلى باطن المركب، وسلمني بعض قطع الحديد الثقيلة، وقال لي: أحكم ربطها.

صعدت إلى مؤخرة مركبنا، من زاوية لا تتيح للزورق الآخر أن يراني وقذفت بجوازات السفر إلى البحر فبدأت تتهادى أمامي إلى العمق رويداً رويداً.

ما أن عدت من مؤخرة المركب حتى وجدت محمد الزغموت يبادرني بالقول:

- سألقي بنفسي في البحر محاولاً الوصول إلى الشاطيء سابحاً.

- ولكنك لن تصل، فالشاطيء بعيد جداً.

- أعلم، إنهم سوف يقتلونني! فلأمت الآن!.

قلت له بحزم: نحن رجال علينا أن نواجه قدرنا لا أن نهرب منه.

- ما هو الفارق إذا كان قدرنا الموت؟!.

- إذن أنت تهرب من موت إلى موت، يجب أن لا نموت بأيدينا وأن لا نفقد الأمل.

جعلني هذا الحوار أسأل نفسي: ما هي الشجاعة الآن؟ أن نموت أو أن نتشبث بأي أمل؟.

وقلت : لعل فرصة ما تلوح يجب أن لا تضيع، على أي حال ينبغي أن نسير على حافة الموت برباطة جأش.

نظرت إلى محمد بحزم واضح وأردفت: فكروا بما قلته لكم، لا بد أن نقدم إفادات منطقية ويمكن تصديقها، سوف يسألوننا عن سبب مجيء كل واحد منا في هذه الظروف إلى لبنان، لا أحد منا يعرف أياً من الآخرين، ولا أحد يعترف بحقيقة أمره، ولا أحد يذل نفسه، أو يضعف، هل هذا واضح! أجابني وهو يمضي.

- واضح.

أبقيت بعض الأوراق التي قد تفيدني في التحقيق منها تذكرة سفر دمشق-الكويت-دمشق، اشتريتها عند سفري من دمشق إلى الكويت، وبقيت معي بعد أن غيرت وجهتي إلى لبنان، ومنها رسالة أعطاني إياها أحد الأصدقاء لشقيقه في دمشق. كنت أعرف أن مضمونها يفيدني وأنها ستؤكد لهم أن مجيئي إلى لبنان هو في الحقيقة أمر طاريء.

عليّ أن أنسج قصتي الآن جيداً، وأن أفكر في كل شيء. فمعركتي معهم معركة إرادة وعقل في آن واحد.

اتجهت إلى مقصورة المركب، وجلست أفكر بالأمر، وجلس بعض الركاب وفي وجوههم الخوف والتعب يتحدثون عن أساليب القوى الانعزالية في لبنان ووحشيتها، وكيف أنهم يقتلون أي فلسطيني أو مسلم ثم يشوهون الجثث ويلقونها في مناطق التماس.

قال أحدهم:

لم ينج أي شخص وقع في أيديهم!.

وقال آخر: سوف يقتلوننا حتماً.

طفقت أستعيد في ذاكرتي كل القصص التي سمعتها عن الخطف والقتل والتمثيل، وهي كثيرة ومثيرة للإشمئزاز، فمئات الأبرياء قتلوا وشُوّهوا على الهوية، لمجرد أن أسم الواحد منهم يدل على انتمائه المذهبي أو الوطني.

تفقد أحد الركاب مصحَفَهُ، وخاطب نفسه بصوت مسموع:

- سوف يكون سبباً في زيادة تعذيبي، مع ذلك سأحتفظ به!!.

كنت مستغرقاً في التفكير فيما يمكن أن يسألوني، وكيف ينبغي أن أجيب،

حينما أخذت السفينة تتمايل فجأة مع الأمواج إلى درجة وصول مياه البحر حد حافتها، هرعنا لنعرف الأمر، فسقط البعض على الأرض، وتعثر البعض الآخر، وراح البحارة في مقدمة السفينة ينادون بأصواتهم العالية على الزورق الذي أمامنا.

أعتقدنا أن المركب من شدة تمايله واضطرابه يوشك على الغرق، مما أوقع الخوف والفزع لدى الركاب.

- ولكن ما الذي حدث؟

أجابني أحد البحارة بعد أن سألته هذا السؤال قائلاً:

- توقفت آلة المركب، هناك عطب ما.

- هل الأمر مجرد عطب أم أن هناك شيئاً آخر؟

- لا إنه عطب حقيقي.

رجع إلينا الزورق، فأخبر بحارتنا رجاله بالأمر، وسرعان ما رموا حبلاً متيناً ربطوا مركبنا به، ومضى الزورق بقطر سفينتنا.

استغرق الأمر أكثر من عشر دقائق حتى بدأ الركاب يعودون إلى وضعهم الطبيعي. حضر البحار الفلسطيني أبو مروان محاذراً أن ينتبه إليه الآخرون وأسرّ لبعض زملائه البحارة: أرجو أن لا يناديني أحد باسم سلام، اسمي هو عبد الفتاح.

رحت بدوري أتصل برفاقي كلاً على حدة متظاهراً بأنني أتحدث بأمور عادية، وكأنهم ركاب لم أعرفهم من قبل، مذكراً كل واحد منهم بما قلته لهم، وسائلاً إياه ما إذا فكر جيداً بما سيقوله لآسرينا، وأطلب مزيداً من

التفكير أو أصلح بعض الأقوال وأناقشها.

حرصت بالمقابل على أن أتحدث مع ركاب آخرين، ولم يكن حديثي معهم يعدو عن سؤال أو كلام غير ذي بال، المهم أن أغطي حديثي مع رفاقي.

جلسنا في المقصورة، معظم الركاب، وبعض البحارة، وقبطان السفينة الذي تأهب بجدية وقال: يجب أن نعرف اسماء بعضنا البعض، فربما يبقى أحدنا حياً ويخبر عن الآخرين، راح المتواجدون يعرفون بأنفسهم الواحد بعد الآخر، أما أنا فقد خرجت إلى مقدمة المركب، لأنني لم أرغب أن أواجه حقيقة الموت بأدنى قدر من الاستسلام!.

انطلقت فجأة بعض العيارات النارية المتعاقبة، وجعلت الركاب يهرعون لمعرفة ما الذي يحدث، فوجدوا الزورق الحربي مصدراً لهذه العيارات المتجهة نحو السماء، حيث ما فتيء أحد رجاله يطلق الرصاص باتجاه طائر بحري كبير، يعلو زورقهم ويطير بهدوء وبطء، أخطأته العيارات النارية المتعاقبة، ولم يتمكن ذلك المسلح من إصابته! فوقف أخيراً ينظر للطائر يبتعد شيئاً فشيئاً، وهو ما زال يأخذ وضع الاستعداد للرماية، وجدت نفسي أبتسم لهذا المنظر!!.

شاهدنا بعض رجال الزورق يتحدثون إلى أحد بحارتنا، وهو يقف في مقدمة المركب، إنه بحار باكستاني لا يجيد اللغة العربية، كانوا يتوعدونه ويشتمونه، وهو يبتسم لهم معتقداً أنهم يتسامرون معه، أصبحوا يتفوهون له بألفاظ بذيئة وقذرة، وهو يشكرهم على لطفهم ويستزيد، ابتسمت مرة أخرى للمنظر.

انقطع حبل القَطْر فجأة من جديد، وراح المركب يتمايل في أحضان

حركة الماء التي أخذت تتقاذفه بقوة، ومرة أخرى هب الركاب بعضهم مذعوراً تحت وطأة هذه اللطمات البحرية.

رجع الزورق الحربي وربط رجاله الحبل بتذمر وامتعاض، إلا أن الأمر لم يتوقف، فقد عاد الحبل للانقطاع قبيل غروب الشمس مباشرة، فأعيد ربطه هذه المرة مع الزورق الآخر الذي عاود اللحاق بنا والاقتراب منا.

وكانت الشمس قد أصبحت على حافة الأفق تماماً، وكانت اشعتها تنعكس على أمواج البحر البعيدة محدثة تمازجاً جميلاً ما بين لون الشفق ولون البحر، وقد أصبح ينعكس عليه خط الشفق بذرات حمراء متلألئة على سطح الماء آخذة شكل نهر المجرة.

صار البحر سجادة زرقاء فسيحة تكتسي صفحتها الرحبة بالخطوط والانحناءات التي أحدثتها حركة الهواء بتياره اللين الهادئ، وكانت الأشعة الحمراء تنعكس بخط طولي يتماوج مع انحناءات الماء، وينعكس بلون يغمره لون الشفق، ويختلط بالأزرق الذي يشوبه اخضرار خفيف.

كان خط الانعكاس بين الشمس والبحر يحتد ويمتد كلما أصبح سقوط الجمرة المضيئة وشيكاً.

راح جو تشرين المعتدل يضيف رونقه للبحر ولبقايا الأصيل، ويترك لمساته وهو يبعث الطراوة من نسائمه المنعشة، لتمس الجسد مساً لطيفاً وعذباً، وكأنها تناجيه بلحن من الشفافية والنعومة.

أما السماء فكانت صحفة صافية تمتد امتداداً يتصل بخط الرؤية في البحر عند نقطة الأفق.

كان المنظر أمامي وكأن الطبيعة عروس طاووسية تختال وتتجدد وهي تستعرض بهاءها الجامح بجلال قوة الخلق المبدعة، كي تدخل في

النفس ذلك الإيقاع الموسيقي الدافيء، الذي يوقظ توتراً شعرياً وجمالياً عظيمين.

شعرت بحاسة جديدة تتحرك في أعماق روحي، هي الحاسة الجمالية، وبدأت تتدفق إلهاماتها في النفس محركة الحنين إلى الشعر والرسم والموسيقى تماماً كما تتدفق أمواج البحر وتفيض على حافة السفينة.

إن البحر يلقي في النفس إحساساً بالطبيعة وعظمتها أكثر عمقاً، يجعل الإنسان يرى نفسه نقطة صغيرة في صفحتها اللامتناهية.

أعادني البحر إلى علاقة الإنسان بالطبيعة، وصراعه المرير من أجل السيطرة على قوانينها، وتسخير قواها لخدمة حياته.

واجه الإنسان هذه الطبيعة الهائلة أعزل عارياً، لكنه استطاع بفضل العقل والإرادة والعمل أن يصبح سيد الأشياء الكبيرة والصغيرة في عالمه بعد أن كان في الغابة طريداً للحيوانات المفترسة.

البحر غابة هائلة، لا نرى سوى سطحها ونحن نمر من فوقها. عمق البحر مليء بالحياة والأشياء، إنه عالم معقد يضج بالكائنات وتدور فيه صراعات حادة للغاية، فثمة أحياء تبحث عن البقاء، وثمة أحياء تفترس كل ما تجده في طريقها، حيث القوة هي الحكم الأول.

إنه قانون الغريزة الذي يجعل الأمور رهناً بالحاجة على مستوى الكائن الفرد، والغريزة عاتية، يجب أن يضبطها الضمير والعقل والإرادة، وهو ما يحتاج في المجتمعات البشرية إلى وصول عوامل الذات الإنسانية إلى مستوى من التطور والتأهيل بعوامل الفضيلة في إطار الترابط والتكامل وتأمين الحد المناسب.

ثمة أفراد وجماعات ضمن المجموع الشامل للبشرية والأمم يفتقرون

بدرجة من الدرجات إلى هذا الوصول، وهو ما يؤدي إلى سيطرة الحس الغريزي عليهم، سواء بحكم غرائز الأفراد أو غرائز الجماعات. غالباً ما يتحول هؤلاء الأفراد أو الجماعات إلى قوة مدمرة ومعتدية في تاريخ الإنسان، إلى إحياء بحر مفترسة تمتلك القوة أحياناً، وربما تمتلك التفوق العلمي أيضاً، ولكنها محكومة بحس الغريزة المنفلت عن إطار الحس الشامل للإنسان ككائن يتكامل في مسيرة التطور.

إنه الجانب الآخر من النفس البشرية، ذلك الجانب الذي يمتلئ بحوافز العدوان وتلبية الشهوات، والسيطرة، والتدمير، ولا يضيؤه من شيء سوى شمعة الوجدان المتقدة، ونور البصيرة والخير.

أيتها النفس المليئة بالشهوات والخوف والأنا، هذا الثلاثي المزدوج ما بين خصائص الحاجة الفطرية والشر، إنك أيضاً مليئة بالسمو والجرأة والتجرد، وإذا كان الثالوث الأول يخلق الإنسان بين حدوده الطبيعية وبين الشرير، فإن الثالوث الآخر يمكن أن يخلق الأبطال والقديسين.

بالعقل والإرادة والعمل انتصر الإنسان في الصراع بين الخير والشر، وبين الإنسان وغيره، وبها يمكن أن ينتصر في كل معاركه.

تذكرت أنني الآن على أبواب معركة تحتاج إلى مقومات الانتصار، ليس فقط دفاعاً عن الحياة، وإنما دفاعاً عن المعاني السامية وتحقيقاً للواجب أيضاً.

إن الحياة لدى المناضل في سبيل ما هو أسمى ليست فوق كل شيء، وخاصة لدى المناضل في إطار قضية مليئة بالتحدي والصراع، تجعله يعتاد الموت اليومي ويستهين بملاقاته.

في أوار التحدي والصراع والمسيرة الصعبة إلى فلسطين لا بد لنا أن ندرك

أن المسألة ليست مسألة العمر الأطول، ولكنها مسألة الفعل الأكثر.
إن الفارق بين الحياة والموت يكمن من حيث الجوهر في فعالية الإنسان وآثاره، فثمة من يعيشون مائة عام ولكنهم ينتهون بمجرد أن يواروا الثرى، وثمة من لا يعيشون سوى العشرات القليلة من السنين، ولكنهم يتركون بذوراً تنبت في الحياة وتنبت لهم أعماراً جديدة.
الحياة تقاس بالفعالية وليس بالأيام، وثمة من يكثفون في لحظة واحدة فعلاً عظيماً يساوي عمراً بأكمله.
نعم علي أن انتصر، لأن واجبي أن انتصر!! عدت أفكر من جديد بما أنا مقبل عليه، أخرجت جواز سفري، وتفقدته صفحة صفحة وختماً ختماً، لكي لا أدع مجال لأي خطأ يمكن أن يتحول إلى ثغرة في أقوالي واستغرقت أوافق بين الأقوال التي أعددتها وبين جواز السفر والأوراق الأخرى التي أبقيتها.
أصبح الظلام يخيم على البحر، تألقت نجمة الغروب، النجمة الزهراء، وقد توهجت اشعاعاتها الثمانية توهجاً ماسياً لترسل نورها الأزرق الذي ألهم الخيال الاسطوري للإنسان، وصارت أضواء الشاطئ تتلألأ أمامنا، وكأن الحياة عادية في لبنان، شاهدت خطاً متصلاً من أنواع السيارات على الطريق الرئيسي الساحلي ما بين بيروت والمنطقة الشمالية المحاذية للبحر، تمكن الإعياء والتعب من بعض الركاب، فاستلقوا هنا وهناك نائمين، أما أنا فقد أحسست باليقظة والجوع، وقلت في نفسي:

- يجب أن آكل، فمن يدري كم سنبقى بغير طعام؟!

طلبت من العامل المختص في المركب بعض الطعام، فأحضر لي قطعاً

من الخبز اليابس وقليلاً من حبات الزيتون تذكرت طفولتي، فأنا أجهل مصدر هذا التفاؤل، وقد سبق أن تفاءلت في موقف آخر برؤيا الخيل التي أعشقها منذ الطفولة.

صرنا على مقربة من ميناء جونيه عندما تركنا الزورق عند نقطة في البحر، وأمرنا بالانتظار فيما كان يمضي باتجاه الميناء، وما هي إلا لحظات حتى اقتربت منا قاطرة بحرية يسبقها ضجيج محركها، وأشار رجالها إلى القبطان أن يرفع مرساة ليقوموا بقطرنا باتجاه الرصيف.

شاهدنا في طريقنا إلى الرصيف سفناً مضاءة على الجانبين، يقل بعضها ركاباً يبدو عليهم انتظار السفر، أما الرصيف فقد اكتظ بحشد من المسلحين الذين كانوا يحملون البنادق والمسدسات والخناجر، ترك هذا المنظر حالة من الخوف والتحسب وانتظار المجهول في نفوس ركاب سفينتنا، فكرت:

- ربما تصبح رؤوسنا بعد قليل بين أقدامهم يتقاذفونها!.

يا لكآبة الخيال، وما أضيق الطريق الذي يفضي إلى الحياة وما أوسع مسافات الأمل.

أعمدة الرماد

ما أن رست سفينتنا على الرصيف حتى قفز بعض المسلحين إليها يتسابقون في سؤال الركاب:

- من منكم فلسطيني؟

كنت أقف خارج المقصورة على حافة المركب متوارياً أرقب المنظر والرصيف، فاقترب مني أحد الضباط ليسألني:

- هل أنت من الركاب؟

- نعم.

- أدخل مع الآخرين!

دخلت إلى المقصورة، بذل الضابط مجهوداً ومعه بعض الجنود النظاميين في إخراج المسلحين، حاول بعضهم الإفلات للفتك بمن سيجدون أنه فلسطيني، لكن الجنود تمكنوا بصعوبة من إخراجهم، حضر ضباط آخرون، وفي محاولة منهم لإقناع الحشد الهائج بالنزول إلى الميناء قال أحدهم:

- سنسلمكم كل فلسطيني نجده، يجب أولاً أن نفرز الركاب فهناك بعض الأجانب، وهذه السفينة قبرصية!.

وبمحاولات من هذا القبيل تمكن أخيراً ضباط من الجيش اللبناني ومعهم بعض جنودهم من اقناع المسلحين بالتريث.

أبقونا في المقصورة، ووقف عند كل من بابيها جنود حراسة يمنعون غير المرغوب فيهم من الوصول إلينا، أمرونا بالجلوس في إحدى زواياها،

وجمعوا جوازات سفرنا.
جلس عدد من مسؤوليهم خلف مقصف السفينة، وبدأوا في استدعائنا بعد أن فرزوا جوازات الركاب عن جوازات البحارة.
في هذه الأثناء عاود بعض المسلحين والجنود التجمع قرب نوافذ المقصورة يتصيدون البحث عن الفلسطينيين دون أن يجيبهم أحد الركاب، أخذ الضباط يستدعوننا واحداً واحداً.. بادئين ببعض اللبنانيين مركزين على سؤالين ما هي جنسيتك؟ ولماذا أتيت قاصداً صيدا، محاولين التأكد لدى كل إجابة بتقليب جوازات السفر التي بين أيديهم.
توقفوا عند اللبناني الأول بعد استجوابه وسؤاله عن تذكرته الشخصية وعندما أبرزها لهم قالوا:

- أنت لبناني، وهذا بلدك، نحن نبحث عن الغرباء!.

صاروا يفرزون اللبنانيين الذين يحملون تذكرة شخصية إلى جانب جواز السفر عن غيرهم، أما الذين يحملون تلك التذكرة وقد صدرت جوازات سفرهم بعد انقلاب الأحدب، فقد أبقوا جوازاتهم عند المحقق بسبب الاشتباه بهذه الجوازات.
نادوا على أحد الشباب من مجموعتنا، وهو علي حسين وراحوا يسألونه:

- اسمك؟

- علي حسين.

- جنسيتك الأصلية؟

- أردني.

- هل أنت من أصل فلسطيني؟

- لا.. أنا من شرق الأردن.

- لماذا كنت قادماً إلى صيداً؟

- لآخذ شقيقتي التي تسكنها.

سألوه عن اسم شقيقته، وزوجها وعمله، وبعض التفاصيل الأخرى، ثم قالوا:

- أنت تكذب، أنت فلسطيني، أخبرنا بالحقيقة؟

ولكنه بقي مصراً وثابتاً على أنه أردني وأنه قال لهم الحقيقة، ويبدو أن إجاباته قد عززت شكهم بكونه فلسطيني، فأبقوا جواز سفره معهم طالبين منه أن يجلس.

وما أن جلس حتى بدأ المسلحون خلف النوافذ يسألونه ما إذا كان فلسطينياً، وهو ينفي، فطلب منه أحدهم أن يقول (بندورة) فأجاب:

- بندورة، (بسكون النون).

فصرخ المسلح قائلاً:

- كاذب، الفلسطينيون هم الذين يلفظونها (بندورة، بسكون النون)، أما الآخرون فيقولون (بندورة، بفتح النون).

هاج المسلحون على النوافذ، وراحوا يصرخون (فلسطيني)، وهم

يلوحون ببنادقهم وخناجرهم، واندفع بعضهم باتجاه الأبواب محاولين التدفق إلى المقصورة وهم يطالبون بإخراج الفلسطيني، وقف الجنود بأوامر من الضباط في وجههم، وتدخل ضباط الجيش شاقين طريقهم إلى الأبواب، ولولا هذا التدخل وتشكيك البعض بأن الأردنيين يلفظون كلمة بندورة مثل الفلسطينيين، وتعهد المسؤولين بتسليمه للمسلحين في حال ثبوت كونه فلسطينياً، لأصبح الأخ علي حسين ضحية تسكين النون في كلمة بندورة.

بعد علي حسين جاء دوري بحسب ترتيبهم لجوازات السفر، نادوا علي، ووجهوا لي الأسئلة:

- اسمك؟

ذكرت لهم اسمي كما ورد في جواز السفر بين أيديهم، وقد ورد فيه خطأ أفادني، وهو اختلال في الأحرف في أسم العائلة أدى إلى تقدير حرف عن آخر.

- جنسيتك؟

- يمني جنوبي.

- لماذا كان حضورك باتجاه صيدا؟

- جئت لتصفية حساب تركة والدي بعد أن توفى في الكويت.

- أين ستصفي هذا الحساب؟

- مع شريك لوالدي يقيم في بيروت.

- ولا تأتي إلا في هذه الظروف؟!

- نحن مضطرون أن نوزع الإرث بعد حصره بحضور الورثة مجتمعين، وقد أخبرني جيران لنا في الكويت أن بإمكاني أن أسافر عن طريق قبرص إلى صيدا، ثم أتوجه إلى بيروت وأن أعود، مؤكدين أن كثيرين قد فعلوا ذلك.

قطع أحد الضباط أسئلتهم لي بدخوله للحديث معهم بأمر ما فطلبوا مني الذهاب والجلوس بين الركاب.

بعد برهة من الوقت عادوا ثانية لاستدعاء الركاب، إلا أنهم استدعوا واحداً غيري، سرعان ما أثبت أنه لبناني يدرس في فرنسا، وحضر لزيارة أهله والاطمئنان عليهم.

انتهزوا هذه الفرصة للحديث عن الفرق بين الفلسطيني واللبناني، مستخدمين ألفاظاً بذيئة ونابية، مما جعل كل واحد منا يحس بالاستفزاز والألم.

رحنا نتبادل فيما بيننا نظرات الغيظ والقهر، ولعلي لم أكن وحدي الذي أحس بداخله أنه على وشك الصراخ بهم عندما قطعوا هذا الهاجس ونادوا على التالي وهو أحد أفراد مجموعتنا.

تقدم وليد بدر باتجاه المحقق الذي بادره بالسؤال:

- وليد سليمان بدر، لماذا أتيت إلى لبنان؟

- جئت إلى لبنان لأن لدي بعض الأعمال والمصالح، ولأنني أريد أن أشاهد "كباريهاتكم"!.

قال "كباريهاتكم"، وهو يشير إليهم، إلى المحققين، وكأنه يعنيهم هم على وجه التحديد، بل أنه قصدهم فعلاً، ولم يقصد غيرهم، فوجيء الجميع بجوابه، أما أنا أدركت تماماً أنه أراد إهانتهم وأنه تحدث وهو شديد الغيظ مما سمع قبل قليل.

لطمه المحقق على وجهه وسأله مستنكراً:

- كباريهات في الحرب يا ابن ... ؟!

رفع وليد رأسه عالياً، وبعنفوان وإباء صرخ فيه:

- اضرب!

ضربوه في كل مكان من جسده، ركزوا على رأسه ووجهه، وأصبح في لحظة خاطفة بين أقدامهم، وسال الدم من أنفه ليغطي فمه والجزء الأسفل من وجهه، فتحوا جرحاً في رأسه، وما زال يصرخ بكبرياء وعناد:

- اضربوا!.

هب أحد المسؤولين مشيراً للآخرين بالتوقف عن الضرب، ثم تحدث مع بعض زملائه بالفرنسية، فأدركت فوراً أنه يعني تغيير مكان التحقيق، وبالفعل سألوا القبطان عن وجود مكان آخر مناسب على ظهر السفينة، فدلهم على غرفة قيادتها.

انتقل المحققون إليها آخذين معهم جوازات السفر والأوراق، وبقي معنا أفراد الجيش، وبعض الضباط، ومن يبدو عليهم أنهم بعض المسؤولين.

ساقوا معهم وليد لاستكمال استجوابه أو بالأحرى ضربه وتعذيبه، كان من بين ركاب السفينة أحد الذين اعتادوا التنقل بين صيدا وقبرص للكسب التجاري، وأسمه رفيق ضو، وهو لبناني يبدو عليه أنه من صنف المهربين الحقيرين، إنسل من بيننا في المقصورة بخبث مع أحد المسؤولين من حزب الكتائب اللبناني إلى خارج الباب، وأنزوى به يهمس له ببعض الأمور، فأخذ هذا المسؤول ينظر من النافذة إلى الأشخاص الذين أشار عليهم رفيق ضو، وقد كنت واحداً منهم، قدرت أنه يقدم وشاية عن الذين اشتبه بهم أو الذين تخلصوا من بعض أوراقهم في البحر، أكتشفت فيما بعد أن حسي قد أصاب، وهو ما تبينته من البحار أبي مروان الذي كان واقفاً بين البحارة قريباً منه، وتمكن من سماع بعض أجوبته وبعض الاستفسارات التي وجهت إليه من قبل عناصر كتائبية تحلقت حوله وحول المسؤول الكتائبي الذي وقف معه.

أخذوا الأخ علي حسين واستدعوا الأخ معين بعد وليد مباشرة، فساورني الشك، لماذا يأخذون علياً ومعيناً الآن!؟ هل تكلم وليد !؟ لقد ظهر كصاحب إرادة حقيقي ولا أعتقد أنه تكلم.

ثبت أن الأمر مجرد صدفة، لقد أخذوا علياً لأنهم قرروا عدم إبقاء الذين يستجوبونهم في المقصورة بعد الاستجواب الأولي معهم، وأخذوا معيناً نتيجة لترتيب الجوازات ليس إلا !، المؤشر الأول على ذلك جاء باستدعاء أحد اللبنانيين العاديين مباشرة بعد معين.

دخل مسؤول كتائبي، رحب به الحضور من عناصر الجيش ومن الكتائبيين على السواء، واتخذ مكاناً له في المقصورة، ثم توجه بالحديث إلى بعض اللبنانيين الذين انتهى استجوابهم دون الاشتباه بأمرهم.

قال لهم على مسمع الجميع:

- سيتم إعدام كل الغرباء الذين على ظهر السفينة، أما اللبنانيون الذين لا علاقة لهم بالحرب فسيطلق سراحهم فوراً.

أصبحت هذه العبارة تتكرر فيما بعد من قبل الكثيرين من مسؤوليهم، ومنهم كتائبي آخر جلس إلى جواري قريباً من رفيق ضو، وقد سمعته يقول:

- من تثبت براءته نعيده إلى هذه المقصورة، وسنطلق سراحه، أما المشبوهين فلن يخرجوا أحياء.

استمر الاستجواب، وهم يستدعون الواحد بعد الآخر، وفي كل مرة اتساءل، ما إذا اكتفوا بسؤالي أم أن دوري سيكون التالي، ولكنني بقيت انتظر.

راح بعض الكتائبيين، ومعهم ضباط صغار يتحدثون معي، بدأت الحديث عن سبب مجيئي، كررت لهم بالطبع الجواب الذي رتبته، وبعد أن دخل إلى قلوبهم شيء من الاطمئنان حدثوني عن الحرب في لبنان، وأنهم يرون بلدهم يدمر ويحترق بسبب أطماع الفلسطينيين، فرحت أجيبهم بإبداء الاستغراب لما يقولون بدون استفزازهم.

رأينا من نافذة المقصورة الركاب الذين اشتبهوا بأمرهم ينزلونهم إلى الرصيف، ويتراكضون حولهم، لم نستطع أن نميز ماذا يفعلون بهم، لكن الإحساس الذي ساد أن تصفيتهم قد تمت، خاصة أنهم عندما أنزلوا محمد الزغموت سمعنا إطلاقاً للرصاص، وأننا لاحظنا أثر حركتهم واندفاعهم بينما المدي والخناجر والمسدسات والبنادق جاهزة بأيديهم.

أصبح رهاني الأول في تلك اللحظة على إمكانية خداعهم والافلات منهم.

إنتهى استجواب جميع الركاب، عاد بعض المشاركين في الاستجواب فسأل أحدهم:

- بقي شخص واحد لم يأخذ جواز سفره اين هو؟

عرفت أنني المعني، فأنا الوحيد الذي بقي ينتظر دون أن يعيدوا إليه جواز سفره، فأجبته بهدوء.

- نعم ، أنا هو.

- تعال معي.

بدا واضحاً أن المحققين قد تركوا غرفة القيادة على اعتبار أنهم فرغوا من مهمتهم، تبعت المحقق الذي ناداني، وإذا به يسألني:

- أين حقائبك؟

- إنها هناك.

أشار لبعض المسلحين أن يأخذوني معهم بعد تناول حقيبتي، فقلت له:

- انكم لم تسألوني؟

- حسناً سوف نسألك في مكان آخر.

أمسك بي كتائبي يرتدي قميصاً طبعت على صدره عبارة "الكتائب اللبنانية"، وهو شخص قصير القامة ممتلئ البدن قليلاً، توقعت أن

يكون أسمه جورج لأنني سمعت من حوله في تلك الأثناء يتداولون هذا الأسم، وقد قال لهم:

- هذا يمني لا علاقة له بهم، أتركوه معي.

فسألته:

- أين ستأخذني؟

- ستشرب فنجان قهوة ثم تعود!.

تأبطني من ذراعي وهو يقتادني إلى رصيف الميناء، وبعض المسلحين يتبعوننا في الظلام، تحسس ساعتي ثم خاتم زواجي وسألني:

- أين النقود؟

وضعت كل ما معي من نقود في جيب قميصي على الصدر،ومن السهل عليه أن يجدها، إلا أنني أنكرت وجودها، فقال لي:

- كذاب، مسافر ولا تحمل نقوداً؟!

مد يده مباشرة إلى جيب القميص، وأخذ كل ما أحمله، ثم قال لي:

- إذا تحدثت بكلمة واحدة سوف أقتلك.

واستدار بي عائداً ليقول للمسلحين:

- أدْخِلوه.

أدخلوني إلى بناء مجاور، وراحوا يضربونني بالعصي وأكعاب البنادق والأيدي بدون توقف، حتى وجدت نفسي في غرفة يقف فيها كل

الآخرين الذين تم احتجازهم، وتبدو على الجميع آثار الضرب الوحشي، الدماء تسيل من جروح في رؤوسهم، ووجوههم أصبحت متورمة، ومزرقة، ملابس معظمهم ممزقة وصدور بعضهم عارية.

قذفوني بين الآخرين، وانهالوا علي باللكمات، وبالعصي على رأسي وظهري، ركلوني بالأرجل، ضربوا بكل وحشية، كأنهم يفرغون أطناناً من الحقد الأعمى!.

لم أعد أحس بشيء، أدمن الجسد بسرعة فائقة ركلاتهم وضربات أعقاب بنادقهم، شعرت بقوة التحدي والصمود، تساوى الموت بالحياة، وامتلأ قلبي بالعنفوان وقررت أن لا أنحني.

أحس الجلادون بالكلل، تعبت أياديهم، جروني إلى صف المحتجزين، وصاروا يضربوننا الواحد بعد الآخر.

وقف ثلاثة من الحراس على باب الغرفة يشهرون بنادقهم باتجاهنا، سمعنا أصوات المسلحين في الخارج والجنود الآخرين يتدافعون محاولين الوصول إلينا، يمنعهم رقيب أنيطت به حراستنا، وهم لا يكلون عن محاولة إقناعه بالقضاء علينا.

أصبح ضغطهم عليه شديداً، مما جعله يعرض عليهم أن يدخلوا واحداً واحداً، وأن يكتفوا بضربنا، وهكذا راحوا يدخلون علينا الواحد بعد الآخر.

دخل المسلح الأول، وبدأ باستجواب أقرب واحد منا إلى الباب، ثم انهال عليه ليفرغ منه، بالانتقال إلى واحد آخر، وهكذا حتى دار على الجميع، فتبعه مسلح آخر، وبهذه الطريقة راحوا يتوالون علينا واحداً واحداً.

جاء دور مسلح لا يدل مظهره على أيه لياقة عسكرية، له شكل مدرس غبي منفوخ العضلات والجسم، وقد اختارني بالذات ليجرب فيّ عضلاته، بدأني بالسؤال عن اسمي، فلم أجبه. صرخ في وجهي ولم أجبه أيضاً، صممت على أن أوجه إليه أبسط أنواع الاستخفاف به وهو عدم الإذعان له، وجه لكمة قوية إلى معدتي، وانهال علي ضرباً، لكنني بقيت راسخاً أشعر أن وقفتي هذه كفيلة بإيقاع الهزيمة في نفسه مهما آلت إليه النتيجة.

استدار إلى الناحية الأخرى، موجهاً لكماته إلى شخص آخر، وهو يشتم العرب والفلسطينيين، وخرج من الغرفة لما تعب، ليحل مكانه جندي ملتح قصير القامة، وقف في منتصف الحلقة وراح يسأل باستعراض سخيف:

- من منكم يلعب كراتيه؟

ولما لم يجبه أحد، نظر إلى وليد وقال:

- أنت يبدو عليك أنك لاعب كراتيه.

لعله اختار وليداً بالذات لأنه أقل الموجودين وزناً، أمسك بوليد من شعره الطويل، واستجمع كل قوته ليهوي عليه بضربة عنيفة على وجهه المليء بالكدمات وبآثار الضرب السابق، ثم سأله:

- لماذا أتيت إلى لبنان؟

ولأن وليداً لم يجبه قال له أحد الحراس:

- جاء يفتش عن كباريه.

وضع الجندي رأس وليد بين يديه، وضربه بالركبة في وجهه، فجرح وجه وليد، ونزل الدم مرة أخرى من أنفه، ولم يتوقف الجندي عن مواصلة الضرب باللكمات، ولم يترك وليداً إلا بعد أن تعب وخرج.
نظرت إلى وجه وليد فوجدته قد ضرب بقسوة بالغة، مما جعلني لا أتمالك صبري، ووجهت حديثي إلى الحراس قائلاً:

- أنتم المسؤولون عن حراستنا، فلماذا لا توقفوا ضربنا؟.

نظر إليّ أحد الحراس باستغراب، وهمّ بالرد علي، ولكنه سرعان ما أشاح بوجهه عني.
تهيأ جندي آخر للدخول، لكن الرقيب سارع من خلفه قائلاً:

- ارجع حضر الرائد.

ولج الغرفة ضابط برتبة رائد، وراح يتفحصنا بعينيه واحداً بعد الآخر، سأل بعضنا عن اسمه وجنسيته، وكنت واحداً من الذين سألهم، وبعد أن استمع إلى أجوبة بعضنا هز رأسه وبدأ يلقي علينا حديثاً، قال فيه:

- أنتم تريدون إحراق لبنان، لأنه الحضارة، ولكننا نحن اللبنانيين سوف نحرقكم لأنكم الهمجية، أنتم العرب تمثلون الهمجية ونحن نمثل الحضارة، العروبة فكرة نحن الذين اخترعناها، ولكننا تركناها لأنها صارت تمثل الهمجية.

استغرق يتحدث عن حضارة مسيحيي لبنان، واصفاً إياهم بأنهم إنسانيون ومتحضرون ويدافعون عن وطنهم، وأكد من جديد أن كل من هو غير لبناني لن يخرج حياً. وعاد يتحدث عن العروبة وكيف

أوجدها المسيحيون.
شعرت وهو يركز نظراته باتجاهي وكأنه يخاطبني مما دفعني إلى الرد حول فكرة العروبة.
فنظر إليّ مستغرباً أن أرد عليه، وتقدم مني ذلك المسلح الذي يبدو كمدرس غبي ليصرخ في وجهي:
- اخرس، عندما يتحدث الرائد أنت تسمع فقط.

غادر الضابط الغرفة فور فراغه من حديثه، ولم يكن قد ابتعد أكثر من ثلاثة أمتار حتى عاد المسلحون يضربوننا بأيديهم وبنادقهم وبما توفر لديهم من عصي وهراوات، واستمروا في ضربهم العشوائي الحاقد حتى سمعوا أحد الحراس من الخارج ينبههم من جديد:
- الرائد.

توقفوا عن ضربنا، ثم دخل ضابط جديد برتبة رائد أيضاً، ونظر إلينا واحداً واحداً، ليحدثنا هو الآخر عن لبنان، وعظمة الموارنة فيه، وإنسانيتهم وأسلوبهم الحضاري.
كانت الدماء على وجوهنا، وآثار الضرب الظاهرة فينا تكذب كل حرف مما يدعيه لهذا الجزء الذي يمثله من المارونية الانعزالية، فقد كان التزوير والإدعاء واضحين في كل جملة تفوه بها..
انتقل إلى الحديث عن الأزمة اللبنانية مشيراً إلى أنها بدأت بمقتل معروف سعد، واتهم المقاومة الفلسطينية بقتله من أجل تفجير لبنان.
شعرت بأن كلامه، يدعو للإشمئزاز، وأنه كذب واضح، فمن المؤكد لنا أن عملاء المكتب الثاني هم الذين قتلوا المناضل معروف سعد، وأن

رحيله شكل خسارة كبيرة للصف الوطني اللبناني وليس العكس.
تعمدت أن أنظر إلى ساعتي مبعداً وجهي عن الضابط هرباً من استفزاز نظراته وعباراته، فانتبه أحد المسلحين إلى ساعتي، واستدار لأحد الحراس قائلاً:

- لماذا تبقون هذه الساعات الجميلة معهم؟.

نظر الحارس إلى الساعة، وأدركت من نظرته أنه عزم على أخذها، بينما استمر ذاك الرائد في الحديث عن اللبنانية واللبنانيين، مضيفاً هو الآخر:

- إننا سوف نتسامح مع كل لبناني، حتى المسلم اللبناني سوف نسامحه، أما غير اللبنانيين فإنهم لن يخرجوا أحياء.

وأضاف أيضاً:

- سنقضي على الفلسطينيين، ونخلص العالم من شرهم، لم يبق لهم سوى منطقة صغيرة في بيروت، سندمرها على رؤوسهم!.

تذكرت بداية حديثه عن الإنسانية، وطفقت أتابع كلامه وأنا أفكر في دوافعهم، ما الذي يجعلهم يحقدون كل هذا الحقد!
لقد تلمست لدى جنودهم ومسلحيهم دوافع عميقة، إنهم يحسون أنفسهم كمدافعين عن وطنهم ضد غزو الأغراب، وتملأ غرائزهم درجة عالية من التعبئة لا يمكن أن تعبر إلا عن إيمانهم بقضيتهم.
اكتشفت في هذا الجندي أو المسلح الذي يقاتلنا أنه يمتلك قناعة بكونه مناضلاً في سبيل الحرية، بل لقد تذكرت في عيونهم حقدنا على الغزو والاستعباد، ولكنني لعنت التعبئة الخاطئة التي شوهت الأمور لديهم.

لقد رأيت فيهم سكيناً وضحية في نفس الوقت، وأشفقت عليهم عندما تذكرت أنهم يموتون ضد مصالحهم الحقيقية، وضد انتمائهم الحقيقي وهم يدافعون عمن يخدعوهم.

إنهم يموتون ضد أمتهم وشعبهم، ودماؤهم تذهب لمصلحة العدو الحقيقي، وهم يعيشون وهم التمايز عن واقعهم. إنهم لا يدركون أين يصنفهم العدو؟، هذا العدو الذي نقاتله لو ترك وشأنه سيبتلعهم ولن يرحمهم! لماذا لا يدركون هذه الحقيقة؟ لماذا لم يقرأوا الحكمة التي تقول "أكلت يوم أكل الثور الأبيض"؟!! هل يمكن أن تكون هناك حروب عادلة من الطرفين؟! من المستحيل أن يكون الحق في جانب طرفي الحرب معاً. أحدهما بالتأكيد عدواني وظالم، وربما كلاهما، فخندق الحق لا يتسع لطرف واحد من أطراف أية حرب. وكثيراً ما شهد التاريخ حروباً ظالمة من كل أطرافها.

اسئلة كثيرة جابت أفكاري، وأنا أرى هذا التناقض بين لون جلودهم وأفكارهم، وسألت نفسي أخيراً أين يكمن السر في كل ذلك؟ إنه عدم الوعي لحقيقة الموقع في إطار الصراع الشامل! إنها الفتنة! إنه تاريخ الإنقسام الطائفي، الذي في أوار ردود أفعاله المتبادلة تنشأ تطلعات متعاكسة تحدد اتجاهاته الأرضية الموضوعية والذاتية لكل طرف، وهي التربية المتأصلة نتيجة لكل ذلك في حالة هؤلاء الانعزاليين للنزوع خارج الأمة، بل وإلى أعدائها أحياناً.

من يفقد الإنتماء إلى أمته يخرج من جلده، والذي يحصل أمر غير طبيعي، لا يمكن أن يدوم. في مثل هذه الحالة من الإنقسام والتناحر لا يوجد سوى حل واحد وهو الحل الوحدوي الديمقراطي، الذي يقوم على

أساس العوامل المشتركة، وعلى أساس إنسانية الإنسان والمساواة بين المواطنين.

سألت نفسي عن مثل هذه الظواهر من الإنقسام الإجتماعي لدى الأمم الأخرى، فوجدت أن الشروخ الإجتماعية ظاهرة عامة تقريباً، أوروبا، تلك الشعوب التي تبحث عن الشمس مليئة بظاهرة الشروخ بين الجماعات، فبريطانيا التي كانت عظمى تتنازعها أربعة تمايزات بين الإيرلنديون والويلزيون والسكوتلانديون والانجليز.

وبلجيكا الصغيرة يتنازعها التمايز بين الوالو والفلمنك، ولا يمكنك أن تجد مجتمعاً في أوروبا خالياً من هذه الظاهرة، فأوروبا هي أم الصراعات، الصراعات القومية والصراعات الطائفية على حد سواء.

نحن شعوب تبحث عن المطر، وهم يبحثون عن الشمس. البحث عن المطر يعبر عن ظمأ الحياة، وحرارتها ولهيب الحقيقة الساطع فيها، أما البحث عن الشمس فأنه يعبر عن ظمأ الروح للحقيقة العليا ووضوحها، عن جليد الحياة، تترك المسافة بين البحث عن المطر أو الشمس فوارقها في الوجدان الإجتماعي الحضاري، في وعي الأشياء والتأثر بها، وتلقيها، والاستجابة بردود الأفعال عليها في التشكيلة النفسية للمجتمع.

أنها فوارق في الكثير من مظاهر السلوك، البلاد التي تبحث عن المطر تتعلق دائماً بالغيث، وتنتظر الأمل في حركة الطبيعة، وترتبط بكنه الحياة وأولياتها.

البلاد التي تبحث عن الشمس تتعايش مع حركة الطبيعة، وتقلباتها وتستثمر الفسح بين فصولها، وترتبط بآلية الحياة.

ومع ذلك فنحن وإياهم نمتاز بهذه الظاهرة التي تنم عن انفصال الإنسان في نهجين، ابتداء من داخل ذاته، ثم داخل مجتمعه، ثم داخل عالمه.

هذا هو توازن السالب والموجب في الحياة التي نعيشها!

قطع حبل أفكاري عندما أنهى الرائد حديثه وانصرف، ليعود الحراس مرة أخرى إلى تسلية أنفسهم بضربنا، ذلك الظمأ الأسود لا ينضب، اقتربت الساعة من الواحدة بعد منتصف الليل، سألت نفسي: وماذا بعد؟!.

وجدت جواباً واحداً لهذا السؤال هو:

- الموت!

فأنا أعرف تاريخ الأسر والخطف في هذه الحرب القذرة، وسألت نفسي من جديد:

- إذن ماذا انتظر؟ وكيف يجب أن أتصرف؟.

عقدت العزم أن أغامر بشكل انتحاري عندما أتيقن أنهم سيقتلوننا، عليّ أن أحاول أن لا يكون موتي بلا ثمن، وأن تكون محاولتي في اللحظة المناسبة والاتجاه الصحيح.

عبرت خواطر كثيرة في ذهني، وقلت في نفسي: هل حقاً ستكون النهاية؟ وهل أعطيت ما يجب أن أعطيه في الحياة؟ كنت أحلم بدور أكبر، ولكن هذه الساعة، ساعة النهاية لا يمكن للمرء أن يعرف متى تأتي.

المهم أنني حاولت وسرت في الإتجاه الذي وجدته صحيحاً، وينبغي أن أكون راضياً وقرير العين، وقبل ذلك ينبغي أن لا أستسلم فما يزال لي

دور هنا أيضاً.

أدرك الآن بقوة وصفاء أن الحياة دور ورسالة، وأن هذا الدور وهذه الرسالة عظيمان بقدر عظمة الأفكار والإرادة خلفهما، وبقدر عظمة الغاية أمامهما.

ليس الأهم أن يقطع عليك القدر الطريق، ولكن أن تكون قد أخترت طريقك بالذات.

نحن ذرات صغيرة جداً في مسيرة الإنسان الخالدة عبر الزمان والمكان وليست العبرة فيما تتمكن أن تؤديه ذرة واحدة، ولكن العبرة في أن تتواصل مسيرة الإنسان نحو أهدافه، وأن تتحقق هذه الأهداف هدفاً بعد هدف، وأن تتجدد الأهداف، وأن يتتابع الرقي والتقدم والعلم والقدرة على استخدام البيئة لما هو أكبر وأسمى وأعظم.

عندما تأملت مسيرة الإنسان، لاحظت المفاصل لتبلور أهداف شمولية اتجهت نحوها حركة البشرية الدائبة. وتلك الأهداف الخالدة التي تبلورت عبر النضالات بين الإنسان والإنسان هي الحرية والعدالة والسلام والتقدم.

إننا جزء من الحركة الدائبة نحو هذه الأهداف، توجد فوق ذلك أهداف أخرى في نطاق أعم وأشمل من العلاقات بين الإنسان والإنسان، ونحن أيضاً جزء من حركتها المنبعثة من خاصية الحياة.

عزائي أنني في اتجاه هذه الحركة الخالدة!!

عندما يقرر الإنسان التحدي والمجازفة فأنه في لحظة واحدة يتجرد ويصبح فوق خيار الموت، ويجد العزاء في قبول هذا الخيار من أجل أن يلج تحديه بعزم ودون تردد. وقد وجدت عزائي في راحة الضمير،

راحةٌ مبعثها الرضى عن مسيرتي في طريقي عبر مسالك الحياة.
أوقف أفكاري هذه المرة مجيء الضابطين الذين طلبا منا أن نحمل حقائبنا ونصطف، أخذوا بعدها بإخراجنا كل ثلاثة معاً.
خرجت إلى الباحة وبرفقتي اثنان والجنود خلفنا ومن حولنا، يركلوننا ويضربوننا بأعقاب البنادق، وعندما انهال عليّ أحد الجنود بقسوة ملحوظة نظر إليه الرائدين نظرة تعني أن يخفف قليلاً.
وجدنا بانتظارنا سيارات (لاندروفر)، فأمرونا أن نصعد كل ثلاثة في سيارة واحدة لنتخذ أماكننا في أحد المقاعد الخلفية، وصعد في سيارة مقابلنا حارسان مسلحان، وفي الأمام جلس أحد الضباط وإلى جواره سائق السيارة، وعندما اكتمل الصعود إلى السيارات بدأنا نتحرك.
سارت السيارات بسرعة جنونية بدون إضاءة في شارع طويل، لم أكن أعرف أين يتجه، تبدو فيه آثار القنابل والانفجارات بشكل واضح.
كان الطريق شبه منار، تملؤه الحواجز وبقايا سيارات محترقة، وحجارة وعجلات من المطاط، وأشياء كثيرة مما يمكن أن يتناثر بسبب القصف الشديد. حاولت تفحص الشارع كي أعرف الاتجاه الذي نسير فيه، أما الجنود فقد واظبوا على تسديد فوهات بنادقهم نحو صدورنا، وأياديهم على الأزندة.
تخيلت أن اصطدام السيارة بالأنقاض المتناثرة يمكن أن تؤدي إلى قتلنا. فبنادقهم جاهزة للإطلاق وليس صعباً عليّ أن ألاحظ وضعية البنادق.
صادفنا بعض كمائن الحراسة التي كنا نتوقف أمامها ليتحدث إليها أحد الضباط فتسمح للسيارات التي تقلنا بمواصلة سيرها.
لم تكن الطريق قد استغرقت وقتاً طويلاً بسبب السرعة الفائقة التي

سارت بها (الروفرات) عندما توقفنا في شارع شبه رئيسي وسط بنايات عالية.

أوقفونا بعد إنزالنا من السيارات صفاً واحداً قرب باب إحدى البنايات، يحيط بنا الحراس بنفس الدرجة من اليقظة والجاهزية، أما الضباط فقد ولجوا البناية.

أصبحنا في هذه الأثناء نسمع أصوات الانفجارات والقذائف قريبة جداً، وكذلك أصوات الرشاشات المتوسطة وهي تواصل رمايتها بين الجانبين، مما جعلني أتأكد أننا في منطقة من مناطق التماس.

تفحصت المكان بنظري محاولاً قراءة بعض أسماء المحلات المغلقة بالرغم من رداءة الإنارة، وقد عاد الجنود إلى التسلية بضربنا أو شتمنا أو توجيه الوعيد إلينا.

استمر وقوفنا بضع دقائق إلى أن عاد أحد الضباط ومعه بعض المسلحين واشار بإدخالنا.

تقدمنا باتجاه باب بناية كبيرة، وما أن واجهنا مدخلها حتى قرأت عليه اسم "المجلس الحربي لحزب الكتائب اللبنانية"، وقد كتب بخط كبير يلفت الانتباه.

طلب بعض المسلحين من الجنود أن يصعدوا بنا إلى الطابق الثالث، فصعدنا الدرج صفاً واحداً، وضمن احتياطات حذر أكثر من زائدة من قبلهم.

وفي الطابق الثالث أشار أحد المسلحين أن يستمر صعودنا إلى الطابق السابع.

وجدنا أمامنا في الطابق السابع بعض المسؤولين الذين شاهدناهم في

مدخل البناية، وقد سبقونا عن طريق المصعد الكهربائي، وبعد قليل من التوقف جعلونا نسير في ممر يواجه المصعد تماماً ويبلغ طوله حوالي عشرين متراً، ثم أدخلونا في غرفة إلى اليمين، وأمرونا بأن نضع حقائبنا ونجلس على الأرض.

جلسنا نتلقى وجبة جديدة من الضرب، فبعض المسلحين هنا لم يأخذوا نصيبهم من ضربنا بعد، فأقدموا بحماس يشاركون الجنود متعة إيلامنا.

بدأوا بانتقائنا للخروج من الغرفة واحداً واحداً، وقد أخذوا خمسة أشخاص قبل أن يأتوا لأخذي، طلبوا مني أن أنهض، وما أن نهضت حتى أمسك بي اثنان من الجنود، وانهال علي الآخرون ضرباً، ثم جروني على الممر باتجاه المصعد، وبدأ أحدهم في محاولة فتح باب بجواره، ويبدو أن المفتاح لم يكن صالحاً تماماً، لذلك استغرق بعض الوقت قبل أن يفتح الباب.

طفق الجنود والمسحلون أثناء هذا الوقت وقبله ينهالون علي بأعقاب بنادقهم.

ضربونا في كل متر من الطريق، لم نسترح إلا أثناء ركوبنا (الروفرات)، وهم الآن يبالغون في تفريغ حقدهم أكثر من ذي قبل.

كان ذلك الجندي الذي نظر إلى ساعتي في جونيه واحداً من الذين انهالوا عليّ ضرباً، يبدو أنه وجد الفرصة لأخذها فشدها بكل قوة قاطعاً حزامها المعدني بينما هو يشارك في ضربي.

قاموا بالضرب على رأسي وجسمي بلا هوادة، مستثمرين كل جزء من الوقت، ولم يتوقفوا لالتقاط أنفاسهم حتى تم فتح الباب بعد دقائق طويلة بطيئة. دفعني أحدهم داخل الباب فوقعت على شخص يستلقي

وراءه وأغلقوا الباب بالمفتاح مرة أخرى، وذهبوا.
وجدت الظلام مطبقاً تماماً، والمكان ضيقاً وخانقاً، عرفت فيما بعد أنها حجرة نفايات على شكل زنزانة، همست في أذن الشخص الموجود قربي سائلاً إياه:

- من أنت؟

- أنا محمد.

- هل أنت وحدك؟

- معنا شخص ثالث لبناني.

حشر اللبناني نفسه في عمق الحجرة التي يبلغ طولها أقل من مترين، بينما عرضها لا يزيد عن ستين سنتمتراً، ويبدو أنه منهك القوى، فعندما أردت التحدث معه لم يجب، وقد غلبه التعب تماماً على ما أعتقدت.
سألت محمداً:

- هل تعرف هذه المنطقة؟

- نعم نحن في منطقة الأحياء التجارية في بيروت، وتحديداً في الصيفي، قرب المقر الرئيسي لحزب الكتائب.

استأذن مني محمد لأنه أراد أن ينام، وقد كان اللبناني نائماً يضع رأسه في الطرف الداخلي من الحجرة ملقياً قدميه عندي، فتمدد محمد إلى جوار اللبناني، وبذلك لم يعد لي مكان للنوم.
كانت الرشاشات والقذائف القريبة جداً تقطع حبال الصمت بين

الفينة والفينة، أو تتواصل بعض الأحيان بين القصف والرد عليه من الطرفين، وأنا أميز بين أصوات رشاشات الدوشكا من رشاشات الـ "500"، قلت في نفسي: نحن في منطقة التماس تماماً ولا بد أن رجال الثورة والحركة الوطنية اللبنانية لا يبعدون عنا سوى مئات الأمتار.

ألقيت رأسي إلى الباب وبدأت أفكر: كيف يمكن أن نتخلص من هذا المأزق؟ لا بد أن نستطلع أولاً بعض ما يجري. فالظروف من حولي غامضة للغاية، وحتى منطقة الأحياء التجارية، فأنا أجهلها. أخيراً أرحت نفسي بالقول: لا بد أن تلوح فرصة ما، ويجب أن لا تفوتني.

تمكن مني التعب والنعاس، خصوصاً وأن جو الغرفة ساخن ورائحتها كريهة ورطبة، جربت أن أضع رأسي قرب الباب محاولاً النوم في مسافة تزيد على نصف المتر قليلاً هي عرض الغرفة، وما أن اقترب رأسي من أسفل الباب حتى شعرت بهواء منعش وبارد يتسرب من الشق السفلي فخلعت حذائي ووضعته قرب الباب، وألقيت رأسي فوقه، ولم يكن أمامي غير أن أمدد ساقي فوق الجسدين اللذين أطلقا أرجلهما إلى جواري أيضاً، وجدت الهواء الذي يتسرب من أسفل الباب بارداً ومنعشاً بالنسبة لحالتنا، فتركت أنفي باتجاهه كي أستنشقه ثم نمت بعدها نوماً عميقاً.

عندما استيقظت لاحظت ضوءاً قليلاً تسرب إلى حواف الباب مما جعلني أعرف أن النهار قد حل. والتفتُّ إلى رفيقَيْ، لكن العتمة ملأت الزنزانة المجازية وخاصة جزءها الداخلي، إلا أنني بسهولة عرفت أنهما ما زالا نائمين.

سألت نفسي: لماذا لم يحضروا لأخذنا؟ ولأنني لا أعرف الساعة بدقة

فكرت: ربما لم يفت الوقت بعد.

حاولت النهوض كي أجلس مستنداً إلى الباب، فشعرت بآلام حادة في ضلوعي نتيجة للضرب الذي تعرضت له، نبهتني الحركة إلى موضع آلامي، ثمة آلام في الرأس رحت أتحسسها، فعثرت على أورام وانتفاخات هنا وهناك.

دلتني الآلام الجارحة على كل مواقع الضرب الشاملة لجسدي، حتى الآلام لها فوائدها! فهي أداة تنبيه إلى الخلل المؤلم، هناك فلسفة للألم فهو جرس إنذار للخطر الذي يلم بالصحة والجسد، وهو من زاوية أخرى نقيض المتعة وقرينها.

أخذ الكثيرون من الفلاسفة بنظرية الألم كنقيض للمتعة، وأوغلوا فيها إلى درجة أن بعض الزهاد منهم اعتادوا افتعال إيلام الجسد تعبيراً عن تطهير الروح والنفس، ورغبة في الوصول إلى الكمال والتجريد.

أنها النزعة للحد من الغريزة وشهواتها، ولسيطرة العقل وتحكمه في رغبات الجسد، تلك النزعة التي ولدت هذا الإيغال في التجرد من المتعة إلى حد الألم أو العذاب، واعتبارها أساس الخطيئة بل واعتبار بعضها جزءاً من الخطيئة ذاتها.

في مرحلة الصراع بين العقل والغريزة ظهرت الفلسفات التي أفرزت هذه المرحلة لتعبر عن نزوع الإنسان نحو ضبط الحياة الاجتماعية ووضع النظام ومكافحة الشر. وأخذت هذه الفلسفات تدعو إلى الزهد والتجرد ومكافحة الغريزة وتجنب المتعة وتعذيب الجسد.

وبالنسبة إليّ فإن هذه الآلام ليست آلاماً فقط بل أشعر وكأن القدر يخضب حياتي بوهج المتعة والعذاب معاً.

لقد اعتدت الحياة بكل ما فيها. وقد عشتها فوق الأمواج المتلاطمة حتى اعتدت صخبها وتقلباتها وتعرجاتها فأصبحت جزءاً من مقامي فيها وأصبح الاستقرار رتيباً وبارداً ومملاً.

أيتها النفس الجموح، متى يهدأ أوار الجمر المتحرك في بركان عارم خلف أسوار من الملامح الهادئة!!

الآلام سوف تذهب حتماً، يجب أن أواجه الموقف بكل ما فيه!.

وجدت الفرصة لإعادة تدقيق أقوالي، وأقوال أفراد مجموعتنا، برزت ثغرة في أقوال وليد عندما تحداهم قائلاً أنه يبحث عن كباريهاتهم، تمنيت لو أنني مع وليد في زنزانة واحدة كي أساعده في ترتيب تغطية هذه الثغرة، فأي خطأ قد يؤدي إلى قتل الجميع، وعلى الأقل سيقضي على صاحبه، ما أشبه الخطأ هنا بالخطأ أثناء التعامل مع المتفجرات، فالخطأ الأول هو الخطأ الأخير.

تشكل هذه العبارة جزءاً من مبادئ الدرس الأول للمتفجرات، سمعتها خلال دورتي العسكرية الأولى، ثم خلال دراستي للمتفجرات وتصنيعها في كلية نانكين في الصين الشعبية.

تتمتع الصين بمزايا خاصة وطبيعة هائلة، زرنا فيها بكين وشنغهاي وفوشن وبحيرة هانزو البالغة الجمال والروعة، ولا يمكن أن أنسى تلك اللحظة، ونحن في القوارب نجوب البحيرة التي تغطي صفحتها أزهار اللوتس وأوراقها الخضراء العريضة. حقاً لقد حل في قلوبنا حب هذا الشعب الرائع بموقفه الدافئ والصديق، وأرضه الطيبة.

أما مدينة نانكين فأنها تضم رفات القائد الوطني الصيني الدكتور صن يات صن، وفيها بحيرة جميلة وهضاب وغابات وسكان طيبون

أحببناهم وأحببنا شعبهم الصيني الصديق الحميم وبلدهم وأرضهم الطيبة.

في نانكين الجميلة، وعلى هضبة من هضابها تقع الكلية التي تلقيت فيها أول علومي العسكرية، وفيها قمنا بإجراء العديد من المشاريع العسكرية، وقمنا بتصنيع القنابل بأيدينا من الألف إلى الياء، وكل واحد منا استخدم في الميدان أثناء التدريبات ما صنعه بنفسه.

وقد سمع هذه العبارة كل متدرب في معسكراتنا، واعتدت أن أسمعها من مدرب المتفجرات في مدرسة الكوادر لقوات العاصفة عندما كنت أقوم بتفقد التدريبات.

أشعر أننا نتعامل هنا مع حزمة من المتفجرات، أو حقل من الألغام ينبغي أن نتصرف فيه بحذر ويقظة ودقة.

تذكرت متابعة مدربنا في نانكين بحرص وإخلاص وحس بالرسالة.

كم أحببناهم، وأحببنا الشعب الصيني وحرارة موقفه الذي يتخذه تعبيراً عن صفائه وبصيرته وحسه بالعدل.

راجعت كل الإدعاءات التي رتبتها، كي تسند بعضها بعضاً، بل وأخذت أرتب حسابات التواريخ لتتطابق مع تلك الإدعاءات.

أصبحت هناك قصة متكاملة في خيالي، ويمكن تصديقها، والمهم هو عدم تمكينهم من اكتشاف أية ثغرة، إضافة إلى الثبات والصمود والتحمل.

سمعت فجأة صوت وضع المفتاح بقفل الباب، وتلت ذلك عملية معالجة الباب، وأنا أترقب ما الذي يريدونه، وما أن فتح الباب حتى سمعت من يأمرنا بالخروج، فهب رفيقاي من نومهما مذعورين.

نهضت وفتحت الباب بهدوء، وخرجت لأجد أمامي ثلاثة أشخاص يشهرون مسدساتهم في وجهي، ويضعون على أنوفهم وأفواههم كمامات واقية بيضاء تغطي معظم وجوههم، يبدو أن الوقت قد قارب الظهر، أمروني أن أدير وجهي إلى الجدار وأن أرفع يدي، ففعلت، ثم اقترب مني أحدهم وكان في غاية الحذر، وبدأ يفتشني.

لم يكن قد بقي معي شيء تقريباً، تلمّس أي شيء ذا ثمن وأمر بأن أضعه في مغلف ورقي يحمله، كما أمر أن أخلع حزامي وأسلمه إياه، وبعد أن انتهى مني أشار لي أن أدخل وأرسل غيري.

دخلت ما يفترض أنه زنزانة لأجد رفيقيّ، وقد احتبست أنفاسهما وهما يتوجسان خيفة، فقلت قاصداً طمأنتهما ليخرج أحدكم، فهم يفتشون ليأخذوا ما تبقى من أشياء نحملها.

خرج اللبناني ليعود بعد برهة، ثم تبعه محمد بالخروج والعودة، ثم أغلق المسلحون الباب وأداروا المفتاح فيه وانصرفوا.

سألت اللبناني عن أسمه فأجابني:

- محمود الحلاق.
- من أين؟
- من المزرعة.
- لماذا أبقوك معنا ما دمت لبنانياً؟!
- لأن جواز سفري صدر بعد انقلاب الأحدب.

تنفس محمود الحلاق بصوت مسموع قبل أن يحدثني هامساً عن مخاوفه، وعن أنهم سوف يقتلوننا حتماً. وقال:

- لم يسبق أن خرج أي واحد من بين أيديهم سالماً.

ثم تابع ليحدث عن براءته، وعن أسباب سفره إلى قبرص للبحث عن شقيقه فيها.

أصغيت إليه وأنا أدرك الدوافع التي تجول ما بين رأسه وصدره، وحاولت أن أطمأنه قليلاً، لكي أحيي الأمل في نفسه، فليس هناك ما هو أصعب أو أسوأ من اليأس ونتائجه في مثل هذه الظروف. وقلت له:

- علينا أن نؤمن بالحياة حتى آخر لحظة، فقد يحدث أمر ما يفتح الطريق أمامنا، وقد نتمكن من النجاة.

استمع إليّ محمود وهو يطلق بعض التنهيدات، ويهز رأسه بشيء من القنوط، أو يقول بعض الملاحظات السريعة، وكأنني أتحدث عن مجرد آمال واهية ثم سألني بأسى:

- هل جئت إلى لبنان قبل هذه المرة؟

- مرات قليلة.

- يبدو أنك لا تعرف لبنان، ولا تعرفهم.

استلقى محمود وكأنه يهرب من واقعه إلى النوم، أو كأنه يستسلم لقدره، أحسست كأن محموداً يذعن للموت طائعاً ودون مقاومة، وقلت في نفسي: كم أكره الاستسلام، الاستسلام أسوأ من الهزيمة، وأنا أكره

الهزيمة ولا شيء أمرّ على النفس منها، ولكن الاستسلام لا يمكن أن يليق بإرادة الكفاح.

لماذا يستسلم الذين يستسلمونّ؟! أهو حرص على الحياة أم جبن عن التصدي؟!.

الاستسلام لا ينقذ الحياة بل يلوثها. ويجعلها أسوأ من الموت، فلا قيمة لحياة المستسلمين!.

وسألت نفسي: كيف يمكن أن يفسر الإذعان للموت؟! هل يكون ذلك نتيجة لضعف غريزة حب الحياة؟ أم نتيجة لشجاعة التنازل عن الحياة؟ وما هو الجبن إذن؟.

إن الإستسلام هو الضعف أمام واجب التصدي، وإن الشجاعة هي مجابهة الحياة لا الهرب منها، لا يعني التمسك بالحياة في مثل هذه الحالة الخوف من الموت، بل أنه القدرة على مواجهة القدر والتحديات.

إن الإذعان للموت عندما يكون وليد العجز عن الحصول على الحياة ومجابهة أخطارها هو الجبن، وإن الإذعان لغريزة حب الحياة عندما يكون وليد العجز عن مواجهة احتمالات الموت والتصدي له هو الجبن أيضاً.

أما الشجاعة فهي أن لا تقبل الموت ولكن أن لا تخشاه، وأن تدافع عن الحياة، ولكن أن لا تستجديها.

في كل الأحوال يجب أن نعرف كيف نجعل غريزة الحياة ترتدي إزار الشجاعة والثبات والإقدام.

أفقت من خواطري عندما نهض محمد منزعجاً ليتحدث مع نفسه، فسألته عما به، انتبه إلى وجودي فقال أنه يريد قضاء حاجته، سمعه

محمود الحلاق، فأرشده بصوت خافت إلى فتحة للنفايات بجواره لم نكن قادرين على رؤيتها بسبب ظلام المكان.

نهض محمد ليستخدمها ثم عاد للنوم من جديد، حاولت أن أتجاذب معه الحديث لأخرجه من حالة النوم، إلا أنه رد باقتضاب وتثاقل، وحتى عندما اقتربت منه لأسر له ضرورة الصمود وعدم الخوف أو اليأس، أحسست أنه هز رأسه موافقاً، وكأن لسان حاله يقول: ولكن اتركني أنام!.

أخذ الوقت يمضي ونحن في هذا المكان الذي أطلقنا عليه أسم زنزانة، وكنت أسمع في بعض الأحيان وقع أقدام صاعدة أو نازلة، أو أسمع صوت مصعد كهربائي متحركاً إلى الأعلى أو الأسفل إلى أن دخل الظلام شيئاً فشيئاً، وأنا أرقبه عبر الفراغ الذي بأسفل الباب.

لا أعرف كم سهرت تلك الليلة وأنا أسرح مع خواطري وأجول، فقد تذكرت أشياء كثيرة وتأملت في أعماق بعضها، وكان أهم ما شغل عليّ هواجسي هو فلسطين وعذابات الشعب الفلسطيني. أيها الشعب الصامد، يا شعبي الطيب الشجاع المحب، الذي يعيش في كل ركن من وجداني وينتمي إليه كل نبض في فؤادي.

يا شعبي الذي عاش على سنان التحدي، وجابه الغزاة، دافع عن المعاني الجميلة، كم تعذب وناضل هذا الشعب الصابر.

الكفاح والأمل، عنوان المسيرة المليئة بالإبتسام والحزن، رحت استعرض معاناة أجيالنا المتعاقبة، ولا أعرف لماذا تركز في مخيلتي الشهيد عبد القادر الحسيني، شهيد نيسان.

كانت جراح عبد القادر مريرة، فقد أحس بقسوة وتواطؤ المتنفذين

في أمته، وأحس بالحصار حول شعبه، فذهب وقاتل واستبسل حتى استشهد، وكان قدره شهر نيسان، شهر الشهداء الفلسطينيين العظام.
خطر ببالي أحد رفاق عبد القادر، بهجت أبو غربية، ما أشبهه بخالد بن الوليد، ليس في جسده شبر إلا وفيه إصابة، وقد شارك بدور بارز في كل الثورات الفلسطينية المتعاقبة منذ بداية الثلاثينات، وبدأت إصاباته قبل عام 1936، واستمر في عطائه بدون توقف خلال مراحل كفاح شعبه المتعاقبة، وكان عبر السجون والمعتقلات مثالاً تتناقل وقائع كفاحه حكايات الناس.
من تلك الحكايات صار بهجت هو النموذج الذي أقتفيه، وعندما كبرت أدركت ذلك البعد الذي يمثله، أنه يمثل الإيمان غير القابل للزعزعة بالوطن والحرية، يمثل المبدئية الوطنية الملهمة للأجيال، أنه يمثل صلابة شعبه بكل عنفوانها وثباتها.
وقلت في نفسي لقد أعطى الشعب الفلسطيني ليس دفاعاً عن نفسه فحسب، وإنما دفاعاً عن أمته، ومكانتها ودورها. فنحن نحب أمتنا العربية، الفلسطينية بالنسبة لنا هي العروبة بكل معانيها، هي العروبة المجسدة في النضال ضد الغزاة الصهاينة.
بقيت قوافل الشهداء متواصلة في التاريخ الفلسطيني، وفي مسيرتنا بالذات، فإن موكب الشهداء طويل جداً، كثير من هؤلاء الأبطال كان من أعزّ رفاقي وأصدقائي.
لقد أعطت فتح من كل مستويات عضويتها، بل أنها أكثر حركة سياسية قدمت من قادتها وكوادرها، تلك الحركة الباسلة التي استقطبت كل هذا العدد من الخيول الجامحة.

المسيرة مليئة جداً، والعطاء كثيف بكثافة درر السماء، وأنا أشعر بالفخر لأنني أحمل كل هذا التراث في انتمائي.

أخذت أصوات القذائف والانفجارات تهز المكان، وبعضها يتساقط على نفس البناء الذي احتجزنا فيه، مصطدماً بجدرانه، ومحدثاً الانهيارات التي تتبعها أصوات سقوط الزجاج ومواد الجدران والنوافذ.

شعرت بعنف الصدمات مما جعلني أتذكر عمان وليالي أيلول الأسود، وتذكرت شعبي من جديد:

- آه كم هي كثيرة عذابات الفلسطينيين في مسيرتهم المعاكسة للرياح!!.

أخذني النوم من خواطري أخذاً، ولم استيقظ إلا صباح اليوم التالي، وكان يوم أحد.

رفيقاي ما زالا نائمين، ولا أتمكن من معرفة الوقت على وجه الدقة، وكل ما عرفته أن اليوم هو الأحد، وأن النهار قد حل، وذلك بفعل الضوء المتسرب من جوانب الباب وأسفله.

لاحظت شيئاً ملتصقاً بالزاوية قرب الباب، تلمسته، فعرفت أنه (قنينة) من البلاستيك للمياه الصحية، تحتوي على قليل من الماء، لم أذقها، فكمية الماء التي فيها لا تكفي لشرب شخص واحد، تركتها وأنا أفكر: لعلها تلزم الآخرين أكثر مني.

بدأ اليوم بطيئاً للغاية، والجسدان المستلقيان قربي يتنفسان تنفساً مسموعاً، وقد زادت الرتابة التي حولي من شعوري ببطء الوقت، وأنا لا أعرف ما الذي ينتظرنا.

سمعت فجأة أصوات خطوات تقترب منا، وإذا بالمفتاح يلج الباب، وبعد محاولات فتح الباب أتى صوت ينادي:

- اليمني.

خرجت للتو، فإذا بشخصين تبدو عليهما مظاهر الثقافة والإتزان سرعان ما سألني أحدهما.

- ما اسمك؟

كان عليّ أن أعطيه أسمي كما هو في جواز السفر، وهذا ما فعلته، عاد واستدرك وهو يكرر السؤال مؤكداً على التمييز بين أسم عائلتي في جواز السفر وأسم عائلتي الأصلي، وهو ما يدل على أن الخطأ الوارد في أسم العائلة حسب جواز السفر قد استوقفهم.

أكدت الأسم من جديد كما قلته، حينها أوضح مستفسراً:

- توجد عائلة فلسطينية أسمها قريب جداً من أسم عائلتك.

- أسم عائلتي كما هو مكتوب أمامكم.

رد عليّ فجأة بالقول:

- حسناً هل تعرف ماذا ستكون نهايتك هنا؟

- ماذا ستكون؟! إنني مطمئن، فإذا كنت بريئاً ما هي مصلحتكم في إدانتي؟

- يبدو عليك أنك مثقف، ماذا تعمل؟

- إنني طالب جامعي.

- ما هي دراستك؟

- أدرس الحقوق، في السنة الثالثة.

هز رأسه كمن يريد أن يعيد إليّ بعض الطمأنينة وقال:

- ارجع إلى مكانك.

دخلت الزنزانة، فأغلقا الباب وذهبا، ووجدت رفيقيّ متحفزين، وفي حالة انتظار متوجس، وما أن جلست حتى همسا:

- ماذا هناك؟

- سألاني عن أسمي وعن عملي.

- ألم يقولا شيئاً آخر؟

- لا، ولكن يبدو أنهما هادئان.

ذهب النوم عن رفيقيّ، فجلسنا نتحدث، وإذا بصوت قريب ينادي علينا، فرد عليه محمود الحلاق لأنه الأقرب إلى فتحة النفايات التي تدفق منها الصوت، واكتشفنا ثلاثة من رفاقنا في زنزانة فوقنا، وقد سأل أحدهم:

- من الموجود؟

أجاب محمود:

- اليمني ومحمد ومحمود الحلاق.

سألهم بدوره عن أسمائهم، وإذ بهم علي حسين، ووليد بدر، وثالث أسمه سامي الليل، كان المتحدث علي حسين فأضاف:

- أنني أموت من العطش هل يوجد عندكم ماء؟

قلت : يوجد هنا قليل من الماء، كيف ستأخذونه؟

رد علي: لدينا حبل، سأدليه لكم.

بعد أن تذوق محمود ومحمد قليلاً من الماء ليبلا ريقيهما ربطت زجاجة الماء بالحبل المتدلي عبر فتحة النفايات، فسحبه علي، وسرعان ما طلب المزيد من الماء مؤكداً أنه ما زال يشعر بالعطش، فأخبرناه أنه لم تبق لدينا أية قطرة ماء.

انتظر علي صابراً على عطشه حوالي الساعة، ثم راح فجأة يصرخ بأعلى صوته طالباً الماء. صعّد علي من إلحاحه، وقد بدا كأنما انهارت أعصابه، واستمر في الصراخ حتى أصبح يطرق باب الزنزانة بكل قواه، إلا أن أحداً لم يجبه.

الشيء الوحيد الذي سمعناه هو أصوات الصواريخ وهي تأتي مولولة في الجو، ومحدثة صفيراً خافتاً، ثم تنفجر في منطقتنا، تتبعها أصوات الرشاشات المتوسطة.

كان علي يهدأ قليلاً للحظات قليلة، ولكنه سرعان ما يعاود الصراخ وطرق باب الزنزانة بشدة، وكأنه أصيب بانهيار، وقد هيأ نفسه لأسوأ الأمور، إلا أن كل محاولاته ذهبت سدى.

استمر الوقت بالمرور ونحن نسمع أصوات الرصاص والقذائف

والصواريخ وهي تنهمر كثيفة في بعض الأحيان إلى درجة إحداث السكون في كل شيء باستثناء ما تحدثه هي من ضوضاء الحرب ورهبتها، حاولت التمييز بين أصوات الرشاشات التي وضع أحدها قريباً منا وهو من نوع "500"، وقد راح يطلق صلياته بين الفينة والأخرى، ويتلقى الرد من الجانب الآخر.

هدأ إطلاق النار فترة من الزمن، وساد نوع من سكون وصمت ما بعد المعركة مباشرة ، وكأنما خيمت حالة من الترقب والانتظار أو توقع معاودة الاشتباكات، لكن ذلك لم يحدث، قدرت في تلك الأثناء أن الوقت أصبح قريباً من نهاية النهار.

عدنا نسمع بعض الخطوات الصاعدة أو الهابطة، كما عدنا نسمع صوت المصعد الكهربائي، وفجأة فتح باب المصعد بمحاذاتنا، تبعه وقع أقدام قادمة، وإذا بالمفتاح يتحرك بباب الزنزانة ثم صوت يأمرنا بالخروج، فتحت الباب وخرجت، فوجدت ثلاثة أشخاص، رجلان يشهران مسدسيهما ويضعان الكمامات، يبعد عني الأول حوالي ثلاثة أمتار، والثاني حوالي عشرة أمتار، وإلى جواره فتاة حسناء.

سألني الرجل الأول عن اسمي، فأجبته بهدوء واتزان، ثم سألني عن جنسيتي وقصتي، فأجبته بكل وضوح وثقة، وكنت أقصد أن يؤثر فيهم هدوء وإيحاءات نبراتي، اقتربت الفتاة قليلاً لكي تصغي إليّ عن قرب، أحسست أنني ألقيت في نفوسهم انطباعاً بالاستغراب لوجودي، وربما شعوراً بالاطمئنان إليّ وتصديقاً لكلماتي.

اكتفى الرجل بأجوبتي، وهو يأمرني بالعودة، ولكنني تابعت سائلاً إياه إذا ما كنت أستطيع أن أحصل على قليل من الماء، فقد تذكرت علي،

وقدرت أنه من المفيد أن أجرب.

نظر إلى رفيقه وكأنه يستمزجه، فحرك الآخر رأسه موافقاً وقال وهو يشير بيده:

إذهب من هنا، وستجد مغسلة وحنفية، إشرب كما تشاء.

ذهبت حيث أشار، فوجدت حمامات ومغسلة ومرآة، نظرت إلى وجهي فلم أجد تغييراً يذكر عليه، بالرغم من الآلام الخفيفة الناجمة عن اللكمات، فتحت الحنفية، ورحت أشرب وأغسل وجهي، لمحت في الطرف القريب (قنينة) للمياه الصحية واستدرت لأخذها وإذا بالفتاة تقف قرب الباب تراقب حركتي يحدوها حب الاستطلاع، وقد بعثت بنظرات هادئة ودودة وكأنها لا تجد مبرراً لوقوعي في هذا الأسر، تناولت القنينة فساعدتني على ملئها بالماء، ثم خرجت لأجد أحد الرجلين وهو ما زال يشهر مسدسه واقفاً في الممر قريباً مني، اقتادني إلى باب الزنزانة، فتريثت قبل أن أدخل لأوجه إليه طلباً آخر:

- هل نستطيع أن نحصل على قليل من الطعام؟

فأجابني على الفور: نعم!

استدار قليلاً لإحضار شيء وضعه قريباً منه، ورفيقه ما زال يشهر مسدسه باتجاهي وهو يتجاذب مع الفتاة شيئاً من الكلام كأنما يسرقه من لحظات حذره.

قدم لي المسلح رغيفين عليهما زيت وزعتر (مناقيش) قائلاً:

- لك وللآخرين..

أمرني بالدخول.

دخلت الزنزانة مرتاحاً بما أحضرت لزميلي، وأغلق المسلح بابها، وراح يدير المفتاح، لكنه توقف فجأة، تريث قليلاً ليتحدث مع رفيقه الآخر، ثم عاود مرة أخرى فتح الباب، ونادى عليّ قائلاً:

- اخرج يا يمني..

ولما خرجت سألني:

- ما هي جنسية الآخرين؟

- أحدهما لبناني، والآخر لا أعرف جنسيته.

- تعال، ونادي اللبناني معك.

ناديت على اللبناني، فلحق بي خارجاً من الزنزانة، واقتادنا المسلح إلى ممر يؤدي إلى الغرفة التي أجلسونا فيها لحظة وصولنا إلى البناية، أمرنا أن ندير وجوهنا إلى الجدار، ففعلنا، وسأل عن الشخص الثالث ما إذا كان فلسطينياً، فقلت له: أعتقد أنه لبناني، فأشار إليه المسلح الآخر قائلاً:

- احضره.

صرخ المسلح على محمد آمراً إياه بالخروج وهو يقول:

- نفهم على الأقل سبب مجيء اللبناني.

وأردف سائلاً محمد عن جنسيته، فأجابه:

- لبناني.

- من أين؟

- من المزرعة.

أمره بالوقوف إلى جوارنا، ثم تحادث المسلحان باللغة الانجليزية، عندما طلب أحدهما من الآخر أن يقيدنا كل اثنين بقيد واحد، لمحني وأنا أتابع الحديث بينهما، وكأنه فطن فجأة، فاستدرك قائلاً:

- اليمني يفهم الانجليزية، قيده وحده.

وضع القيد في يدي، ثم انتقل لوضعه بيدي كل من محمد ومحمود معاً، وأمرنا بالتحرك، نظرت إليه الفتاة مذكرة إياه بالخبز والماء، فقال لي:

- أحضرهما.

ذهبت لإحضارهما، وأحد المسلحين يقف على مفرق الممر، لم أتمكن من حملهما معاً بسبب قيدي، وإذا بالفتاة تقترب وتساعدني، شعرت بشيء من الراحة وأنا أسير أمامهم لاحقاً بالآخرين، وقد اقتادونا إلى الغرفة ذاتها التي أجلسونا فيها وقت وصولنا إلى هذا المكان، أمرنا المسلح بالانتظار قليلاً، وفتح باب غرفة أخرى بداخل الغرفة التي نجلس فيها، وغاب قليلاً ثم عاد ليطلب منا الدخول.

وجدنا أنفسنا في غرفة متسعة يبدو من شكلها أنها كانت مكتباً إدارياً لبعض الأعمال، يقع في طرفها القريب من الباب الذي دخلنا منه باب آخر مغلق، وباب ثالث في الطرف الآخر في عمق الغرفة، وهو مغلق أيضاً، ويبدو أنه يطل على الممر الطويل الذي عبرناه.

لاحظنا بمجرد دخولنا للغرفة وجود معين أحمد فيها، أغلق المسلحون الباب علينا وغابوا، أخذنا نتقاسم الخبز ومعنا معين، وكذلك سارع

محمد ومحمود ومعين إلى تناول جرعات من الماء تبل رمقهم بعد هذه الفترة الطويلة من العطش والجوع.

سمعت صوتاً وراء أحد الأبواب التي بداخل هذه الغرفة، وهو باب يقع على يسارنا ونحن ندخلها من جهة الغرفة الأولى التي سبق وانتظرنا فيها، يبدو أن خلف هذا الباب غرفة أخرى انبعث منها الصوت.

اقتربت من الباب وأنا اسأل معيناً عمن وراءه، فأفاد أنهما البحاران، طرقت الباب طرقاً خفيفاً، فسمعت أحدهما يرد عليّ وسألته عن اسمه فأجاب:

- أنا أبو مروان البحار.

- أبو مروان، هل أنت وأبو علي وحدكما؟

- نعم

ثم سألني بدوره عمن جاء إلى الغرفة فقلت له:

- أنا اليمني ومعي محمد ومحمود الحلاق.

سألني عما لاقيناه، وأين كنا، فأخبرته باختصار ثم استوضحت منه ما إذا كانوا قد ذاقوا الأكل فأجاب:

- لم نذق الأكل ولا الشرب، ونشعر بالعطش والجوع.

أخذنا كسرات من الخبز ورحنا نبسطها لكي تقل سماكتها ودفعناها إليهما من أسفل الباب، وما أن ذاقا القليل من الخبز حتى طلبا الماء وفكرنا كيف يمكننا أن نوصل إليهما الماء، عندها سمعنا وقع خطوات

في الممر تقترب من الغرفة، ثم حركة مفتاح الباب، وإذا بالمسلحين يدفعون بأحد زملائنا وهو سامي اللل الذي إدعى أنه لبناني!، تقدموا مني وفكوا قيدي ثم قيدونا نحن الاثنين معاً وأغلقوا الباب وانصرفوا.
سألت سامي عن الأخوين الآخرين وهما علي حسين وليد بدر، فأجاب:

- تركوهما في الزنزانة وحدهما.

- لماذا؟

- لأنهما أردنيان وليسا لبنانيين.

فكرت في أمر الشابين، فهما ما زالا صغيرين، وهناك الكثير من الثغرات يمكن النفاذ منها، لم أشك أنهما سوف يصمدان، ولكنني خشيت أن ينزلقا، فقد لا يستطيعان أن يتصرفا وحدهما، خاصة وأن وليداً قد فتح على نفسه باباً موجعاً بقوله أنه أتى للكباريه.
وفكرت، يجب أن أكون معهما، وأن أتدبر الوسيلة إلى ذلك، طرق البحاران الباب طرقاً خفيفاً كي يسألا عمن أتى، ويطلبا الماء، وبعد أن اجبتهما، عدت أفكر في وسيلة إيصال الماء من جديد.
فتحنا الخزائن فلم نجد سوى كتباً بلغات أجنبية، لاحظت أنها مصقولة الورق، فقطعت بعض أوراقها وأدخلت جزءاً منها من أسفل الباب وقلت للبحارين:

- يجب أن تمتصا الماء عن الورق، وسأبدأ بسكبه قليلاً قليلاً.

وفعلاً سكبنا لهما الماء حتى بلا ريقهما.
سألت البحار عن الوقت، فأخبرني أن الغروب وشيك، ثم سألت عن

تقديرهما للموقف، فإذا بهما متشائمان جداً، وقد قال أحدهما:

- نحن نعيش الساعات الأخيرة!

في الحقيقة لم أشعر تلك اللحظة بالتشاؤم إلى هذا الحد، وإن كان هذا الاحتمال ماثلاً في ذهني على أنه الاحتمال الأرجح.

صار الوقت يمضي ونحن نستلقي أحياناً على أرض الغرفة أو نذرعها جيئة وذهاباً.

محمد ومحمود مقيدان معاً، وأنا مقيد مع سامي، أما معين فقد بقي وحده. كان محمد كثير الحركة، بينما رفيقه محمود يفضل أن يستلقي، وأن يبقى في مكان واحد، فوضعه النفسي مشحون بالكآبة، ومثله سامي الذي بقي صامتاً ودائم التفكير أيضاً، وقد طغى عليهما الخوف والحزن مما سيأتي.

أدركت منذ اللحظة الأولى أنه ينبغي أن لا تحدث مشاكل بين محمد ومحمود بسبب اختلاف رغباتهما، فكثيراً ما أبدى محمود اسيتاءه من رغبة محمد في الانتقال من مكان إلى آخر، لأنه مضطر أن يتحرك معه.

وأدركت أيضاً أن عليّ أن أرمم نفسية محمود وسامي، لأنهما بهذه الحال على وشكل الانهيار والتسليم في آن واحد.

رجعت قذائف المدافع والصواريخ تنهمر كالرصاص، بكثافة نيران عالية جداً وعاد البناء يهتز منها ويرتعد، واستمرت تمر بأصواتها الحادة وهي تجتاز من فوقنا لتنفجر في كل مكان. وذلك ما جعلنا ننتظر الوقت الطويل حتى توغل الليل وتمكنا من النوم مستلقين على الأرض الباردة، إلا أن التعب تكفل بإجبارنا على النوم، بالرغم من البرد وأصوات

القذائف وانفجاراتها.
كنت أغط في نوم عميق عندما سمعت ما يشبه الحلم طرقاً على الباب، تبعه نداء هامس، فسألت:

- من هناك؟!

رد عليّ الصوت:

- من أنت؟

أتاني الجواب متقطعاً وخافتاً، مما جعلني أعتقد أنه واحد من البحارة يريد أمراً ما، فأخبرته بإسمي، فرد عليّ الصوت مرة أخرى:

- أنا من صيدا، افتح لي الباب.

استهجنت رده، وفكرت: من صيدا؟! كيف يمكن أن يأتي واحد من صيدا إلى هنا؟ أدركت على الفور أن العملية تستهدف ازعاجنا.
تكرر الصوت والطلب: افتح أنا من صيدا جئت لانقاذكم.
لم أجب هذه المرة، مددت يدي منبها رفاقي بهدوء، إذ صار الطرق على الباب يشتد ويزداد، ولما سألني الرفاق بذهول عما يجري أخبرتهم هامساً:

- يريدون ازعاجنا، لا بأس لنتركهم بدون رد.

جلسنا نستمع إلى مهاتراتهم السمجة بصمت كامل، مما جعلهم يضيقون ذرعاً مدركين أن لعبتهم لم تفدهم، وانفجروا يشتمون ويحاولون كسر الباب ويتوعدوننا (بالتسويح)، أي بالاعدام وفقاً لمصطلحهم السادي.
لم ينبس أي منا بكلمة واحدة، وساد الخوف لاعتقادنا أنه لا يوجد

ما يمنعهم من كسر الباب أو القيام بأي عمل، فنحن لا نعرف درجة الانضباط لديهم، عدا عن أننا في الأساس لا نعرف نواياهم.
يبدو أن الملل أصابهم أخيراً، فانصرفوا، ومع أنني شعرت بالصحو وذهاب النوم، إلا أن التعب جعلني أعود مرة أخرى إلى نوم عميق استمر إلى صباح اليوم التالي وهو يوم الأثنين.
بدأ النهار هادئاً، لا قصف، ولا قذائف، ولا انفجارات، أصبحت تترامى إلى أسماعنا أصوات الباعة والسيارات، بعض رفاقي ما زالوا ممددين على الأرض أو نائمين، أما أنا فقد عدتُ أسرح بأفكاري من جديد طارحاً السؤال المعتاد على نفسي ماذا يجب أن نفعل؟.
فجأة سمعت صوت إجهاش بالبكاء، نظرت إلى محمود وهو يبكي ويندب وضعه ويتأسى على والده، وكأنه قد استفاق من حلم مزعج.
حاولت أن أهديء من روعه:

- اننا رجال، علينا أن نواجه المواقف بثبات.

لم أشاهد سوى الدموع والأسى والمرارة التي تأرجحت فوق حباله الصوتيه المختلفة:

- أنني مستعد لأي شيء، مستعد للموت، ولكن أن أموت رخيصاً هكذا؟!.

- لو قدر لك الموت ستموت كيفما كنت.

شاركني الآخرون في تهدئة محمود باستثناء سامي الذي انتقلت إليه حمى الكآبة واليأس، وانطلق يؤكد القدر المحتوم:

- لن نخرج من هنا أحياء، فهؤلاء الكتائب وأنا أعرفهم!.

حاولت جهدي أن أحول الحديث باتجاه آخر غير الأسى، لأنني لا أريد أن يسيطر هذا الجو على معنويات الرجال في الأسر، وعقدت العزم على أن أرمم المعنويات المنهارة، وأن أطلق روح الصلابة والصمود.

إن الاعتقاد بأنه لا مفر من الموت هو هزيمة مسبقة لأي مقاتل حتى ولو كان بطلاً مستميتاً. يجب أن نعيش بآمالنا، لأننا بدون هذه الآمال نفقد القدرة على مواجهة المخاطر، ونفقد المبادرة لحل المعضلات. يجب أن يكون للمرء دور في كل الظروف، يخلقه أو يعثر عليه أو يبنيه.

إن الأمل هو حافز الكفاح، والكفاح هو أداة تحقيق الإرادة وترجمتها، أن يفقد المرء الأمل بالحياة معناه أن يفقد القدرة على الكفاح، فتسقط رسالته داخل فؤاده قبل أي مكان آخر.

مرة أخرى أواجه لوحة لليأس، ما اسوأ اليأس، سنسقي بذرة الأمل.

كان شغلي الشاغل هو علي حسين ووليد بدر، فكرت بأمرهما كثيراً، ماذا يمكن أن يحدث معهما! أي خطأ يرتكبه أحدهما قد يكون قاتلاً. سألت نفسي كيف يمكن أن أذهب إليهما أو يأتيا إلينا؟ ولكنني لم أجد أي جواب.

نهض محمد ومعه محمود يتنقلان في زوايا الغرفة، بدأ محمود يعتاد التنقل بين فترة وأخرى، وكذلك فقد أعتدت أن أذرع الغرفة جيئة وذهاباً وبرفقتي سامي محاولاً تحريك ساقيْ للتغلب على الرضوض التي لحقت بهما، وللإبقاء على الحركة وقضاء الوقت.

أما الحراس في الخارج، فكنا نسمع وقع أقدامهم كلما حضروا أو

غادروا، ونميز بعضهم إذا وقف هنيهة محاولاً الإنصات قرب الباب المؤدي إلى الممر، وقد لاحظت أن الفراغ بأسفل الباب يصبح أقل ضوءاً كلما وقف أحدهم، مما جعلني اتمكن مع التكرار من التمييز بين الوضع الذي يقف فيه أحدهم خلف الباب وبين الوضع الذي لا يقف فيه أحد. تمكنت بعدها أن أميّز بشكل دقيق بين وجود عدة أشخاص ووجود شخص واحد.

وضعت إلى جوار باب الممر علبة خشبية تلقى بها الرسائل والأوراق من خارج الغرفة، وصممت فوق هذه العلبة فتحة صغيرة تطل على الممر من هذه الفتحة، اعتاد بين الحين والآخر أن يطل علينا بعض العابرين الذين يطلبون منا أن نقف أمامها ليتمكنوا من مشاهدة وجوهنا. لم أكن أحب هذا الموقف، فكثيراً ما يعمدون إلى كيل الشتائم والألفاظ البذيئة، أو إلى تسديد فوهات بنادقهم ومسدساتهم إلى وجوهنا وتهديدنا، بل إلى البصق أحياناً على من يرضخ لتهديدهم ويطل عليهم. لذلك حرصت من جهتي باستمرار أن لا أتقدم مهما توعدوا أو صرخوا، ثم منعت الآخرين، أدركت أن لهذا المنع تأثيره، وخاصة على محمود، ومن هنا بدأ نسيج روح التمرد والتحدي الذي جعلته ينمو ويكبر في كل ساعة تقريباً.

اعتاد البحاران في الغرفة المجاورة طرق الباب في كثير من الأحيان من أجل السؤال عما يجري. وعما يمكن أن نلحظه ونستنتجه. بينما نحن نسألهم عن تقديرهم للوقت، لأن غرفتهم تطل على الخارج وبإمكانهم أن يقدروا الأوقات من ميلان الشمس والضوء.

قدروا في ذلك اليوم أن الوقت هو الظهيرة، وفي غضون هذا التقدير

سمعنا وقع أقدام كثيرة تعبر الممر، ابتعدنا عن باب غرفة البحارين وجلسنا على أرض غرفتنا، فسمعنا مفاتيح الباب تدار، ودخل علينا أربعة رجال خلفهم بعض المسلحين.

كان أحدهم شاباً على درجة من الوسامة والأناقة، يرتدي ملابس عسكرية نظيفة ومرتبة، وحذاءً عسكرياً غير مغبر، وهو أشبه بالأفراد المحظوظين من الطبقة المثقفة على جانب العمل العسكري، فلا يدل مظهره أنه منغمس في هذا العمل أو يتحمل مشاقه، وإنما يرتدي زيه المرتب فحسب. تحدث معنا حديثاً لطيفاً، ولا أخفي أنني ارتحت للهجته وشكله، فقد أدركت أنه على جانب من التعليم وأن أسلوبه مريح لرفاقي خصوصاً أنني تفرست قلة حنكته ودرايته.

سأل عن أسمائنا، ثم أمر رجاله أن يفكوا قيد سامي، وتحدث معنا عن القصف وتأثيره، فوجدت ذلك مناسبة كي أطلب منه إعادتي إلى الزنزانة عند الآخرين، نظراً لأن القصف في هذه الغرفة لا يحتمل. أردت في الحقيقة الالتحاق بوليد وعلي، لكنه أخذ يبتسم لإعتقاده بعدم درايتي بالحرب وحاول طمأنتي. طلبنا منه وعاء لنتمكن من قضاء حاجاتنا، فاحضروا لنا الوعاء.

استدار ناحية الغرفة الخارجية وطلب فتح الباب، تقدم البحاران إلى عتبته، فراح يسألهما عن إسميهما، آنذاك تمكنت من رؤية غرفتهما، ورؤية النافذة العريضة فيها، والتي تطل على البحر مباشرة. دققت في وجهيهما وأنا ألمح آثار الحذر الشديد عليهما. ارتحت لوقفة أبي مروان الواثقة، كان رجلاً باسقاً، وتبدو عليه سيماء الصلابة والتجربة، لقد نهض سريعاً فوق حس الخطر، وكان يقف فارع الطول عريض المنكبين مليء الوجه،

متجهماً، حاد النظرات أشبه ما يكون بأنطوني كوين في فيلم براباس.
ترك المسؤول الكتائبي البحارين وأغلق الباب عليهما، ثم أمر رجاله بأن يقتادوا سامي، ومضى أمامهم فأغلقوا الباب علينا وتبعوه.
سادت لدينا حالة من الترقب والتوجس، لقد بدأت عملية الاستجواب، وشاركنا البحاران في انتظارنا، ثم راحا يسألاننا عن توقعاتنا وكيفية أخذ سامي.
اكتشفت دقة استنتاجاتي عندما عاد سامي بعد حوالي الساعة يقتاده المسلحون، حيث أدخلوه إلى الغرفة وطلبوا اللبناني الآخر.
خرج محمود الحلاق معهم، وانتظرنا بعض الوقت لنتأكد من انصرافهم، ثم أنهلنا على سامي بالأسئلة والاستفسارات.
لقد تم استجوابه وتوجيه العديد من الأسئلة إليه، وتهديده بالتعذيب دون استخدامه.
أسئلتهم متعددة ودقيقة وتفتش عن الثغرات، حرصت أن يسمع الأخوة الباقون كل الأسئلة، وأن أوجههم للإجابة على مثلها بشكل منطقي وقابل للتصديق.
عدنا إلى حالة الانتظار، نروم عودة محمود الحلاق، كل واحد منا يتوقع أنه يمكن أن يكون التالي، لكن أحداً لم يذهب، فلم يكد يمر أكثر من نصف ساعة على ذهاب محمود حتى بدأنا نسمع أصوات الرشاشات.
عاد الجانبان إلى تبادل النيران بالأسلحة الخفيفة، بدأ التبادل متقطعاً، وسرعان ما أصبحت أصواته متواصلة ومتصاعدة.
حضر المسلحون على عجل، ثم أخذت القذائف تتكاثر على المنطقة، ولم نعد نسمع سوى أصواتها، وأصوات الصليات النارية الأخرى،

وخفتت تماماً أصوات الباعة، وذهبت الضوضاء التي كانت تترامى إلى أسماعنا من الشارع، واختفت جلبة المسلحين في البناية، ولم يعد هناك وقع أقدام قادمة أو ذاهبة.

انهالت القذائف من الطرف الآخر من بيروت بكثافة قصف لم تشهده من قبل، لتنفجر قريباً منا محدثة اهتزازات شديدة، وانهال قسم منها على البناية ذاتها لترتعد فرائص حجارتها إلى درجة أننا شعرنا في بعض الأحيان وكأن القذائف قد أصابت غرفة البحارين أو الغرفة الأخرى المجاورة.

جلسنا في ركن من أركان الغرفة بعيداً عن الباب وبمقابل جدار اتخذناه ساتراً أمام الاتجاه المتوقع دخول الشظايا أو القذائف منه.

سادت لحظات سكون ورهبة، إذ بدا وكأن كل قذيفة تنهال على البناية ستدمرنا فوق رؤوسنا.

ازداد التصاعد في تبادل القصف والاشتباكات، وانطلقت أصوات الصواريخ الحادة وهي تخترق طبقة الهواء بصفير مميز، لتنفجر في مناطق أهدافها، صار تبادل القذائف جنونياً، وأصبحنا نتلقى في الدقيقة الواحدة عشرات القذائف والصليات والصواريخ من نوع (جراد)، وأصبح معظمها يتساقط وكأنه فوق رؤوسنا. أما القذائف التي أصابت البناية فقد أحدثت سقوطاً مسموعاً للزجاج والمواد الصلبة الأخرى، كما أحدثت انهيارات قوية سمعنا انهيالها بالجوار. بل أن الهواء الذي كان يأتينا من بعض الفتحات أصبح يحمل معه رائحة آثار الانفجارات والحرائق والدخان إضافة إلى روائح البول والبراز اللذين امتلأ بهما الوعاء في غرفتنا.

شعرنا وكأننا على وشك الاختناق، أو على وشك تلقي قذيفة تقضي علينا، سمعت أحد رفاقي يجزم بقرب النهاية.

أعادتني هذه الحالة من القصف والكلام إلى أيام أيلول عام 1970 في عمان، وإلى لحظة محددة بالذات، عندما حاولت أن أصل قيادة الميليشيات في مخيم الوحدات، توجهنا من جبل النظيف باتجاه السفح المحاذي لمنطقة الوحدات من جبل الأشرفية، عبرنا المنطقة باتجاه السفح المحاذي لمنطقة الوحدات من جبل الأشرفية، عبرنا المنطقة الخلفية من خلال البيوت والأزقة باتجاه منطقة المدارس في الوحدات. وقعنا هناك في دائرة قصف شديد، فالتجأنا إلى إحدى غرف الفصول الدراسية التي اخترتها من وراء عدة جدران تشكل أمامها ساتراً في وجه القذائف.

حاولنا أن ننتظر هدوء القصف، فكانت لحظات زاخرة بالمعاني، جلسنا نتكيء على الجدار، صار ينبعث الوميض برقاً لميلاد الحدائق والشمس والأغاني، عندما تولد الحدائق تثب الخيول ويثب القلب بلون الفرح. يفتح أبوابه للنسيم، وعندما يولد الربيع تولد الحقول، تتوهج الألوان، ينساب الضياء، تفيض الينابيع، وتنبعث الحياة في مشهدها القادم.

وصلتنا قذائف الهاون ونبض القلوب ينهمر بغيث ملائكي طاهر تحرر من حذر غريزة حب البقاء، أصابت أطراف السقف من الجهة الأخرى، وأحدثت فتحة في إحدى أركانه، وأشعلت حريقاً.

أتذكر بجلاء أنني سمعت في تلك اللحظة بعض الكلمات المماثلة عن النهاية، ولكنني عبرت بثقة راسخة عن قوة الحياة، وعن مقدرتنا على تجاوز المأزق.

لم يعد أمامنا إلا أن نغادر المكان. لاحقتنا الرشاشات والقذائف

ومصدرها منطقة مقابلة تمركزت عليها قوات الجيش. اخترقنا عدة أزقة متتالية ونحن على هذه الحالة، وفي الزقاق الأخير سقطت ورائي مباشرة إحدى القذائف، وجدت نفسي واقفاً، تابعت تقدمي باتجاه الساتر الأخير، لم أصب بأي خدش.

ذهبنا إلى حاووز الأشرفية، تفقدت مجموعة من مدرسة الكوادر، أفرزت لتكون ضمن قوة الدفاع عن المنطقة، جلسنا معهم وقتاً هادئاً وجميلاً في ظل فسحة من فسح المعركة، الطريق إليهم كانت مليئة بالجثث الممزقة على قارعتها، والأشلاء المتناثرة، والحفر، وبقايا الأشياء المحروقة أو المدمرة.

وفي طريق عودتنا، ونحن على أبواب زقاق يطل على شارع (بارتو) سقطت قذيفة صاعقة، كنت على باب الزقاق تماماً عندما اخترقت شظية كبيرة الحجم.

لم يكن جسمي قد خرج عن حافة الجدار، فأصابت الشظية كم معطفي وشرطته واصطدمت بالجدار المقابل وسقطت هناك. حملتها بيدي، أذكر أنها لسعتني بسخونتها الشديدة، أقل من جزء صغير من الثانية، وكدت أن تكوني قاتلتي أيتها الشظية الحادة!.

استشهد نتيجة لتلك القذيفة اثنان من أحد التنظيمات الفلسطينية في وسط الشارع العريض، تمّ نقل الجثتين قبل هبوطنا إلى غرفة على طرف الشارع أتخذت ملجأ وموقعاً. انتظرنا مع أفراد الموقع بعض الوقت، ثم تابعنا إلى جبل النظيف.

سرح خيالي بين الحلم والحقيقة، واستحضرت الرؤيا من خلال وردة الحياة، قطعة من النور الأخّاذ تعانق باقة من قرنفل، اخترقت نجمتان

ماسيتان جسوراً فضية الإشعاع، حلقنا في فضاء رحب من الظمأ الوردي كطائر جسور، صياد لآليء حالم غاص بعيداً في بحر دافئ عميق، يجذبه البحث عن المحار وفي خياله آمال لؤلؤة سحرية بيضاء كالثلج.

أشرق توهج منير، فمر طيف عندمي، عبر ربيعاً من الأزهار وغابة من زنبق.

انتزع عصفوران من المدى الأرجواني انتزاعاً، فمملكة النحل تستزيد توغلها الفضائي، لسعة من الشهد كلون العقيق حارة وندية وشهية المذاق، انقشعت في لحظة جزر فرضتها حركة الطبيعة وناموس البحار.

حقاً أيتها الملامح الوردية للثقة والأمل والكفاح، أيتها النراجس ذات العمق الأخضر المقترنة بأهداب من شرائح الليل، لم تكن النهاية هناك في عمان، فهل ستكون هذه المرة في هذا الجزء من بيروت؟، وبأيدي مقاتلينا والقيود تكبلنا؟!.

أجبت نفسي: لا فارق ما دام ذلك في أرض المعركة، كثيراً ما تلقي الحرب بصدفها غير المتوقعة، وتقدم مفارقاتها العجيبة.

أتجه نظري إلى الباب، إذ خمنت أن الحراس قد أختفوا من البناية، أو لعلهم قد لجأوا إلى زاوية قريبة يدرأون فيها الخطر عن أنفسهم.

أقتربت من الباب محاولاً استطلاع الأمر، وطرقته طرقاً خفيفاً، لم يأت أي جواب، حاولت معالجته، وإذ بي أسمع وقع أقدام أحد المسلحين وهو يأتي مسرعاً ليقترب من الباب، سأل عمن يطرقه، فأخبرته أن القذائف ستصيبنا، نهرني بصوت منفعل قائلاً:

- أتمنى أن تصيبكم مائة قذيفة.

وأمر بأن نجلس على أرض الغرفة وانصرف. علمت من مجيء هذا المسلح أنهم ما زالوا داخل البناية.

ظل الوقت يمضي شيئاً فشيئاً دون انقطاع القصف أو هدوئه، وأصبح بعضنا يعبر عن تمنيه لو أن أخوتنا في بيروت الغربية يحولون قذائفهم بعيداً عن البناء الذي يضمنا، ولو قليلاً.

لم يكن هؤلاء المدفعيون الدقيقو الإصابة يعرفون أنهم إنما يوجهون قذائفهم مباشرة إلى مقر الملجس الحربي الكتائبي فوق رؤوس رفاق لهم مربوطين بالسلاسل.

أكاد أعرف مدفعيينا وزملاءهم رماة الصواريخ واحداً واحداً، أنهم رفاقي وأخوتي في قوات العاصفة ذات الهامة المرتفعة.

لا يمكنني أن أنسى أننا إلى جانب القلق تحت القصف المركز امتلأنا اعتزازاً بمقاتلينا ودقة تسديدهم، إلى درجة أن هذه القذائف التي تسقط فوق رؤوسنا زادتنا قوة ورفعت من معنوياتنا، وأشعرتنا بضعف ومأزق آسرينا.

أكتشفت في هذا الأمر مدخلاً ممتازاً لتغيير معنويات بعض رفاقي في الأسر، فطفقت أحرك الملاحظات التعبوية لأطلق تأثيراتها في النفوس، وكي أزيد من وتائر هذه التأثيرات، وفي الواقع لقد فعل القصف فعله وترك تأثيره التلقائي البطيء في المعنويات المنخفضة.

مضى النهار بأكمله دون أن يتوقف القصف وتخف حدته، وخيّم الظلام ونحن لا نسمع سوى أصوات التراشق والانفجارات، ولا نشم إلا رائحة الدخان والحرائق، والغبار الناجم عن الانهيارات.

تذكرت كثيراً من معارك المدن التي شهدتها، لم تكن أكثر حدة مما يدور

حولنا، لم أشاهد قصفاً أكثر دقة من هذا القصف الذي كنت أجده رائعاً في بعض الأحيان، لا أعرف كيف أخذنا الإعياء والتعب من الصحو، أو كيف أغضمت عيوننا، إلا أنني لا أنسى أننا في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي أفقنا على انفجار أقام البناية وأقعدها.

نهض بعضنا مذعوراً، لو أن هذا الانفجار أصابنا لما أمكننا مجرد التفكير فيه، وراح اليوم الجديد يسير بطيئاً وثقيلاً، فالمعارك فيه أشد علينا قسوة من سابقه، وقد أمتدت منذ أن فتحنا عيوننا فجراً حتى أغمضناها في ساعة متأخرة من الليل، وكنا طيلة هذا الوقت نسمع أصوات الاشتباكات والقذائف.

لم نر أو نسمع في هذا اليوم أياً من الحراس أو الفضوليين، الذين دأبوا على المجيء لتوجيه الشتائم لنا ولشعبنا ولأمتنا، وهكذا مضى اليوم مريحاً من أحد جوانبه.

بدأ اليوم التالي باشتباكات متقطعة، فوجدناه أكثر هدوءاً من سابقيه، إلا أنه مشوب بتراشق الرشاشات المتوسطة، وجو خطوط التماس ليس صافياً تماماً، إلا أنه يعتبر خفيف الوطأة نسبياً.

صرنا في هذا اليوم نسمع جلبة الطريق، والقادمين إلى البناية، والعابرين في الممر القريب منا، ورجع البعض يطل علينا من فتحة صندوق الرسائل، يبدو على الكثيرين منهم أنهم من ذوي العلاقة الفضوليين.

أخذ بعضهم يخاطب من تقع عليه نظراته ليطلب منه الوقوف أمامه، بينما قام البعض منهم بكيل الشتائم الوقحة مستخدمين الألفاظ البذيئة، ومحاولين التأثير على معنوياتنا عن طريق أسماعنا، أنهم سيقومون بعملية إعدامنا هذا اليوم. وأن ذلك سيتم على أيديهم. وصار كل واحد منهم

يعين حصته ممن سيتولى إعدامهم، وعندما رفض بعضنا المجيء والمثول أمامهم هددوا بأنهم سيقومون بفتح الباب.

كنت أدرك في داخل نفسي مدى عدم جديتهم، لذلك لم استجب لهم ولو مرة واحدة، وبقيت جالساً في زاوية الغرفة بعيداً عن تسليتهم المريرة على قلوبنا.

لم يكد يمر وقت الظهيرة حتى حضر أثنان من الكتائبيين المشرفين، فتحا الباب علينا، وراءهما بعض المسلحين. كان أحد هؤلاء المسؤولين هو أحد الشخصين اللذين نقلانا من الزنزانة إلى الغرفة.

وكالسابق فقد وضعا الكمامات على وجهيهما وأشهرا علينا مسدسيهما، وحافظا على إبقاء مسافة بيننا وبينهما.

طلبنا الخروج إلى دورة المياه، وإخراج سطل القاذورات للاستراحة من رائحته الكريهة. فوافقا وأخرجانا واحداً واحداً مع الحراس.

انهمك كل واحد منا بغسل وجهه ورأسه، وشرب كمية كبيرة من الماء ليروي عطشه، والتزود بمخزون إضافي يذكر المرء بالجمال الصبورة التي تتحمل كثيراً ولكنها سيدة الغضب.

كلفتنا هذه العملية عشرات الركلات بالبنادق والأرجل، على رؤوسنا وظهورنا، وعشرات الشتائم، وبعض الأسئلة أحياناً من قبل هؤلاء الحراس الطارئين أو الفضوليين الذين تصادف وجودهم في تلك اللحظة.

عندما عدت إلى الغرفة سمعت أحد المسؤولين يخاطب الآخر الذي رأيته من قبل بإسم طوني. فعرفت أن هذا هو أسمه. بعد اكتمال عودتنا فتحا الباب على البحارين لإخراجهما أيضاً، طلب البحار أبو

علي طعاماً مشيراً إلى أننا لم نذق شيئاً منذ ثلاثة أيام، فهز طوني رأسه واعداً بإحضار الطعام، ولم تمض ساعة على غيابهما حتى عاد طوني ومعه شطائر (مرتديلا) وجبنه.

قدم لكل منا واحدة من هذه الشطائر، فأخذنا نلتهمها التهاماً، وعاد ليقدم كل ما تبقى لديه، فأصاب الواحد منا نصف شطيرة أخرى، قدمت خاصتي منها لمحمود الحلاق عندما عبّر عن عدم كفايته بما أصابه من طعام، طلبنا الماء بعد الحصول على الأكل، فوافق طوني ودعا حارساً من الحراس ليحضر أواني المياه الصحية الفارغة، وأرسل أثنين منا لملئهما من مغسلة الحمام. شربنا بعضاً من الماء واحتفظنا بالباقي؛ جزءاً عند البحارين والجزء الآخر لدينا.

لم تمض فترة وجيزة على ذهاب طوني ومرافقيه حتى عاود الفضوليين ممارسة تسليتهم بنا، ولكننا في هذه المرة كنا أكثر اطمئناناً وثقة، إذ أصبح واضحاً لنا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً مما يدعونه، بالرغم من أنهم أستمروا يشهرون أسلحتهم علينا من حين لآخر عبر فتحة البريد ويظهرون محاولات كاذبة لاقتحام الباب علينا وفتحه بالقوة، وقد أصبحوا يلقون إزاء ذلك معارضة أكبر من الحرس المكلف بنا.

رجعت وتيرة المعارك تتصاعد من جديد إلى أن صارت عند الغروب شديدة التوتر، فقد عاودت القذائف مرة أخرى سقوطها بكثافة كبيرة والبحاران يرقبان المعركة من النافذة المطلة عل الفضاء المقابل، مما جعلهما يأتيان من حين لآخر ليطرقا الباب بخفة وحذر ويزودانا ببعض النتائج، فقد كان بمقدروهما أن يريا الإصابات التي يحققها مقاتلونا، وقد ترك ذلك رنة فرح في لهجتهما، كلما وقعت إصابة بمصادر النيران

الانعزالية.

استمرت المدافع وقاذفات الصواريخ والرشاشات ترسل حممها، واستمرت الإنفجارات والطلقات تتناثر هنا وهناك قريباً منا، أصبح كل شيء مجنوناً، وعادت أصوات الزجاج تسمع وهو يتناثر ويتكسر على الجدران أكثر من ذي قبل، وعاد الغبار ورائحة الدخان والومضات الغامرة، التي أرعبت مساء تلك الليلة الليلاء.

إشتد القصف العشوائي فوق رؤوسنا، إرتجت أركان البناية، شعرنا بالخطر المباشر، ولم نعد ندري من جديد ما إذا كانت بعض الصواريخ القادمة من منطقة رفاقنا سوف تجهز علينا.

كانت صواريخ هذه الليلة أكثر اقتراباً وهولاً مما سبقها، فلم نعد نسمع صوت البحارين، وأخذ بعضنا يتكور في زوايا الغرفة، لفت المنظر انتباهي، وشد أفكاري، فهؤلاء الرجال الذين أمامي يتوجسون الموت وأيديهم مغلولة، شعرت أن الأيدي المكبلة والعاجزة بها هي سر خفقات القلوب ووجيبها المضطرب، حيث تطوق القذائف غرفة مغلقة في بناية تتأرجح وسط رياح الحرب العاتية.

كنا مثل عصافير حبيسة تحشرها في قفص خانق يد قاسية ومجنونة. ولكنني كنت دورياً معانداً، وقد تأملت في بعض اللحظات متسائلاً ماذا لو فتحت لنا القذائف العشوائية منفذاً؟ كيف سنتصرف؟!.

سألت محمد عن المنطقة المحيطة بنا، وهل يمكن الإفلات منها؟ أخبرني أنه يعرف المنطقة شبراً شبراً، وأننا إذا تخطينا مسافة قصيرة يمكننا أن نصل إلى أماكن مناسبة للإفلات. فكرت سدى في الأمل الضعيف الذي قد يلوح!

وما أن سنحت لحظات هدوء في الهزيع الأخير من الليل حتى ذهب معظمنا في نوم عميق، وجدت نفسي بعده أمام صباح هاديء وجميل.
جاء المسلحون ضحى هذا الصباح، طلبوا البحار أبا علي مؤكدين عليه أن يأخذ حوائجه لأن الإفراج عنه قد تقرر، غادرنا أبو علي مودعاً أيانا واحداً واحداً، وقد شد على يدي بفرح وحزن اختلطا في لحظة واحدة، واتسما بكثير من التقدير.
بعد رحيل أبي علي تركوا الباب بين الغرفتين مفتوحاً وانصرفوا. قرابة الظهيرة حضر ذلك المسؤول الكتائبي الوسيم بملابسه العسكرية الأنيقة، يتبعه مرافقان، تحدث إلينا بلطف ظاهر، وأخذ معه محمداً ومضى.
إدركنا أن الاستجواب قد أستونف من جديد. بعد وقت غير طويل عادوا يقتادون محمداً أمامهم، ثم نادوا علي، فرحت أتفرس وجه محمد علني أقرأ شيئاً في ملامحه قبل أن يعصبوا عيني، وفي الحقيقة ألفيت وجهه محيراً ولم أجد من نور يجلو ظلام الطريق أمامي سوى بصيرة الإرادة فمضيت صامتاً ومفكراً برفقة الحراس.

التحدي

انقطع التسلسل الزمني للأحداث في اللحظة التي ألفيت فيها نفسي أمام المحققين في غرفة استخدمت مكاناً للتحقيق، ظهرت لي الاستجوابات السابقة مع الآخرين وكأنها مقدمة مختصرة لاستجوابي.

أدركت فيما بعد أنهم يركزون علي، ولعل السبب هو وشاية رفيق ضو أو هي طبيعة النظرة التي شكلوها عن كل شخص منا وظروفه التي يتوفر بين أيديهم الإلمام بها، المهم أنني وجدت نفسي أمام نوع آخر من الاستجواب. جلس المحقق وراء مكتب عليه بعض الأوراق، وأخذ يقلب في ملف بين يديه، بجواره اثنان من المساعدين، وخلفي يقف ثلاثة من الحراس المشاركين في التحقيق. طلب مني الجلوس، حاول أن يشعرني بشيء من اللطف كمن يطبق بعض المفاهيم النظرية حول التعامل النفسي أثناء التحقيق، ثم تلا أسمي حسب جواز السفر في ملفه، وتساءل ما إذا كان ذلك هو أسمي؟

وبعد أن وافقته على الأسم تابع متسائلاً:

- إذن أنت يمني؟!

- نعم.

- أخبرني بكل صراحة ووضوح من أنت؟ ولماذا أتيت قاصداً صيدا؟ ومن لك في لبنان؟ قل كل شيء...

إنني الآن أمام السؤال الذي أعددت له نفسي جيداً، وعلي أن أقدم إجابتي مدركاً أنها ستكون لهم مجرد إجابة أولية، وأن علي أن أكون مقنعاً.

لحظة احدة مرت ومن المنتظر أن أبدأ بسرد قصتي، وعيون الذين أمامي تتفرس وجهي وتتابع انفعالاتي، فيها حب الاستطلاع والمعرفة بقدر ما فيها من تربص لأية ثغرة.

عليّ أن أكون مباشراً وواضحاً، وأن لا أبدو متهرباً من السؤال، متريثاً لإعداد جواب، أو متسرعاً في سرد أقوالي كأنما حفظتها أو أعددتها:

- كنت قادماً إلى صيدا من أجل التهيئة لتوزيع تركة والدي الذي توفى مؤخراً في الكويت.

- أريد أن أسمع قصتك وقصة والدك كاملة بالتفصيل.

هذه اللهجة ليست لهجة يمني، وهذا الشكل ليس شكل يمني، أخبرني بكل شيء من البداية.

يبدو أنني أخذتهم إلى منطقي، فقد دخل سؤالهم في إطار منهجي الذي أعددته وفكرت فيه.

- هل أبدأ بقصة والدي؟

سألت محاولاً مزيداً من استدراجهم إلى المنهج الذي أريد.

- إبدأ.

- كان والدي يعيش في بلدة عدن، مع جدي الذي كان ثرياً ومالكاً لأسطول لصيد السمك، كانت عدن في ذلك الوقت مستعمرة انكليزية، شارك والدي في العمل الوطني ضد الاستعمار، مما أدى إلى إبعاده، فوصل إلى سوريا، واستقر فيها عام 1944، وفي مدينة دمشق

تعرف إلى أسرة والدتي وتزوج بها عام 1947، ونتيجة للمجهودات التي بذلها جدي مع السلطات مستعيناً بمكانة قبيلته تمكن في نفس العام من العودة مع والدتي إلى عدن.

ولدت هناك في العام التالي وهو عام 1948، وبقيت أسرتنا في عدن حتى عام 1953، عندما اضطر والدي إلى مغادرة وطنه من جديد، وقد اختار العودة بنا إلى دمشق.

- كيف عاش والدك في دمشق؟!

- كانت لديه بعض الأملاك التي اشتراها من أموال والده، أصبح يملك بيتاً ومزرعة يديرها.

- وبعد ذلك؟

- سافر والدي إلى الكويت وعمل فيها.

- ولماذا لم يعد إلى عدن خاصة بعد خروج الانكليز منها؟!

- عاد والدي بعد الاستقلال، وكان والده قد توفى، وقد حدثت بعض الخلافات السياسية جعلته يقرر العودة إلى الكويت لمتابعة أعماله فيها.

- وما هي هذه الأعمال؟

- اشتغل والدي في عدة مجالات، فقد كانت لديه شركة للمقاولات، ومعرضاً للأقمشة، في عام 1965 خسر خسارة كبيرة في

مشروع بناء في الكويت مما اضطره إلى بيع المزرعة في سوريا ومعرض الأقمشة في الكويت، وأعادتنا إلى دمشق، حيث بقي وحده إلى أن تمكن من استرداد أمواله، وعادت الأسرة إلى الكويت مرة أخرى عام 1970، أما أنا فقد التحقت في عام 1971 بكلية الحقوق في جامعة دمشق ووصلت السنة الثالثة.

- ولماذا لم تكمل دراستك؟!

- انقطعت عن الدراسة بسبب محاولتي التغيير إلى كلية الطب، فقد بذلنا محاولة لعودة والدي إلى عدن وبناء مصنع فيها بواسطة اتصالات مع الدولة اليمنية، وحدث أن أرسلني إلى عدن لمقابلة المسؤولين، واستقبلني رئيس الوزراء الذي رحب بنا، وأكد أنه لا يمكن إعادة أموالنا السابقة التي استولت عليها الدولة من أموال جدي، وقال أن أبواب السفارة اليمنية في دمشق مفتوحة لي إذا احتجت إليها، وأن لوالدي يداً في النضال ضد الاستعمار، ثم سلمني رسالة صغيرة بخط يده للسفير.

- عندما عدت قابلت السفير في دمشق، وطلبت منه مساعدتي في تأمين منحة لدراسة الطب في إحدى الدول الصديقة لعدن، فتم إرسال أوراقي إلى الاتحاد السوفياتي، وسافرت إلى موسكو ومكثت فيها شهوراً طويلة، ولم أجد أمامي سوى الفرصة لدراسة الاقتصاد وليس الطب، فرجعت ثانية إلى دمشق، وأعدت التسجيل في جامعتها بعد انقطاع عنها لمدة عام دراسي.

- وجواز سفرك هذا كيف حصلت عليه؟

نسجت كل حرف في روايتي كي يتفق مع واقعه في أوراقي، أو مع أي إدعاء سأبديه، وقد بررت الأختام على جواز سفري عند توجهي للإتحاد السوفياتي بإدعاء السفر لدراسة الطب، وعليّ الآن أن أفسر صدور جواز سفري بحد ذاته من بيروت دون أختام للخروج، بل وبدون ختم دخول في حينه إلى الأراضي السورية.

- عند انتهاء الجواز القديم تقدمت بطلب إلى السفارة في دمشق لإستبداله، ولم تكن لديهم نسخ لجوازات السفر، مما يقتضي الانتظار، ولأنني كنت مضطراً للسفر الفوري إلى الاتحاد السوفياتي فقد قام مستشار السفارة الذي ربطتني به علاقات ودية بأخذه مع الأوراق المطلوبة إلى بيروت، حيث كان متوجهاً لبعض الأعمال، وقام باستبداله وتكلفت السفارة بدمشق بتسوية الوضع مع السلطات السورية، فغادرت بإذن من وزير الداخلية وهو ما يظهر من ملاحظة موجودة على جواز السفر.

- بعد عودتك من الاتحاد السوفياتي مباشرة حضرت ثلاث مرات إلى لبنان، فلماذا كان ذلك الحضور؟

- سلمني صديق يعمل في السفارة السورية في موسكو مبلغاً من المال كل أسلمه لعائلته في دمشق، واضطررت لاستخدام المبلغ وشراء بعض الهدايا لعائلتي، لذا توجهت فور عودتي إلى لبنان لأخذ المبلغ من شريك والدي المقيم في بيروت، أعطاني في المرة الأولى جزءاً من المبلغ،

وعدت إليه ثانية بعد أيام لأخذ الباقي، أما في المرة الثالثة فقد جئت لأخذ بعض النقود لحاجتي الخاصة ولم أجده.

- أين نزلت في بيروت؟

- في المرة الأولى بت ليلتين، وفي الثانية بت ليلة واحدة وكلاهما في بيت شريك والدي، أما المرة الثالثة فإنني لم أجده، لذلك فقد عدت في نفس اليوم إلى دمشق.

- لماذا لم تنتظره لليوم التالي في بيروت؟

- لأنني لا أعرف أحداً أبقى عنده.

- وقد سافرت بعد عودتك إلى الكويت؟

- نعم لزيارة عائلتي.

- ثم عدت مرة أخرى إلى دمشق وسافرت ثانية إلى الكويت؟

من الواضح أنهم درسوا جواز سفري دراسة دقيقة، وأنهم دققوا كل حرف فيه، من حسن الحظ أنني أعددت نفسي لهذا الأمر فوجدتني في واقع الأمر أتابع سرد روايتي:

- عدت إلى دمشق وبقيت فيها إلى أن وصلتني برقية تطلب مني الحضور إلى الكويت بسبب مرض والدي، وقد توفي والدي بعد وصولي بثلاثة أيام فبقيت هناك لإتمام إجراءات تقبل العزاء، وقد تجمع كافة أشقائي.

حثنا بعض الأصدقاء بعد مرور الوقت على ضرورة أن نقوم باقتسام التركة قبل سفر كل منا إلى مكان إقامته، ووجدنا أن ذلك يحتاج إلى حصر التركة، علماً أن جزءاً لا بأس به من هذه التركة لا يمكن حصره، لأنه في حساب الشركة بين والدي وشريكه الآخر في بيروت والوصول إلى بيروت مشكلة كبيرة بسبب الحرب، خاصة وأن الطريق من دمشق إلى بيروت مليئة بالمعارك وليس من الممكن اجتيازها، لذا لم نكن قادرين على اقتسام التركة. إلا أن بعض المعارف أكدوا لنا أن بإمكان أحدنا أن يذهب إلى بيروت عن طريق قبرص ومنها إلى صيدا. كذلك أخبرنا بعض جيراننا أن أشخاصاً ذهبوا من الكويت إلى بيروت وعادوا من الطريق، بعد تردد قررنا أن أحضر، وهو ما قد تم فعلاً، لأكتشف أن الطريق لم يكن آمناً!

- ولكن لديك لهجة فلسطينية؟!

- لهجتي ليست فلسطينية، إنها أقرب ما تكون إلى الشامية لأنها لهجة أمي، لا أستبعد أن تكون هناك بعض الكلمات لأن معظم جيراننا في الكويت وحتى بعض معارفي في دمشق فلسطينيون، إضافة إلى أنني عندما كنت طالباً في المدرسة كان معظم زملائي من الفلسطينيين، ورغم كل ذلك بالتأكيد لهجتي ليست فلسطينية.

- هل تعرف فلسطينيين كثيرين؟

- نعم. أعرف عدداً لا بأس به.

- أين؟

- في دمشق والكويت.

- هل تعرف أحداً من المقاومة الفلسطينية؟

- أعرف أبا إياد، الذي التقيت به في إحدى ندواته السياسية في جامعة دمشق، كذلك هناك صديق لعائلتنا، وهو بمثابة أخ لوالدي، وقد أصبح من كبار معاوني ياسر عرفات.

- وكيف تعرفتم عليه؟

- كان يعمل في وزارة الزراعة السورية، وقد تعرف عليه والدي منذ أن كان يحتاج معونته لأعمال مزرعتنا، وقد أصبح صديقاً حميماً لوالدي.

- هل تراه باستمرار؟

- ليس باستمرار.

- متى رأيته آخر مرة؟

- منذ شهور.

- كيف حدث ذلك؟

- صادفني ماراً بسيارته، وأنا متوجه إلى الجامعة، فوقف بقربي، وبعد أن تحدث معي عرض عليّ أن يأخذني في طريقه إلى الجامعة، وقد ذهبت معه، ونزلت أمام الجامعة.

- وبعد ذلك.

- لم أره.

- هل كان له اتصال مع والدك؟

- ليس اتصالاً مستمراً، في آخر مرة زار فيها الكويت دعاه والدي إلى الغداء، فحضر معه مسؤولون فلسطينيون، وكنت وقتها موجوداً.

- هل تعرفت عليهم؟

- لم أرهم بعدها.

- هل زرت لبنان زيارات أخرى غير التي تحدثنا عنها؟

- في عام 1974 رافقت والدي لمدة يومين عند شريكه في بيروت.

- وغيرها؟

- لم أدخل لبنان.

- ما هو أسم وعنوان شريك والدك؟

- أسمه سليمان عبد القادر، ولا أعرف عنوانه، إنما أعرف الذهاب إليه.

- رقم هاتفه؟

- لا أعلم إذا كان في بيته هاتف أم لا.

- هل أنت عضو في تنظيم سياسي؟

- لا.

- هل تمارس نشاطاً سياسياً؟

- ليس نشاطاً سياسياً، إنما اهتمامات سياسية، خاصة في إطار نشاطات الطلبة في الجامعة، إنني من الذين يتابعون الأخبار جيداً، وكذلك التحليلات السياسية، وهذا كل شيء.

أخرج المحقق من ملفه بعض الأوراق وقذفها أمامي مستفسراً:

- ومن هو هذا؟

فاجأني مفاجأة مروعة، فهي شهادات قريبي، فيها أسم العائلة وفيها شهادة ولادته وهو من مواليد القدس، كادت أن تربكني المفاجأة، لقد نسيت هذه الشهادات ولم أحسب حسابها.

إن أسم عائلته هو أسم عائلتي الصحيح، وقد أنكرته وتمسكت بالأسم الموجود في جواز السفر، وهما لا يختلفان سوى اختلاف طفيف كنت متعلقاً به ومعتمداً عليه.

عليّ أن أتماسك، وأن أقدم جواباً منطقياً، وأن أبدو واثقاً، ولا أتلكأ، وفي سرعة المفاجأة نفسها أجبته:

- نعم سأخبرك من هو صاحب هذه الشهادات، إنه ابن أحدى العائلات الفلسطينية، التي يوجد شبه كبير بين اسمها واسم عائلتي،

أقاربه جيران لنا في الكويت، ويزعمون أن أصلهم من اليمن، وأنه على الأرجح أن تكون هناك صلة بين عائلتنا من ناحية الأجداد، بل أن بعضهم يؤكد ذلك، وهذا ما أدى إلى وجود علاقات شخصية وطيدة بيننا.

عرفوا بواسطة هذه العلاقة عمق علاقتي بالسفارة اليمنية في دمشق، ولما كان ولدهم يرغب في الدراسة بالإتحاد السوفياتي، فقد طلبوا من والدتي أن أمد لهم يد المساعدة.
أخبرت والدتي أن ذلك شبه مستحيل، إلا أنها رجتني أن أحاول وحملتني هذه الشهادات.

- أخبرني أيضاً عن هذه؟

سأل وهو يمد يده إليّ برسالة من بين الأوراق التي أبقيتها، فقلت له:

- رسالة أحملها إلى دمشق.

- إذن أنت ذاهب إلى دمشق؟

- نعم، بنيتي أن أذهب من بيروت إلى دمشق، إذا تغيرت ظروف الطريق، ومنها أعود إلى الكويت.

- وتذكرة السفر التي تحملها بين أوراقك؟

- لم استعملها، فهي تذكرة العودة من الكويت إلى دمشق.

- هل أنت متأكد أنه لا توجد لك صلة تنظيمية بالفدائيين

الفلسطينيين.

- إطلاقاً.

- حسناً، سنرى!

وأمر بأخذي إلى المكان المخصص لي.

****

صعد معي ثلاثة مسلحين إلى الطابق الثامن، سرعان ما فتحوا باب الزنزانة قرب المصعد، وأخرجوا منها أثنين من رفاقي هما وليد وعلي، وما أن شاهدتهما حتى قررت أن أوجه إليهما رسالة، فبدأت أحتج على المسلحين لإعادتي إلى الزنزانة، قائلاً:

- ما هو ذنبي؟ أنني لست فلسطينياً ولا علاقة لي بأحد ولا أعرف أحداً، لماذا تعيدونني إلى الزنزانة؟

استمع رفيقاي إلى عباراتي جيداً، أما مسؤول الحراس فقد صرخ بي مستنكراً احتجاجي.

واضطررت أن أؤكد له أنني أخشى البقاء في الزنزانة وحدي، فأمرني بالدخول وأغلق علي باب الزنزانة، ثم سمعت وقع أقدامهم هابطين.

جلست وحيداً في الزنزانة، خلوت إلى نفسي، لقد فرغت من معركة هامة في هذه الحرب الدائرة بيني وبينهم.

كان ضرورياً لي أن استرخي، فقد كنت بحاجة إلى الاسترخاء والراحة،

لكن أفكاري وما دار من أسئلة وأجوبة أثناء التحقيق، طاردتني وفرضت نفسها عليّ.

إن هدفهم الواضح من الاستجواب أن يتأكدوا من هويتي الحقيقية أن يعرفوا ما إذا كنت فلسطينياً أو يقتنعوا بكوني يمني. ذلك ما ركزوا عليه وما دارت من حولة أسئلتهم.

استذكرت إجاباتي، لم أجد هناك أية ثغرة، مع أنه في واقع الأمر كانت هناك ثغرة كبيرة، انطلت عليّ وعليهم في آن واحد، فلم يكن حتى ذلك التاريخ هناك سفارة عدنية في دمشق، ولم أكن أعرف هذه الحقيقة في حينها، كما أنهم أيضاً لم يفطنوا لهذا الأمر، وعندما عرفته فيما بعد رحت أقول لنفسي: أية ثغرة كانت لو أنهم انتبهوا.

حبكت قصتي بحيث غطيت ثغرة الشكل، واللهجة والمجيء في مثل هذه الظروف، واحتمال أن تطالب بنا الحركة، إذ أكدت لهذا الغرض معرفة أسرتي لواحد من مساعدي ياسر عرفات.

وأكثر من ذلك فقد بررت كون أختام جواز سفري تتضمن السفر إلى الاتحاد السوفياتي الذي بقيت فيه طيلة دورة عسكرية بأكاديمية فسترل في مدينة سولنيشناغورسك، تأملت في الأمر، ثم تساءلت مع نفسي: دورة عسكرية! ماذا لو عرفوا؟!

ابتسمت وطفقت أسترجع ذكرى بحيرة سولنيشناغورسك (مدينة الشمس)، تلك البحيرة الهادئة والمطوقة بالأشجار الصنوبرية والأبريات التي تتكلل أغصانها بتراكمات الثلوج في أيام الشتاء، فتنحني تحت وطأة الثقل الأبيض الناصع في ظلال سماء ملبدة، راصاصية، داكنة.

كانت السناجب تتسلق الأغصان، وتقف على حوافها لتطل برؤوسها

شبه المدببة ومن خلفها أذيال كثيفة تراقب حركة الأشياء أو تبحث عن لهوها وطعامها.

أعتدنا في بعض الأيام الباردة التي تصل درجة الحرارة فيها إلى ما دون العشرين تحت الصفر، السير فوق سطح البحيرة الجليدي المتجمد، حيث تصير هذه البحيرة صفحة واحدة كساحة فسيحة فرشت بطبقة قاسية من الرخام الناصع.

أنجزت الكثير في أكاديمية فيسترل، رحت أدير مجموعتي وأنسق مع قيادة الأكاديمية، وأقوم بالقيادة السياسية والتنظيمية لمجمل الدورات. وبالاتصال بقيادات المجموعات الأخرى من دول وجنيسات مختلفة، وفوق ذلك فقد أتيحت لي الفرص لإعطاء بعض المحاضرات حول قضية فلسطين لطاقم الأكاديمية من كبار الضباط. تحصلت دورتنا على أفضل تقييم قدمته المراجع السوفياتيه، وقد برز تكريمها أثناء التخريج الذي أشرف عليه مباشرة الفريق جنرال قائد الأكاديمية، فاتحني نائب القائد العام فور عودتنا بضرورة تقديم لفتة تكريم لأعضاء الدورة، لكن أوار الحرب الأهلية التي تفجرت في لبنان لم يدع فرصة للتنفيذ.

أخفيت أمام المحققين كل ما يتعلق بأكاديمية فيسترل، وادعيت سبباً آخر لسفري إلى الاتحاد السوفياتي، بل وكذلك فعلت بالنسبة إلى عدن، لم تكن هناك أية إشارة على جواز سفري لقيامي بزيارة لعدن، لأنني كنت قد زرتها بجواز سفر آخر، وقد قابلت رئيس وزرائها فعلاً. المهم أن زيارتي لعدن ساعدتني فيما بعد أثناء التحقيق في الإجابة على العديد من الاستفسارات التي تتعلق بعدن والتي أرادوا من ورائها التأكد من حقيقتي.

أذهلتني مفاجأة أوراق قريبي، فلم أكن قد حسبت حسابها، لأنني نسيت هذه الأوراق تماماً، ربما أسعفتني البديهة، وتداركت هذه الثغرة، ولكن كم تصمد قصة هذه الأوراق التي رويتها أمام أي تدقيق؟!

شعرت بارتياح لهذه الجولة، واعتقدت أنني قدمت تفسيرات يمكن تصديقها في النهاية، وهذا هو المهم، عليّ أن أبدأ الاستعداد لمعركتي القادمة، فربما تكون قاسية؟.

ما هو إلا وقت قصير حتى اكتشفت صحة تخميني، فقد بدأت معركة الذكاء والإرادة بيني وبينهم، يريدون أن يكتشفوا حقيقتي بكل الوسائل، وأريد أن أضللهم بكل ما أستطيع.

هل سيكتشفون حقيقتي وينتهي أمري عندهم؟ أم أنني سوف أفلت من أيديهم قبل أن يكتشفوا هذه الحقيقة؟ بعد ذلك لن يهمني بل أنني أريد أن يعرفوا أشياء كثيرة عندما أصبح طليقاً.

أشرف المساء على الحلول، دارت المفاتيح في باب الزنزانة، وسمعت دعوتهم لي بالخروج، فوجدت أربعة مسلحين، تقدم أحدهم مني وقام بعصب عيني وبإحكام القيد في يديّ، ثم اقتادني ومعه آخرون إلى المصعد ليتم أخذي إلى غرفة مقفلة النوافذ في أحد الطوابق السفلية.

أغلقوا الباب، وتركوني وحدي، بقيت أكثر من ساعة أنتظرهم، وقد ذهبت خواطري وعادت مراراً، إلا أن ما بقي يشغلني أكثر من غيره هو السؤال عما سيفعلونه بي في مثل هذا الوقت ثم اعتقادي أن كل ما يفعلونه الآن مرسوم ومدروس.

فتح المسلحون باب الغرفة ودخل أحدهم، خاطبني بنفور:

- أراك جالساً؟! قف وأدر وجهك للجدار، وارفع إحدى

ساقيك.

فعلت ما طلبه مني بهدوء، فخرج ولم يغلق الباب، ونظرت بطرف عيني فرأيتهم يقفون بالخارج، كانوا ثلاثة مسلحين يدخنون ويتحادثون. أخذت أشعر بالتعب مع مرور الوقت، إزداد التعب شيئاً فشيئاً، يداي مقيدتان، والجدار أمامي، وساقي بدأت تهتز، حاولت أن أنزل الأخرى لأتكيء عليها، فسمعت صرخة تأمرني بأن أعيد رفع ساقي. أقترب صاحب الصرخة ورفع سلاحه وهددني إن عدت إلى ذلك مرة أخرى. رفعت ساقي الثانية محاولاً تغليطه أو سكوته، لكنه طلب مني أن أرفع الساق ذاتها ولا أتحرك.

يا للعذاب، إن ساقي لا تحتمل، إلى متى سأبقى على هذا الوضع؟

ما يؤلمني أكثر أنه أشبه ما يكون بعقاب أولاد المدارس! لكن أعصابي بدأت تخور، عضلات الساق تنتفض، ما أبسط هذه الوقفة وما أصعبها في آن واحد! لم أعرف أنها مع الوقت مرهِقة للأعصاب إلى هذا الحد.

انتظرتهم يسمحون لي أن أغير وضعي أو يبتعدوا، لكنهم ظلوا قريبين يطلون من باب الغرفة وهم مرتاحون، يتضاحكون أحياناً ويصرخون ببعضهم أو يتجاذبون المزاح بالأيدي والسلاح أحياناً.

بدأت فجأة أصوات القذائف، تعالى صهيلها، لعلعت الرشاشات بصلياتها المتقطعة، ثم انفلتت رعود الحرب زخت أمطارها، تم كل ذلك بسرعة فائقة، لم أحسب حسابهم، أنزلت ساقي، استرحت قليلاً، لكن المسلح صرخ بي مهدداً، وقد سحب أقسام بندقيته.

رفعت ساقي الأخرى، يبدو أنه غض الطرف هذه المرة، شعرت أن

المسلحين لم يغادروا مكانهم، لعلهم يشعرون بالأمان هنا، بالرغم من أن البناء أخذ يهتز ويجفل ويئن.

شعرت بالإرهاق يدب في أوصال ساقي الجديدة، وبالآلام ترافق حملي وثنيي لساقي الأخرى، لم أتمالك نفسي، سَرَت فيّ رغبة إلقاء جسمي على الأرض، وراحت ترادوني بإطراد لحظة بلحظة، ووجدتني ألقي برأسي وكتفي ويدي المقيدتين على الجدار لأتكيء عليه.

دخل المسلحون الثلاثة، ألقى بي أحدهم أرضاً، وراحوا يضربونني بدون رحمة، استخدموا أرجلهم وأعقاب بنادقهم، تقدم أحدهم وإذا به يحمل سوطاً صغيراً، هوى به على رأسي، رأيت الدم ينهمر، وجدت أنه من أنفي، شد أحدهم شعري وأمرني بالعودة إلى الوقوف.

الضرب أهون عليّ من الوقوف! ولا أعرف كم مضى من الوقت الطويل الذي وقفت فيه على ساق واحدة، لكن ما وقفته كان كافياً لتعذيب أعصابي وعضلات ساقيّ.

حاولت أن أقف، ظهرت عليّ صعوبة المحاولة وصعوبة التحمل، أخيراً طلبوا مني أن أقف على ساقي الأثنتين. تمالكت نفسي ووجدت في ذلك شيئاً من الفرج. وقفت ووجهي إلى الجدار، أما هم فقد خرجوا بعد أن هددوني وتوعدوني، شاهدت الدماء على ملابسي، أنفي ما زال ينزف ويداي مقيدتان.

لا أعرف متى ولا كيف توقف النزف، ولكن أنفي وفمي وبلعومي امتلأت كلها بالدم، وأصبح الدم ثقلاً في أعلى الحلق والأنف، حاولت أن أخرجه باصقاً إياه أو أن أبتلع جزءاً منه، فلم أتمكن من التخلص منه بشكل كامل.

أستمر وقوفي طويلاً قبل أن يبدأ الإرهاق يدب في أوصالي من جديد، بدأ هذه المرة بطيئاً، والوقت يمضي أسرع منه إذ أنني أقف على الساقين معاً، شعرت في البداية برغبة في الإتكاء، في تغيير وقفتي، في التحرك من مكاني، وأخيراً عاد التعب والإرهاق يتغلبان عليّ من جديد. في مثل هذا الوقت ينبغي أن أكون نائماً، قلة النوم تضاعف الإرهاق، ولا أعرف إلى متى سيظل وقوفي، إنني أنتظر النهار، متى سوف يأتي النهار؟!

تبدل الحراس وجاء ثلاثة غيرهم تفقدوني وحذروني من الحركة أو الاستناد إلى الجدار ثم أخذوا مكان رفاقهم.

آه... ! التعب والكلل والنعاس وأعصابي، إنهم يهيئونني من أجل الغد، سيعاودون استجوابي وسأصمد مرة أخرى.

الليل البهيم يمر بطيئاً بطيئاً، الفجر يقترب، المعركة هدأت، نسيت أمرها، أصوات الرشاشات المتقطعة أصبحت متباعدة، جسدي لا يحتمل، ما ألذ السرير والفراش، بل ما أجمل الأرض! عيناي لا تصمدان، أصبحت أرتعد من البرد ولا أقوى على الاستمرار.

هل أجازف بالسقوط وأخذ وجبة أخرى من الضرب؟ عليّ أن أحتفظ بشيء من قوتي من أجل الغد، إذن هل أجازف؟ خيوط الفجر بدأت تدخل إلى الممر، الإرهاق أصبح شديداً، والوقت ينفد أمام أي تغيير يمكن أن يعني نفساً من الراحة، لا بد من استباق الوقت.

ألقيت بنفسي على الأرض، لم يفطن الحراس لتوهم، أخذت برهة من الراحة، فكرت بالوقوف ثانية والاكتفاء، لكنني آثرت أن استزيد، تنبه الحراس، وجاءوا يصرخون ويشتمون، فقلت لهم:

- لا استطيع الوقوف!

نظر أحدهم إلى الآخر، كمن يرى أن الطبخة قد نضجت، نادوا على الثالث، ثم أمروني أن أتبعهم وساقوني إلى المصعد ثم إلى الزنزانة، هل هي الزنزانة نفسها؟! إنها مليئة بالماء! من أين أتى هذا الماء؟! وما الذي جرى؟! المهم أنهم أدخلوني وانصرفوا.

أستبد بي البرد إلى جانب التعب والنعاس، ولم أستطع أن ألقي بنفسي فوق الماء والأرض الباردة، لا أعرف ماذا أفعل!.

خلعت حذائي، ووضعته قرب الزاوية، جلست عليه مسنداً رأسي إلى الجدار، ورفعت ساقي وأسندتهما إلى الجدار المقابل، هؤلاء الشياطين يريدون إرهاقي حتى الثمالة، لكنني سأصمد.

البرد والجوع والخوف، إذا توفر واحد منها لا يدع المرء ينام. وهي جميعاً تملأ أرجاء الزنزانة، لكنها لم تقتحم حصني، لم يتملكني الخوف لحظة واحدة، لأن الخوف والتحدي لا يجتمعان. يتبخر الخوف في حرارة التحدي، طغى الإرهاق على الجوع والبرد، لذلك فأنني لا أعرف كيف سرقتني سنة من النوم ولا أين ذهبت بي!!.

أفقت على أحدهم يفتح باب الزنزانة ويدعوني للخروج، إنه الصباح!، يبدو أنني أخذت قسطاً من النوم، إذن جاءوا لأخذي للتحقيق بعد أن هيأوني، وقاموا بإعدادي! أشعر أنني قوي وأنني قادر على الاحتمال، أستمد الطاقة الجبارة من لهيب الإرادة المشتعل.

ساقني المسلحون، لم يتوقفوا قرب المصعد، إقتادوني إلى الطابق الأعلى، فتحوا إحدى الغرف وتركوني أقف على الباب، شاهدت أغطية صوفية ملوثة بالدم، دماء كثيرة، وبقايا ملابس لأشخاص مروا على هذه الغرفة. لعل أحدهم قد ذبح فيها، المنظر يثير الاشمئزاز، وبقع الدم لا

تنمّ عن تعذيب عادي.

جروني من ساعدي ومضوا بي إلى غرفة أخرى، رأيت فيها طاولة وحبالاً معلقة، فكوا قيدي فشعرت براحة في رسغي، أمروني أن أقف على الكرسي في إحدى زوايا الغرفة، ثم أوثقوا يدي من الرسغين معاً وعلقوني بالحبال، تم شبحي، أبقوا عليّ معلقاً بوضع تكاد تلامس فيه رؤوس أصابعي بلاط الغرفة، أغلقوا الباب وانصرفوا.

إذن لم يأخذوني إلى غرفة التحقيق! سمعت كثيراً عن الشبح، ولكنني لم أره مباشرة.

لقد سجنت أكثر من مرة قبل الآن، كانت المرة الأولى في عام 1963، كنت دون السادسة عشرة من عمري، تم توقيفي على أثر ردود الفعل بمناسبة محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق. داعب ذلك آمال وأماني الشعب الفلسطيني، يا لهذا العمق الهائل، اندلعت المظاهرات في مدن الضفة الغربية والضفة الشرقية على السواء، تأييداً للوحدة بقيادة عبد الناصر، ووصل الأمر إلى الحد الذي أعلنت فيه محلياً مدينة نابلس الباسلة والمعروفة بصلابتها الوطنية انضمامها للوحدة، وأغلقت نفسها على السلطة، وفي الخليل وصل الغليان الشعبي حداً من النقمة والحماس، عيون الشعب على فلسطين، قلوبهم تهفو على الوطن السليب والكرامة المهيضة والطريق هو القوة.

ستبقى قلوب الفلسطينيين وعواطفهم تهفو دائماً إلى أمل القوة، وسيبقى إرهاص القوة القومية يجتذبهم.

وقف الفلسطينيون، وسوف يقفون دائماً مع كل قوة مرشحة أن تكون مركز استقطاب وطليعة مواجهة مع الكيان الصهيوني. هذا قانون لن

يخدش حتى يتم التحرير وتنهض الأمة.
إنطلاقاً من هذا الأساس ساند الشعب الفلسطيني عبد الناصر، ولو عاد محمد علي فانهم سيساندونه أيضاً.
وإذا إنعدمت هذه القوة فإن الشعب الفلسطيني سيبقى ينفخ في نار إيجادها، وعندما تحاصرهم رياح الدنيا سيناضلون من أجل البقاء. ثم المد من جديد. آمال الدولة العربية القوية والإرادة التحررية التي أطلقها إعلان الوحدة الثلاثية هو ملهم الفوران الذي طفح قوياً وشارك فيه الطلبة بزخم بارز.
كنت واحداً من هؤلاء الذين ألهبتهم طموحات الوحدة متعلقين بآمال تحرير فلسطين. وبناء المجد العربي من جديد، ابان تلك المظاهرات أستشهد الطالب جمال عمرو وجرح آخرون.
أودعنا في سجن الخليل، لم يكن الأمر في حقيقته سجناً، بل توقيفاً لمدة أسبوع.
أما المرة الثانية فقد كانت عام 1966، بعد معركة السموع، حيث إندلعت انتفاضة شعبية عارمة في كل أنحاء مدن الضفة الغربية والشرقية على السواء نقمة على الضعف والتخاذل في مواجهة العدوان، وتأييداً لروح البطولة التي أظهرتها معركة بيت مرسم قرب الخليل.
كان الأمر هذه المرة أكثر تنظيماً وعمقاً ووحدة، لقد بلغ السيل الزبى، شاركت بدوري في الإعداد للمظاهرات وفي قيادتها وفي توقيع عريضة الشخصيات الوطنية الفلسطينية في منطقة الخليل.
انطلقت مظاهرتنا من ساحة المدرسة الثانوية في شارع عين سارة واتجهنا إلى مدرسة ابن رشد في شارع عين خير الدين الذي هو امتداد لشارع عين

سارة، تنظيمنا هو الذي يقود، أخذ هديرنا وصخبنا وهتافنا يتواصل في الطريق إلى قلب المدينة، وراحت تلتحق بنا مدارس المراحل الأدنى من البنين والبنات والعمال وبعض المارة، الذين صادف تواجدهم.

هبطنا إلى ساحة باب الزاوية، أفرغنا شيئاً من صخبنا مقابل مركز شرطة المدينة، وارتفع فجأة فوق الرؤوس جسد مناضل قديم صلب، فخري مرقة، رأيته فوق الأكتاب إلى جواري وجوار عبد الخالق يغمور زعيم المدينة الوطني. شعرت بالحماس يدب في أوصالي أقوى من ذي قبل، يا لنجاحنا، وما أعظم هذا الكهل المناضل الذي صعد، كعملاق فوق الأكتاف، وراح يطلق الهتافات من القلب، من أعماق الصدر، بملء الرأس، وبكل هذا التاريخ، برزت أسنانه التي أكل عليها الدهر وشرب، وتساقط بعضها، وأنطلق صوته الأجش ليأخذ مني زمام القيادة، لكنه سرعان ما رد لي هذا الزمام.

واصلنا مسيرتنا مخترقين باب الزاوية بطوله، باتجاه سوق العميان، وهو شارع يضج بالمحلات المهنية، ويكثر فيه العمال الذين أعطى التحاقهم بالمسيرة معنى إغلاق المحال والتوقف عن العمل، فبدأ نوع من الإضراب العفوي.

تجمعنا في ساحة البلدية القديمة في أول سوق القزازين، ألقيت بعض الكلمات الحماسية، قاطعناها بهتافاتنا المعدة والمكتوبة، وكلها تدعو للكفاح المسلح، وإطلاق حريةالعمل الفدائي، قفلنا عائدين باتجاه باب الزاوية، حيث تجدد إلقاء الخطابات في ساحتها مقابل مركز الشرطة. ثم واصلنا عائدين إلى المدرسة الثانوية التي توافد إليها الكثيرون من الشخصيات الوطنية في المدينة والقرى.

وصلت الأخبار أن سكان قطاع غزة قد اندفعوا يحركهم التضامن مع مظاهراتنا، وأنهم قد وقفوا على الحد الفاصل باتجاه جبال الخليل، يلوحون بالأيدي ويطلقون الهتافات ويرسلون نسيم محبتهم.

حملت رياح الجنوب دفء الدم الفلسطيني من غزة الشجاعة، أججت هذه الأخبار مشاعرنا، لامست أعماق الحس الفلسطيني وشحنت حماسنا مجدداً، فأرسل المتظاهرون تحية حب لغزة الحبيبة.

بادر البعض بكتابة مطالب الشعب التي تجسد أبرزها في طلب السلاح والتدريب، والسماح لجيش التحرير الفلسطيني أن يأخذ مكانه في أرض فلسطين، تدخلت لإضافة عبارة تطالب بالسماح للعمل الفدائي بحرية الحركة والرد على العدوان، والإنطلاق لتحرير الأرض السليبة، وإطلاق سراح الفدائيين المعتقلين. أضيفت العبارة في جو من الحماس الطلابي وفي مقدمتهم أبناء التنظيم.

لم يكن في ذلك الوقت بين أيدي الناس قطعة سلاح واحدة، وكان مئات الآلاف من الشباب لا يجيدون استخدام أي نوع من السلاح، بل لقد داهمتنا الحرب في العام التالي، ولم يكن مئات الآلاف من رجال وشباب الضفة الغربية قد مسوا بأيديهم أي نوع من أنواع الأسلحة الحربية.

نريد السلاح، ذلك هو مطلبنا الأساسي. لا نريد أن نموت كالأغنام أو أن نجزر كما حدث في قرية السموع، دون قدرة حقيقية على المقاومة.

ذهب وفد من الشخصيات الوطنية إلى محافظ المدينة في مركز العمارة، وسلمناه عريضة بمطالبنا، شاركت في هذا الوفد بصفتي ممثلاً للقوة المحركة في المظاهرة وموقعاً على العريضة. وقف أبو المدينة المناضل الكبير عبد الخالق يغمور يتلو المطالب، بنبرته المتزنة الهادئة الحازمة،

وبصدقه الذي يشع من كل حرف وكلمة. أبو فاروق... يا لهذا الرجل الباسل. عاودنا الكرة في اليوم التالي، ابتداء من المدرسة الثانوية، فلم يكن قد شفي غليل الشعب، ولم تظهر السلطة أية إيجابية أو تجاوب وتعممت الروايات عن تفاصيل العدوان ونتائجه، وتمت مشاهدة آثاره من قبل نطاق أوسع من الناس.

لكننا في هذا اليوم وقبل أن نصل إلى مدرسة إبن رشد اصطدمنا قرب مركز الدفاع المدني بسد من رجال السلطة المستعدين لمواجهتنا، وبدأت معركة بيننا وبينهم، استخدموا فيها العصي والقنابل المسيلة للدموع، واستخدمنا الحجارة.

أنطلقت مدرسة إبن رشد من خلفهم لمساندتنا، فأخذ رجال السلطة يتفرقون، وقد وقعوا بين المطرقة والسندان، وراحوا يطلقون الرصاص فوق رؤوسنا وعلى أقدامنا، أصيب البعض لكن السيل الهادر لملم صفوفه من بين الأزقة، ومن خلف الجدران الحجرية والبنايات القليلة، وأنتصرت المسيرة.

تركز بحث رجال السلطة عني، داهموا بيتنا، وظلوا يداهمونه كل ليلة. كنت أختفي في أعقاب كل مظاهرة ليجدوني في اليوم التالي على رأسها، كنا ننظم إنسحابنا عند نهاية المظاهرة ونختفي حتى جاءت أيام منع التجول بعد أن ركزت السلطة قواتها.

صدر أمر السلطة بحظر التجول مصحوباً بإجراءات إحتلال المدينة وجبالها.

أصبحت الخليل مدينة محتلة، وقد تم إطلاق النار على أكثر من شخص جرت مشاهدتهم في الشارع أثناء الحظر.

نظمنا في ظل منع التجول توزيع المناشير، وكتابة الشعارات على الجدران، داهمني في أحد الأزقة رجال الشرطة، وكنت أصطحب سطل دهان وأكتب الشعارات، هربت في البداية تاركاً السطل، لكنني عدت فوراً وأنتشلته، أطلقوا علي الرصاص، ركضت متلوياً عبر الزقاق، دخلت منطقة القناطر وهم يلاحقونني، وجدت باباً مفتوحاً، وإذا بسيدة خلفه تدعوني للدخول. إنها تعرف أمي، أدخلتني عند زوجها وأولادها وتوجهت بالدعاء عليهم.

كانت إذاعة صوت العرب تذيع أخبارنا، سمعت اسمي عبرها لثلاثة أيام متتالية، تزودت بشحنة كاملة من الشعور بالفخر، جعلتني أواجه الملاحقة اليومية بفرح وزهو.

أستمرت عملية تطويق بيتنا ومداهمته بعد رفع حظر التجول، كنت على إتصال دائم بأمي، بل تكررت أكثر من مرة مراقبتي لهم وهم يداهمون بيتنا، من حقل مقابل في قمة جبل شامخ من جبال الخليل، كنا في ذلك الحين نسكن في أعالي أحد الجبال، ورحت أختفي بملابس الرعاة.

عندما أشتدت مضايقتهم لأمي، قررت بدون تردد أن أسلم نفسي، كان بإمكاني أن أبقى مختفياً، إلا أن أمي في غياب والدي هي التي ستدفع الثمن، الموت أهون عليّ من أن أزيد في إزعاجها وإنهاك أعصابها، سلمت نفسي وواجهت السجن، السجن السابق إياه، لكنه هذه المرة أكثر جدية وأشد روعاً.

تعلمت في السجن دروساً كثيرة، تعرفت على أخوة فدائيين، بدأ خيط جديد بيني وبينهم، ودخل تلمسي للحلم الذي يراودني منذ الصغر في دائرة أرحب.

تبلور الإرهاص الأول في عام 1963، قبل ذلك كنا مجموعة من الطلبة المندفعين في مدرسة الوكالة الإعدادية لأبناء اللاجئين، ألهب أفكارنا وغذاها أحد معلمينا الأوائل وهو الاستاذ غازي حجازي، والذي كان ناصرياً متحمساً للثورة الجزائرية ولتحرير فلسطين، وكان يدرسنا التاريخ، ويسقطه على الواقع ويحول حصصه إلى دروس وطنية لينمي فينا روح التمرد وطموح بعث الأمة وإحراز الاستقلال والحرية، وقد استمر فيما بعد، في المدرسة الثانوية، بأداء هذه المهمة استاذنا المفضل خليل اليطاوي "أبو جمال" وهو ناصري متحمس أيضاً.

تبلورت في المرحلة الإعدادية مجموعة من أربعة طلاب هم محمد الشنطي وأحمد البعم وخليل الحوراني وأنا، حاولنا أن نعبر عن أحلامنا بعمل شيء ما، كتبنا المناشير التي تدعو لتحرير فلسطين بخط اليد، نسخناها على ورق الكربون، ووزعناها في مدرستنا.

قمنا باستطلاعات في القرى الحدودية والجبال الحصينة، قطعنا الجبال والوديان وسرنا المسافات نحمل خناجرنا وأمتعتنا ونبيت الليالي في الخلاء.

ذهبت لأول مرة في ذلك الوقت إلى وادي القف، أتخذنا عند غروب الشمس من سفح مطل عليه موقعاً للمبيت فيه، داهمنا في ظلام وقت العشاء بعض الرجال القرويين الشجعان، وعندما تأكدوا من حقيقتنا أحضروا لنا الفراش والمساند والشاي والطعام، وجاءوا ليقضوا السهرة معنا، ما زلت أتذكر ذلك الرجل المسن، وأعتقد أن أسمه الحاج عودة الفطافطة من قرية ترقوميا، إذ راح يغذي حسنا وحميتنا بقصصه وأحاديثه، وصف لنا الحدود وسمى لنا القرى والأضواء التي تمتد أمام

نظرنا على السفح الغربي والسهول التي تليه في المنطقة المحتلة، أشار إلى الأضواء المنبعثة من بعيد، أضواء الساحل الفلسطيني، راحت هذه الأضواء تدعو أفئدتنا المتعطشة، وظل صوتها يكبر، ويكبر أكثر كلما تمادت بنا المسافات بعيداً عن الوطن.

تطور عمل هذه المجموعات عام 1963، عندما اجتمعنا في بيت أخ آخر التحق بنا هو سيف الدين شحادة، كان بيته أو بالأحرى بيت والده في سفوح جبل العمارة الذي سجنت فيه قبل شهور قليلة، في ذلك الاجتماع وتحت سجن الخليل مباشرة بلورنا فكرتنا وأسمنا، حيث أطلقنا على أنفسنا أسم جبهة التحرير دون أن ندري أن هناك من كان يعمل في نفس الإتجاه، وقد أطلق على نفسه ذات الأسم.

كلفتني المجموعة بوضع الأفكار الأساسية، وأختارتني كي أكون الأول في التنظيم، وعندما وضعت البنود الأولى من ميثاقنا لم أجد أمامي سوى فكرة التحرير، وقد حاولت أن أصبغ عليها ملامح التجارب الجزائرية والكوبية والناصرية، ولكن الفكرة بقيت فكرة التحرر الوطني ذي العمق القومي والطليعة الفلسطينية.

كانت لنا علاقات مع بعض الأحزاب، تمثلت أساساً في بقايا الطلبة البعثيين، ومنهم الشاب المستنير داوود مرار، وغيره من الذين يجمعني وإياهم ذلك الماضي البعثي البعيد المتمثل في بيئتي العائلية السابقة، مع أعضاء من حزب التحرير الإسلامي في المدينة، ومن أكثرهم تأثيراً علينا استاذنا النموذجي محمد حسن قفيشة.

ترك لدي هذا الاستاذ الكثير من المعاني النبيلة ومن اللمسات الفكرية التي ما زالت أحد ينابيع تفكيري، ولكن أولوية تحرير فلسطين

بقيت هي الفكرة التي سيطرت على كل حواسي وهواجسي وقناعاتي وجسدت المسافة الأساسية بيني وبين أستاذي.

عندما تأسست منظمة التحرير الفلسطينية ذهبنا بواسطة أحد أخوال والدي إلى الرمز الوطني الأول في المدينة عبد الخالق يغمور، وتعززت علاقتي مع أحد الشباب الوطنيين المقربين منه من أبناء الحارة في الخليل، وهو الصديق راتب الجنيدي. حاولنا أن نجد ظهيراً وسنداً لفكرتنا.

سبق هذه المحاولة مجيء إبن عمي حلمي من عمان، زودني حلمي بأفكار أكثر قرباً لمنهج الثورة العملي، حدثني عن الثورة المسلحة وعن القتال وعن البداية العملية، وعن الحلم الكبير، والحرية المليئة بالعنفوان.

وجدت أفكار حلمي تشدني أكثر من غيرها لولا تلك الفجوة حول تقييمنا للتجربة الناصرية. وهكذا بدأ مع حلمي ما يمكن أن أسميه أول خيط علاقة لي مع حركة فتح عام 1964.

بقي يشدني في واقع الأمر تنظيمنا الذي توسع وأصبح يضم العشرات من الطلبة من مدرسة إبن رشد، وبقيت تشدني الرغبة في المحافظة عليه وعلى ميولي الناصرية، وهذا ما جعلني احتفظ باتجاهين للعمل.

ذهبت في العام 1965 إلى الجامعة، وبناءً على رغبة حلمي مكثت بعض الوقت في عمان، ووجدت نفسي في دائرته دون أن نحل التنظيم، بالعكس حاولت توسيع نطاقه أثناء وجودي في جامعة دمشق وحتى لدى عودتي من الخليل.

أتذكر أننا أكتشفنا في ذلك العام أو العام الذي يليه مجموعة أخرى من الشباب الوطنيين، جرى اعتقال بعض أفرادها، ويقع تمركزها في منطقة دورا، فسعيت أنسج الخيوط معهم عبر صديقي نبيل محمود يوسف

عمرو الذي كان من ضمن أعضائها.

وما زلت أتذكر تلك الليلة التي بتنا فيها عند محمد اسماعيل عمرو، وهو شقيق الطالب الشهيد جمال عمرو، الذي أستشهد قبل ثلاثة أعوام إبان مظاهرات الوحدة الثلاثية، وناقشنا مسألة الاستيلاء على بعض الأسلحة من مخفر قريب في دورا، فكرة السلاح هي الفكرة التي كانت تراودنا.

بقيت العلاقة في حدود أولية بين مجموعتين ما زال يحكمهما إرهاص البداية، وقد أكتشفت أن كلا منا كان بدرجات مختلفة قد وجد اتصالاً مع حركة فتح.

أنا عن طريق حلمي الذي كنت أواظب على الاتصال به لدى سفري بين دمشق والخليل وهم عن طريق أخ آخر تعرفوا عليه أثناء فترة إعتقالهم.

لدى إعتقالي عام 1966 تعرفت على مجموعة أخرى من بين أفرادها كل من عبد الرحمن أبو شرف (أبو كفاح) وفتحي النتشة، وكانت صلتهم بجبهة التحرير الفلسطينية (أحمد جبريل)، وكان نشاط عبد الرحمن في منطقة العروب، وفتحي في الخليل، نشأت خيوط خاصة بيني وبين فتحي النتشة، ولم نفترق بالرغم من اختلاف انتمائنا، إلا باستشهاده في معركة في الخان الأحمر في أواخر الستينات.

قمت بالتنسيق بعد خروجي مباشرة مع فتحي، وقدمت له المساعدة في بعض المهمات بالرغم من اختلاف آرائنا، فالتنظيم الذي أسسته في مدرسة إبن رشد كان الأوسع نطاقاً في مدينة الخليل، وقد أصبح الكثيرون من أعضائه من الطلبة الأصغر سناً طلاباً في السنة النهائية في مدرسة الحسين بن علي الثانوية.

وباستثناء الشهيد فتحي النتشة، فقد انضوى الجميع من كل تلك المجموعات في النهاية في أطر حركة فتح، وبدأنا نكتشف بعضنا في تلك الأطر، الواحد بعد الآخر.

التقيت باديء ذي بدء في هذه الأطر مع أحد أعضاء مجموعة دورا وهو نبيل عمرو، زميلي في كلية الحقوق، وذلك في بدايات عام 1968، في تنظيم جامعة دمشق، فبعد أن غادرت الأرض المحتلة عام 1967، وقد اتخذنا قراراً جماعياً باندراج جميع أعضاء تنظيمنا في أطر حركة فتح، كانت الجامعة قد حددت موعداً استثنائياً للامتحانات نتيجة للخلل الذي أصاب دوراتها إبان حرب حزيران.

ذهبت بشكل مؤقت لإنجاز وضعي الجامعي، ومكثت لمدة تقل عن شهرين في دمشق، آثرت أثناءها أن أمارس نشاطاً حركياً، فتم تحويلي إلى الأطر التنظيمية للجامعة، وما لبثت أن عدت أدراجي لأكتشف الآخرين من المجموعات الأخرى، ومن رفاقي في سجن الخليل واحداً واحداً، وقد انضموا إلى صفوف الحركة، ومن بينهم أحد أقربائي البطل المقاتل الأسد مأمون إمريش. أصبح مأمون في إطار مجموعتنا منذ عام 1966 وانقطع معه الاتصال لعدة أشهر بسبب وجودي في دمشق، وكان له موقف من بعض الأخوة الآخرين والذين سرعان ما أصبحت علاقتهم بفتح واهية إلى أن انقطعت عملياً فافترقت بنا الطريق. كان مأمون أحد الشباب الذين التقيت بهم في شهر تموز عام 1967 في الخليل، وعندما لحق بنا إلى الأردن كنت أتلقى دورة عسكرية أولية، وأذكر أنني عندما عدت إلى عمان من سوريا وجدت منه رسالة حول إلتحاقه، وعدم صبره على الانتظار. وبذلك لم ألتق به لأكثر من عام،

إذ سبقني في الذهاب إلى الصين، وفور عودته، وقبل أن أراه كنت في طريقي إلى الصين من بعده. وكان آخر اكتشاف لأحد هؤلاء الشباب يوم فوجئت بالأخ عبد الرحمن أبو شرف (أبو كفاح) في أواخر عام 1968 عضواً معنا في تلك الدورة العسكرية إلى الصين الشعبية في إطار قوات العاصفة.

كان عبد الرحمن زميلي في سجن الخليل عام 1966، ذلك السجن الذي واجهت فيه أول امتحان حقيقي لإرادتي، واجهت التعذيب والمحققين، ووضعت لنفسي خطاً أحمر هو عدم الإدلاء بأي إعتراف يدين غيري أو يدينني بغير تهمة التظاهر. واجهت إعترافات الكثيرين الذين حملوني الكثير من المسؤولية معتقدين أنني تمكنت من الفرار، لكنني نجحت ووقفت إلى جانب الرجال الشامخين في سجن الخليل، ياسر عمرو، عبد الكريم الطل، سليمان الفراجين، الخ...، وخرجت في النهاية فخوراً، عبرت الامتحان، وأصبح الرجال الكبار في مدينتي يحترمونني ويستمعون إليّ بانتباه.

كانت مدة السجن أطول هذه المرة، وكان التحقيق جاداً وقاسياً، وسمعت من بعض السجناء عن (الشبح)، لكنه لم يستخدم معي، وصفوه لي، لكنني الآن لدى الكتائبيين أواجه وضعاً جديداً، لعل الأمور مختلفة بعض الشيء.

احتملت الحالة في البداية إلا أنني أخذت أكتشف أنها أكثر إرهاقاً من الأسلوب الذي اتبعوه في الليلة الماضية، أصبح جسمي كله ثقلاً على نقطتين في المفاصل مع الجسد على ساعدي، سرى في طرفيهما النمال، ما هذا الجنون؟! أين أضع رأسي، هل ألقيه بالتناوب في كل اتجاه؟ التعب

يدب بطيئاً في رقبتي. سألت نفسي إلى متى سيستمر هذا العذاب؟ كيف أضع له حداً؟ إنه لا يطاق!.

إندلعت الإشتباكات على خطوط التماس، التي سرعان ما تندلع دائماً، أصبحت الجدران تهتز، ولسعة ألم تدب في أنحاء جسمي، الإرهاق، إرهاق الساعدين والأعصاب، لا أعرف كيف وصل إليّ المسلحون، تهيأ لي أن الوقت عصراً، خلصوني من الحبال، شعرت بآلام وراحة في نفس اللحظة عندما أنزلت ساعدي، وضعوا قيوداً في يدي، ربطوني في زاوية من زوايا الغرفة، تركوني ملقى على أرضها وانصرفوا.

شعرت بداية بالراحة من عناء (الشبح) إلا أنه مع مرور ساعة تقريباً أخذت الآلام تدب في عظامي، جسدي كله أصبح منهكاً، لا استطيع النوم، ووضعيتي التي بمثابة فسحة تنفس أصبحت تؤرقني، وأنا أنتظر المجهول من جديد.

بعد أن رحل الظلام أتاني المجهول، أخذوني إلى غرفة الليلة السابقة، أمروني أن أبقى واقفاً ووجهي إلى الجدار، الإرهاق والتعب يعودان، ولكن طاقتي المعنوية وفيرة، الوقت يمضي والكلل يزداد، دخل أحد المسلحين طلب مني الوقوف على ساق واحدة، عدنا إلى هذه اللعبة الكريهة، هذه المرة لم أصمد طويلاً، أنزلت ساقي، ضربوني من جديد، وقفت على الساق الثانية، سقط الجسد المنهك، داهمتني ركلات الأقدام وأعقاب البنادق، أقسمت في داخلي أنني سوف أصمد للنهاية مهما فعلوا، وأنني سوف أتحدى تعذيبهم بخفقة الفؤاد.

لا أعرف كيف وجدت نفسي في غرفة أخرى، والمسلحون من حولي، والدماء تلوث ملابسي الممزقة، يبدو أنني سمعت بعض الشتائم، لست

متأكداً.

أعادوني إلى الغرفة السابقة، ما ألعن هذه الغرفة وما أثقلها على النفس، لا أريدها، لكنهم قذفوا بي إلى داخلها وتركوني ملقى على الأرض.

أنكمشت على نفسي وحاولت أن أسرق شيئاً من النوم، صاروا يتفقدوني من وقت لآخر ويطلبون مني الجلوس. أفقت على أحدهم يشدني من شعري، يبدو أن الصباح قد حل، وأنني لم أخذ سوى لحظة من النوم.

أمرت بالوقوف واللحاق إلى غرفة ضيقة وخالية في ذات الطابق، حيث طلب مني الانتظار، لم أذق الأكل، لم أذق الشراب، ومع ذلك لا أشعر بالجوع، أشعر أنني مرهق فحسب، وأشعر بأوجاع في جسدي ويكاد يلفني دوار وثقل في رأسي، إلا أن التحدي يبقى هو زاد العزيمة.

عاد المسلحون قرابة الضحى، وأخذوني إلى غرفة التحقيق، وإذا بها ممتلئة بالرجال، أكثر من ستة أشخاص جالسون، يتصدرهم رئيس جديد للتحقيق بينما يجلس السابق بجواره، بعض الأشخاص الآخرين واقفون، عليهم إمارات الاستعداد للجولة القادمة.

- من أية مدينة فلسطينية أنت؟

بدأ رئيس التحقيق بتوجيه سؤاله هذا، لعله أراد أن يوحي بأن فلسطينيتي أمر مسلم لديهم.

- أنا من اليمن...

لم أكد أنطقها حتى شعرت بصاعقة تنهال على وجهي، إنه أحد المشاركين في التحقيق ممن يقفون خلفي، وتظهر عليه قوة بنيته وامتلاء جسمه، صرخ قائلاً:

- عندما يسألك، تجيب إجابة صحيحة، ولا تكذب...

واظب رئيس التحقيق النظر إليّ وقال:

- هل فهمت؟

وقفت أمامه رافع الرأس، عاقد الحاجبين دون جواب، أما هو فقد أعاد سؤاله كمن لا ينتظر رداً على ملاحظته، أعدت جوابي، فوضع قلماً بيده على الطاولة، وتراجع قليلاً إلى الخلف، وراح يلقي عليّ توجيهاته بضرورة الصراحة والتعاون، لأن ذلك أجدى.

تحدث بين الترغيب والتهديد، وانتقل إلى سؤال آخر عن أسمي، وما إذا كان هو الأسم الوارد في جواز السفر أم أن أسم العائلة هو الأسم الفلسطيني.

أكدت له الأسم الوارد في جواز السفر، نظر إليّ بغضب وقال:

- يبدو أنك ستستمر في لعبة الكذب علينا، إننا نعرف أكثر مما تتصور، يجب أن تقول لنا الحقيقة، وإلا فأنك أنت الذي ستخسر.

- هل تريدني أن أكذب عليك؟

- إخرس! أنت تعرف أنك تكذب علينا، أجب عن سؤالي فقط، ما هو أسمك؟

أعدت نطقه كما هو وارد في جواز السفر تماماً.

تقدم نحوي ذلك الرجل الممتلئ، وهوت قبضته فجأة على معدتي، كأن شيئاً تقطع في أحشائي، مرت لحظة قبل أن أتماسك، شعرت فيها

أن صاعقة ما أنقضت على أنفاسي، أستويت من جديد، ضربني على وجهي، بقيت واقفاً، إنهال عليّ مرة ثانية، أصبح هناك آخرون يشاركونه، بدأت سياط تهوي على كتفي وعلى رأسي ورقبتي، قذفوني أرضاً، تابعوا ضربهم لي، صرخوا، شتموا، توعدوا، قالوا أنهم سيعلمونني كيف أنطق بالحقيقة.

توقفوا أخيراً عن ضربي، أمروني بالوقوف وجروني أمام رئيس التحقيق، أعاد عليّ السؤال، فأعدت عليه الجواب.

القوني أرضاً من جديد، خلعوا حذائي، جلدوني على قدمي حتى نزل الدم منهما، ثم غمروهما بماء جارح حاد، لم أشعر بلسعة ألم، لكنه شيء يشبه الشلل طفح في رأسي، لا أدري أية لعنة أنصبت عليّ، كرروا أسئلتهم، كررت إجابتي، تكررت عملية الضرب، وتصاعدت.

تنوعت، تغيرت الأسئلة، تغيرت طرق الضرب، لكن إجابتي بقيت واحدة.

تأكدت أنهم لا يعرفون شيئاً، وأنهم غير قادرين على استنتاج أي شيء.

إزددت عزيمة وقوة، أصبح الضرب لا يخيفني وإزددت مناعة في المواجهة. حقاً ان التحدي هو زاد العزيمة وشاحذ الإرادة.

لم أعد أرتدي سوى البنطلون بينما ملأت بقع من دمي الأرض، وهم مستمرون في اسئلتهم وضغطهم ومحاولتهم إرهابي.

شعرت فجأة بلسعة جمر بين كتفي، اطفأ أحدهم لفافته بجسمي، جاء آخر يحمل لفافة وألصقها بظهري، اقترب الأول من الجالسين وتناول لفافة أحدهم وتقدم باتجاهي يشهرها بين أصابعه ولسعني بها، ثم تناول ولاعة وضغط عليها، وجعل لهبها يصلي كتفي، انكمشت، حاولت

المقاومة والابتعاد، بينما ثلاثة منهم راحوا يثبتونني، إبتعدوا عني أخيراً، وقف رئيس التحقيق وقال:

- اسمع، هل تعترف بالحقيقة أم تموت؟

- الموت، أين هو الموت؟ أريد أن أموت، تعذيبكم أسوأ من الموت.

- حسناً تعال هنا.

وقفت أمام الطاولة وجلس هو بدوره وسألني.

- قل لي قصتك بصراحة وبالتفصيل.

بدأ اليأس والملل يتسربان إليه، بدأ يبحث عن طريق آخر للإيقاع بي، سأعود إلى النقطة الجديدة وأبدأ من جديد.

أعدت عليه قصتي التي رويتها في الاستجواب الأول، قاطعني هو والآخرون بعشران الأسئلة، كنت قد أعددت نفسي لتفاصيل التفاصيل، لا يوجد حرف ذكرته في التحقيق الأول إلا وله مقصد، وحتى الأسماء التي أوردتها طابقتها بأشخاص في الواقع كي أتذكر التفاصيل ولا أقع في أي تناقض، وكي يكون كل شيء واضح التفسير والتبرير.

أستمر التحقيق ساعات طويلة، شعرت أنها طويلة جداً، اشعروني أنهم لم يقتنعوا بشيء مما قلته، وأنني سوف أقول كل شيء في النهاية.

لعلهم ما زالوا يكابرون، لقد قطعت شوطاً كبيراً.

بعد الانتهاء مني أمر رئيس التحقيق بإعادتي إلى الزنزانة، وما أن وجدت نفسي بداخلها حتى تنفست الصعداء.

غفلت بعض الشيء عن آلامي وحروقي، إلا أنها سرعان ما عاودتني، الجو في الزنزانة باردٌ جداً، وضعت قميصي الممزق على كتفي محاذراً حروقي التي صارت تؤلمني ولا تتحمل أية حركة.

جاء أحدهم بعد حوالي الساعة، فتح باب الزنزانة، أخبرته أنني أشعر بالبرد والجوع، نصحني بقول الحقيقة، وأنني بذلك سوف أنجو، وأن هناك عمليات تبادل أسرى، ثم سمح لي بالذهاب إلى المرحاض وإحضار قليل من الماء.

سرت على قدميْ إلى المرحاض، ما أكرب الطريق، وخز إبر وأشواك مسننة وثقل وضغط في قدمي، سرت كأنني فوق مسامير حقيقية محاولاً الإتكاء على الحواف السليمة من قدمي.

قادني في العودة نحو غرفة مقابلة، إنتقيت منها غطاءً بالياً من بين مجموعة أغطية ملوثة بآثار الدماء، أخذت الغطاء معي، ثم قدم لي رغيفاً من لحم السلامي، وأغلق الباب عليّ ومضى.

خلوت إلى نفسي، وصرت حائراً بين أمور متضاربة، رغبتي في النوم والراحة، آلامي وحروقي، التعب والإنهاك، الأرق، أفكاري التي طفقت تستعيد الماضي وتجلو الذاكرة، وتذهب بعيداً بعيداً.

آه أيها الإنسان، أنت القسوة والرقة، أنت الجبروت والضعف، إن كل حياتك نضال، وأنت تسير من نضال إلى نضال، تحسم صراعاً لتواجه آخر، لا تنتهي أمامك مشاكل الحياة، ولا يفرغ رأسك من هموم رسالتك كفرد في الحياة أن تعبر محطات نضالك الواحدة تلو الأخرى، ورسالتك كمجتمع في إطار التاريخ أن تعبر محطات أخرى أكبر وأهم.

ما الذي يسير هذا الإنسان؟ ما الذي يدفعه إلى هذه الحركة الدائبة وهذا

الفعل؟ ما الذي يجعله بكل هذه القسوة وكل هذا الضعف؟ ما الذي يجعله يراكم ويتقدم يصارع وينتصر أو يهزم؟

ذهبت بي أفكاري إلى نظريات تفسير التاريخ والحياة، وجدت فيها استغراقاً يبعدني عن آلامي، ووجدت في تلك الآلام حافزاً لتأملاتي، رحت استعرض وسط ركام الذاكرة ما قرأته أو استلهمته، باحثاً عن المحرك لكل هذا الخضم وصانع بواعثه وحوافزه.

تؤكد المادية التاريخية أن الصراع الطبقي هو محرك التاريخ، وأن مجمل التاريخ البشري في مراحله التاريخية الاجتماعية الخمس هو عبارة عن صراع الطبقات المستغلة ضد مستغليها.

وتأخذ النظريات المثالية المنحى الآخر يختلف جذرياً، ويفسر التاريخ بمجمل عوامل أحدها العامل الاقتصادي.

وتعتبر بعض النظريات أن الجنس هو الحافز الإنساني، ويرى غيرها أن الصراع على السلطة وغريزتها هي التي تصنع التاريخ وتؤدي إلى تحولاته، هي التي تستثمر الحوافز والدوافع والغرائز والحاجات.

أما الفيلسوف والمؤرخ ارنولد توينبي فقد أوجد نظرية التحدي والاستجابة، ووضع لنفسه قاعدة فهم جانباً من التاريخ على أساسها، وقد أكد أنه (توجد تحديات على جانب من الخطورة إلا أنها مفيدة تحدو بالباعث الإنساني إلى أن يمتحن نفسه برد مبدع، ولكن توجد أيضاً تحديات لا تقهر إلى حد أن الضحية الإنسانية لا تستطيع أن تتلافى السقوط، ونموذج التحدي الأكثر تحريضاً يوجد في الوسط تماماً بين عدم الكفاية والإفراط في الخطورة).

قدمت معظم المذاهب الإنسانية تفسيرها، وتركزت المفاهيم الدينية في

نقطتين الأولى: هي إرادة الله، والثانية، هي الصراع بين الخير والشر، الأخيار الذين ينفذون تعاليم الدين، والأشرار الذين يخالفونها أو لا يعتقدون بها.

يبدو أن الظروف المحيطة بكل تفسير بالنسبة للمذاهب غير الدينية هي التي تساهم في الاهتداء إليه. وأنه من الممكن للإنسان أن يضع تصورات ومفاهيم أخرى في ظروف تاريخية عالمية أخرى. وقد تكون هناك مستجدات في ضوء ظروف الحياة ذاتها.

قدم التاريخ النماذج لصالح الإنسان ضد الطبيعة وصراع الإنسان ضد الإنسان، وللصراع داخل النفس البشرية، ومن ضمنه الصراع بين الخير والشر أو الرغبة والضمير أو العقل والغريزة. وبقيت الأهداف الكبرى للإنسان كمجموعة واحدة تبلورت في مطالب الحرية والمساواة والعدالة والسلام والتقدم، وهي الأهداف الأربعة الأكثر شمولية وسمواً من بين جميع الأهداف التي عرفها الصراع البشري في التاريخ.

كيف يأتي الإنسان إلى الحياة؟ ويسير في مدار يحكمه الجوهر الكامن في طبائع الأشياء؟

لا بد أن هناك حوافز عميقة للجماعات إلى جانب الحوافز العميقة للأفراد، وأن تلك الحوافز تكمن في الطبيعة البشرية ذاتها، وتجسد مجموع الغرائز والحاجات والتطلعات جزءاً هاماً من كنهها.

قدر الإنسان أن يبقى في النضال، النضال الدائم، إن النضال خالد خلود الحياة، تلك هي مسيرة البشرية، بدأت بالنضال وتتواصل بالنضال، ويظل يتقد الأوار البشري دون نهاية منظورة أو بداية محددة، ولكنها المسيرة نحو ما يحقق الحياة الأصلح عبر الحقب الكبرى لتاريخ كفاح

الإنسان، مسيرة شاقة ومريرة، ومظفرة ومعذبة، ومليئة مليئة بالآلام.

نأتي فيأخذنا الغمار من الغمار
نأتي ويسرقنا الإياب
نقارع الأيام، ينثرنا الكتاب
من الظلام إلى بياض النافذة
ومن الهشيم إلى اكتمال السنبلة
ولقد نعود من الضياع إلى الظلام
ولقد نعود العودة المتكررة
نمشي على فلك المدار
الدرب ملآى والمنال يميد
والصوت كان هنا يبدده الهباء
ويصير في ملكوت جرف فارغ
ليل ليعبره النهار
اللانهاية في الغياب وفي الصعود
اللانهاية في السديم السرمدي
نجم يوزع حنطة للسائرين
ويد تبعثر حزنهم
وتبعثر الأشياء في نهر التحرك والإرادة

وتبرعم الإحساس من بدء الولادة
وتسير في وسط اللجيب وفي الحطام
في اللجة الهوجاء أرتال البشر
جيلاً فجيل
غرباء في الذكرى وفي تعب الرحيل
ويدور دولاب القدر
ويدور دولاب الصراع، يدور منذ الخلق محتدماً مرير

***

والشمس قد تخفي التواطؤ بين ماء البحر والمدن الغريقة
ونوازل الطوفان والبركان والزلزال -
من فجر البداية والحقيقة
ويروض الآتون بيئتهم لكي نرث الشراع
هذا المعاند للرياح يقاوم الصحراء في وهج الشعاع
إصرار قرش البحر والشيخ -
الذي عجمته خبرات السنين الغابرة
جوع الوحوش الكاسرة
في الهند نمر كان (بجوان) الآله
ويعود اوذيسيوس إلى بنلوب من يأس الحياة

ويعود ركن الذاكرة
حجر ونار كي يسير ويحتمي
حجر ونار
بحر ليكتشف البلاد ويقتفي أثر الفنار
والموج يبعث لإبن ماجد صورة الحلم الوليد
فيغيب في عمق المحيط يعيد ترتيب الخريطة من جديد
بطريق ماجلان زاد للمياه القاحلة
بطريق ماجلان يرسم للمغامر صورة الأرض القديمة
فيغوص في عمق البحار مجمعاً صدف الوليمة
ومجمعاً صدف المحار

***

تتنازع الأرتال في اللج الكبير
للمجد والسلطان والمال الوفير
يتواتر الفقراء في الطرق المريعة
للعدل والقوت القليل، ولإتقاء الموت جوعاً
سر من سبرتاكوس الثوري في روما الحزينة
أعطى إلى الحبشي صوتاً يرفع الآذان في ليل المدينة
روحاً للومومبا وقد وهب الحقيقة والخيار

قابيل والإنسان تقتله الطبائع والجنون
حقب من التاريخ تمضي أو تكون
روح الخصوبة تشتهي ما تبذرون

* * *

تتصارع الأفكار والنزعات والإحساس -
في الذات المريدة والقناعة
العقل والطبع الغريزي اللهوب
يتصارع الإنسان في الإنسان في وهج التوحد والبراعة
سقراط قد شق الطريق ونال أمنية الفضيلة
في عالم يزدان حتى بالرذيلة
بالآثمين
ويضيء مصباحاً ديوجين الحكيم

* * *

ويظل يتقد الأوار
بسواعد العمل الدؤوب
بالعقل والوجدان والنفس الشجاعة

***

من روض الخيل الجموح
من يرسم الطيف الجميل
من يفرز الألوان من وهج الضياء
ويرصع الأحلام بالقمر المنير
ويقلد الميعاد أوسمة الوضوح
ويضيء جمراً واعداً
يرث المراكب والنخيل

***

أفق لمن في الفجر قد وطأ السفوح
أفق لتتسع الأماني
وعد وينفرج الغمام
عبثاً وجدوى كلما اقتربت سفوح الوعد، تتسع المسافة
كي نغذ السير في الأيام، يتعبنا المرام
ويظل يأخذنا الأمام
ويظل يأخذنا الأمام

***

أفقت في وقت يبدو فيه أن الظلام خارج الزنزانة قد انقشع قليلاً، إننا نقترب من صباح اليوم التالي، أو بالأحرى إننا في صباحه المبكر، آلام جسدي مضنية، والحروق لاسعة، لم أكن أشعر ليلة أمس بهذا القدر من الآلام، إن جسدي يتشقق، ولكنني نمت جيداً على ما يبدو، شعرت في بعض المرات أثناء تقلبي بعضة الألم، لكن النوم كان يغلبني، ويذهب بي بعيداً إلى هذا الجانب الساكن من الحياة، لن أنام الآن مرة أخرى بسبب آلامي وهواجسي.

هذا هو اليوم الرابع بعيداً عن رفاقي، لا أدري ماذا حل بهم، وهم لا يدرون ماذا حل بي! هؤلاء الفتيان رفاقي، أنهم شجعان ولكنهم صغاراً، جاءوا يحلمون بوطن يعيشون فيه ويصون كرامتهم، حقاً الوطن والكرامة هما حلم الفلسطينيين.

حدثني ذات مرة أحد أصدقائي من الطليعيين الفلسطينيين عن تجربته أثناء عمله في مرحلة من مراحل حياته، كضابط جمرك حدودي، إذ اكتشف عبر تلك التجربة الفوارق السلوكية والحسية بين الأنماط المختلفة من عابري الحدود بين بلدين عربيين، الفوارق بين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين الخ...

يتميز الفلسطيني بالحساسية والرهبة من الحدود والشعور بعدم الأمان وكبرياء الكرامة، ويظهر ذلك واضحاً في سلوكه حيال أية معضلة أو مشكلة صغيرة يصادفها حول جواز سفره أو أمتعته أو حقه في المرور.

عانى الفلسطينيون الحرمان من الوطن بكل ما تركته هذه المعاناة من أثر على تكوينهم النفسي، وبكل ما يعنيه ذلك الحرمان من تشرد وفقر وضياع وإنعدام حقوق.

قسوة وتعقيدات على كل حدود، وفي كل مطار، وعند طلب أية تاشيرة دخول، ولدى التقدم للعمل أو البحث عن الدراسة، ليس لديهم كيان يحميهم بمبدأ المعاملة بالمثل أو بالإحساس ببر أمان يلوذون إليه.

أما المشاركة في الحياة السياسية فلم يكن يتاح لهم في ميدانها إلا أن يكونوا أداة للأخرين، بيدقاً في خططهم، ورقة تلقى على طاولة مساوماتهم، أو يمنعون من التعبير عن أنفسهم تحت طائلة الملاحقة والعقاب...

غمسوا خبز زعاماتهم بجراحنا! شعارات قومية وأخرى قطرية، وكلها تستخدم اسم فلسطين، ونكبة فلسطين، ولا أحد يقدم شيئاً يتحدى به المعادلات من أجل فلسطين.

أصبح ممنوعاً على الفلسطينيين أن يستخدموا اسم فلسطين، كل ما يجسد هذا الأسم ممنوع، ناد رياضي بإسم فلسطين ممنوع، الشخصية الوطنية الفلسطينية تطمس بينما تنمو وتترعرع كل الإقليميات، على الرغم من أن نمو الشخصية الوطنية الفلسطينية هو النمو القومي الوحيد من بين جميع القطريات العربية، إنها الوحيدة التي تنمو دون أن تنمو معها الحدود، بل أنها الوحيدة التي تنسف قلاع الحدود المشيدة، وهي فوق ذلك أداة نفي الكينونة الصهيونية، وصيغة النضال ضدها.

تعطش الفلسطينيون لشخصيتهم الوطنية ليس كرد فعل، وإنما كصيغة مواجهة حتمية، وكان هذا العطش قومياً بكل جوهره وحقيقته، ذلك أن أحداً من الفلسطينيين لم يفكر لحظة أن بالإمكان تحرير فلسطين بمعزل عن الأمة ودوائرها.

الفلسطينيون عروبيون حتى النخاع الشوكي، وهم يعتزون بهذه الخاصية التي تتغلغل جذورها في دمائهم وأحلامهم.

برزت في نفوس الفلسطينيين عقدة من خذلان أكثر الأنظمة وتواطئها، أحسوا بالأصابع التي تلعب في الخفاء ومن وراء ستار من الصهيونية والاستعمار.

العالم من جانبه سد آذانه، تعامل معهم كلاجئين يستحقون الصدقة ليس إلا، ووصل الأمر حد إنكار وجودهم في كثير من أطراف العالم وأمصاره.

اتجهوا صوب التعليم لأنهم أدركوا قيمته في معركة الحياة، وانخرطوا في القوى السياسية الناهضة، التي ترفع شعارات التحرر ومعاداة الاستعمار والصهيونية، وتزرع الأحلام والأماني، وأصبحوا عاملاً فعالاً في مجال العلم والسياسة على المستوى القومي.

ومع ذلك بقي الفلسطيني يشعر أنه على بساط الريح، لذلك آمن الفلسطينيون بالوطن والكرامة، أنهما خبزهم ودمهم وحياتهم، طينة الفلسطينيين معجونة بعصارة الكرامة.

الكرامة وهج في دمائهم، ومن حظهم أن نهوضهم الفدائي بدأ في معركة الكرامة، حس الكرامة حس محرك في نفوسهم، وهو غالباً سر الغضب وسر الرضى. أصبحت الشخصية الوطنية الفلسطينية بوتقة التطلع للحياة والأمل والحرية، لكنها لم تكن أبداً بديلاً للتطلع القومي أو الإيمان بالأمة، وأصبحت البندقية هي حلم الخلاص في مواجهة أغلال المحيط التي طوقت الإرادة وأصابت الكرامة.

هؤلاء الفتيان ولدوا ونشأوا في خضم هذه النفسية للجيل الذي سبقهم، وقد جاءوا يحلمون ويتطلعون إلى حياة ليست كالحياة المعذبة التي عاشوها في طفولتهم.

إنهم الآن رفاقي في الأسر، وهم مثل العصافير الصغيرة التي تطير عكس الريح، لكن أجنحتهم الفتية يصلبها التحدي كما صلب أجنحة من سبقوهم.

قررت أن أرسل لرفاقي في الأسر تحية هذا الصباح، يطمئنون بواسطتها إلى أنني ما زلت موجوداً، ووسيلتي الوحيدة أن أسمعهم صوتي. بأية حجة ولأي سبب سأجعلهم يسمعون صوتي، عليّ أن أنتظر ريثما ينهضون فربما يكونون نياماً.

صبرت حتى حان وقت قدرت أنه مناسب، وبدأت أنادي بأعلى صوتي ليتأكد وجودي، بذريعة حاجتي للخروج، يتواجد رفاقي في الطابق الأدنى، والصدى مسموع في كل البناء، وصوتي مرتفع يطرق الأسماع، وصلتهم رسالتي كما علمت منهن فيما بعد، وفهموا قصدي منها.

جاءني الشخص نفسه الذي مر بالأمس، وهو شاب تبدو عليه إمارات التهذيب والتعليم، يرتدي نظارات طبية ويحمل بندقية من نوع ناتو، لعله من أبناء تنظيم حزب الكتائب، وقد حرص أن يبقى بعيداً عني بالرغم من القيود التي في يدي.

سألني عما أريد، فأخبرته بحاجتي أن أذهب إلى المغسلة كي أشرب وأغسل وجهي، وأنني أشعر بآلام من الحروق التي في ظهري، سمح لي بالذهاب إلى المغسلة. قدماي ما زال السير عليهما معذباً، وعندما عدت إلى الزنزانة أكدّ لي قبل أن يمضي أنه سوف يحضر طعاماً.

أحضر الطعام بعد حوالي ساعة، وأحضر معه شخصاً آخر يحمل بعض مواد الإسعاف ومسح لي مكان الحروق بالدواء والقطن.

بقيت في الزنزانة، كان يوماً هادئاً، ليس فيه قصف ولا قذائف ولا

أصوات الرشاشات، ولم يكن هناك تحقيق أو ضرب باستثناء بعض الإزعاجات القليلة من أحد الحراس مساء، وقد نمت بعدها متقلباً على أوجاعي حتى صباح اليوم التالي.

***

بدأ التحقيق معي هادئاً، أخذ رئيس التحقيق يسألني حول مضمون إفادتي السابقة، ثم انتقل ليسألني عمن أعرف من الفلسطينيين، ذكرت له بعض الأسماء المعروفة، شارك معه الآخرون في ذكر أسماء يسألونني عنها، فرحت أميز بين الأشخاص الذين يمكن أن يعرفهم الإنسان العادي لأعطي رداً إيجابياً، وبين الذين لا يمكن أن يعرفهم إلا صاحب شأن لأنكر معرفتي بهم.

تفتحت قرائحهم عن عشرات الأسئلة حول اليمن ونظامها وعلمها وبعض العادات، سألوني عن القات وكيفية استخدامه.

لحسن الحظ أنني كنت قد زرت عدن واطلعت على ملامحها العامة، أمدتني تلك الزيارة بالمعلومات الأولية المطلوبة والتي كانت كافية لمدى اسئلتهم ومعلوماتهم.

سألوني عن دمشق، وبعض الأماكن والمحلات فيها. طلبوا مني أن الفظ كلمة بندورة، لفظتها غير فلسطينية كما استفدت من الملاحظة حولها في المركب، ثم سألوني عن طريقة طهي "الملوخية" فوصفت لهم الطريقة الشامية، سألوني عن قطع السيارات فأوردت لهم التسميات المستخدمة في دمشق.

ركزوا في الأسئلة على منهاج كلية الحقوق ومواده في كل عام وأسماء الأساتذة وأوصاف بعضهم، يبدو أن أحدهم حقوقي ويعرف بعض

الأسماء والمنهاج، كان الأمر سهلاً عليّ، وقد أقنعتهم إحاطتي بهذا الجانب بصحة إدعائي حوله.

تفننوا في أسئلتهم، وذهبوا في كل الاتجاهات، كنت مرتاحاً فقد استدرجتهم لمنطقي، وهم يفكرون الآن في الدائرة التي أريدها.

أنهم لا يعرفون شيئاً ولم يكتشفوا أي شيء. بالتأكيد لو أن لديهم عميلاً واحداً مطلعاً في منطقتنا ويعمل بطريقة منظمة لتمكنوا من إكتشاف أمري. لكن الواضح أنهم غير متأكدين من أي شيء.

خطر لهم أن يسألوا عن أسماء شخصيات لبنانية، فاتبعت طريقتي السابقة في التمييز بين من يمكن أن يعرفه الإنسان العادي وبين من لا يعرفه سوى صاحب الشأن.

انتقلوا للسؤال عن الجنوب، وعن مدينة صيدا ثم عن طرابلس، وركزوا الأسئلة الكثيرة والمتلاحقة بقصد أن يتبينوا إن كنت قد عشت في لبنان.

صيدا، يا لصيدا، مررت عبرها كثيراً بينما كنت أعمل في القطاع الأوسط، كان مقر قيادتنا في مخيم البرج الشمالي قرب صور، وكانت وحدات وقواعد قطاعنا تمتد في مناطق جوية، صديقين، وحتى الطيرة والحرش وأرشاف وغيرها، أمضيت فيها مع بلال، ونور، وجلال وأبو الفتح، وغيرهم فترة مليئة بالاندفاع والحماس، وجبت قواعدها قاعدة قاعدة، وتعرفت على الجنوبيين في لبنان، فيهم كل دفء وإخلاص الجنوب، وتوقه للحرية، في جنوب لبنان يجد المرء كثافة لا تتكرر من الشهامة والعطاء والمحبة والصفاء.

يا لهذا الجنوب، لن أنسى تلك المناظرات الفكرية والأدبية مع العقول النيرة واللامعة السيد هاني فحص، والسيد محمد حسن الأمين وغيرهم.

هناك بدأت في نسج نوبات الامتداد التنظيمي اللبناني للحركة، وهناك حاولت أن أحصد في حقل العلاقات مع جماهير الجنوبيين ما زرعه من كل قبلي وأن أزرع ما سيحصده من يجيء بعدي.

جواد، صخر، بلال، نور، مطيع ابو الليل[1]*، وغيرهم سبقوني وزرعوا بكل إخلاص ونبض الفؤاد، وقد جئت من بعدهم للحصاد فبلورت المسار وحسمت أمر الامتداد التنظيمي للحركة بين هؤلاء الجنوبيين.

وكذلك في طرابلس، فقد توليت إبان أزمة أيار في مطلع السبعينات العمل في قيادتها، وتسلمت قيادة منطقة الضنية، تسلقت جبالها، واتخذت مراكز سرية في بلدة "سير" ووصلت حتى جرود الهرمل، وتعرفت على الكثيرين من أهلها، قلوبهم معنا وسيوفهم معنا ولهم مميزاتهم الخاصة، وقد كان تضافرهم وثيقاً، كانوا شركاء في الدم والمعركة، حققنا الكثير من الانتصارات، وقابلنا زغرتا، وأقمنا على مرمى النظر منها في مرياطة مركزاً لنا فيه بعض البيوت وبعض النقاط.

أخفيت كل هذه المعرفة، طويتها خلف ستار من الكتمان الحصين، بدأت أعصابهم تهتز، صاروا يسألونني بنزق في البداية، ثم تزايد نزقهم، أخرج الرجل المليء مسدسه وراح يضرب بكعبه رأسي ضربات محسوبة في البداية، توالت ضرباته، ثم أمسكوا رأسي وبدأوا يضربونه بالجدار، ركزوا على هذا الرأس، هوت صخرة من جبل عال عليها، وعندما أفقت وجدت نفسي في زنزانتي.

تحسست رأسي وجدت أثر الضربة والجرح وشعري المخضب بالدم،

---

١ جواد، بلال، نور استشهدوا في مواقع ومعارك مختلفة فيما بعد.*

ما هو ذلك الشيء الذي هوى كصخرة من جبل عال! الظلام قد حل ما هو الوقت الآن؟

آثار حلم باهت تمر على خيالي كأنهم حملوني وجرجروني وشدوني من تحت ابطي.

أخذ وعيي يصفو شيئاً فشيئاً، تذكرت أسئلتهم، ركزوا على صيدا كثيراً، وسألوا عن شوارع مررت بها، وعن أسماء لأماكن وساحات معروفة، أرادوا أن يعرفوا ما إذا كنت أعمل أو عملت في لبنان؟

زادني ذلك يقينا بعدم توفر أية معلومات لديهم على الاطلاق! وفي الحقيقة فأنا لم أعش في لبنان طويلاً. اقتصرت خدمتي في طرابلس على فترة الأزمة، وحتى القطاع الأوسط في الجنوب، خدمت فيه عدة شهور فقط، أما المرة الأولى التي دخلت فيها الأراضي اللبنانية، فقد كانت في عام 1969، كنت وقتها مفوضاً سياسياً لقطاع "201"، الذي كان يتمركز في منطقتين في الأردن: أحراش جرش ، ويقع مركز قيادتها الميدانية في منطقة "دبين"، والوحدة الأمامية في الأغوار من قرية "الصوالحة" حتى حدود القطاع الشمالي قريباً من وادي اليابس.

كانت قواعد الوحدة الأمامية تنتشر في بطون التلال، في مواقع أجيد إختيارها وتمويهها، وكانت كل قاعدة تتألف من عشرات الفدائيين، بعضهم من المثقفين ومن طلاب الجامعات الذين تركوا دراستهم.

صدرت الأوامر لنا في أزمة 1969 بالتحرك ضمن قوة قوامها وحدتين من القطاع (وهو ما يوازي سريتين في الجيوش النظامية تقريباً)، وإبقاء عناصر حراسة للمواقع إضافة للوحدة الخلفية ومقرات القيادات.

تحركت قوتنا وعلى رأسها قائد القطاع، وأصبحت مساعداً له في تلك

القوة، إجتزنا الحدود الأردنية إلى سوريا، نظمنا رتل مسيرنا، توقفنا في وادي ميسلون، حيث يتذكر المرء الشهيد السوري البطل يوسف العظمة والمعركة التي شهدتها أطراف ذلك الوادي، وبقيت رمزاً بطولياً لمقاومة الاحتلال الأجنبي، ثم اتجهنا يساراً إلى منطقة (دير العشاير)، منطقة الحدود الجبلية بين سوريا ولبنان.

أتخذنا مواقعنا في مرتفعات (كفر قوق) وخضنا في اليوم التالي مباشرة معركة كفر قوق، كان موقفنا القتالي مشرفاً، وارتفعت معنويات الرجال، استشعر قائد قطاعنا بالمرض ولكنه بقي مرابطاً في أرض المعركة، ولما اشتدت عليه الحرارة والمرض حرصنا على الزامه بالبقاء في منطقة (المزرعة) ، وبذلك أصبحت قائداً للقوة وأصبح إتصالي مع قائد الحملة مباشرة.

قرر القائد في أتون المعركة وزخم القذائف الرد بقصف قلعة (راشيا الوادي)، حيث كانت تتمركز قوة من الجيش اللبناني قامت بقصف مواقعنا، وكانت الجهة المكلفة بالتنفيذ هي وحدة الصواريخ وعلى رأسها أحد ضباط قطاعنا، أبو خالد هاشم أبو حليوة، من أفضل وأشجع مقاتلينا، سبق وترافقت معه في دورية إلى منطقة التركمانية في الأغوار، لا زلت أتذكر تلك الدورية وبعض أفرادها الشجعان وفي مقدمتهم الكادر المعطاء طارق محمود. أعترضت على قرار القصف لاسباب معنوية وعسكرية شرحتها، وفضلت عملاً عسكرياً مباشراً، وعدني القائد بثقة راسخة أن يدرس إعتراضي فوراً، طلبت من (أبو خالد) أن يتريث، لأن قائد الحملة يدرس القرار، مضى الوقت ولم تعد هناك حاجة لإفراغ صواريخنا وخسارة الجماهير.

التزمت مع قوتي بموقعنا المتقدم، حل المساء، جاءت بعض عناصر قوتنا تخبرني بأن ثمة انسحاب يقع، وأن بعض وحدات الجوار تنفذ أمراً يقولون أنه شامل بالانسحاب. لم أبلغ بمثل هذا الأمر، خرجت إلى الطريق الترابي وجدت قواتاً منسحبة فعلاً. سألت عمن أصدر الأمر، أنه قائد الحملة.

استفسرت عن مكانه، إذ أردت محادثته مباشرة، فهو ميداني شجاع وعقل عسكري لامع، وجدته في قرية (المزرعة)، كلفت أحد الأخوة أن يحل مكاني لساعة واحدة، وأمرت بعدم سحب مقاتل واحد من قوتنا، فنحن لم نبلغ بأمر الإنسحاب وفقاً للأصول العسكرية، ولما وصلت المزرعة السورية وجدت القائد العام ومعه قائد الحملة وبعض الأخوة المسؤولين، قلت للأخ القائد العام:

- هناك أمر بالإنسحاب.

- أعرف.

- لماذا ننسحب؟! إننا في موقع قوة، ولو أخلينا هذه التلال لأصبحنا خارج الأراضي اللبنانية، وسيكون موقفنا ضعيفاً جداً.

سألني القائد العام بصوت دافيء ومؤثر وبنبرة هادئة ومرتاحة:

- هل تستطيع أن تحافظ على هذه التلال؟.

- نعم!.

- أعطني فقط ثماني وأربعين ساعة عليها.

نادى أحد الحاضرين قريباً منا، عرفت فيما بعد أن أسمه حسين الهيبي، وأمره أن يضع نفسه ومقاتليه بأمرتي، قبلني وقال: على بركة الله ...
لاحظت بريق الأمل في عينيه، ذهبت إلى موقعي، تمترست في تلك التلال الصخرية الحادة، التي تزيد من مضاعفات نتائج القصف والقذائف، واجهنا الزخم المكثف للتمهيد المدفعي وأفشلنا محاولات الهجوم، ولم أعد أذكر بالضبط كم مضى من الثماني والأربعين ساعة أو أكثر منها، عندما سمعت نبأ توقيع اتفاق القاهرة، وأن الأخ القائد العام هو الذي وقّعه بنفسه، فهمت في تلك اللحظة لماذا طلب هذه المدة بالتحديد.
التقيت به بعدها في أحراش (دبين)، جاء للإلتقاء بالمقاتلين، قال أمامهم أنني كنت بطل المعركة، شعرت في تلك اللحظة المليئة بالفخر أن كلمته وسام على صدري، أضاء قلبي، ما أجمل أن يضاء الفؤاد بالمجد.
جرفتني الذاكرة إلى أيام قطاع "201" أيام المجد والتألق، أيام قواعدنا المنتشرة ما بين الأحراش في جبال جرش، وغور الاردن، كنا نبني قواتنا الثورية الفتية، وكان العمل السياسي في القوات مرشد هذا البناء وأساسه، وكنا نقوم بالانطلاق عبر نهر الأردن لتنفيذ العمليات ضد قوات الاحتلال، كان نهر عاتي الجريان، يمتلىء بالحوامات المائية، وكثيراً ما فقدنا أخوة لنا فيه، كنا نعبره بواسطة الحبال والدواليب المطاطلية، ونستخدم أصوات الضفادع، وندهن أحياناً جلودنا بأدوية ضد البعوض، وخاصة عند دوريات الـ "405" وهي دوريات للكمون والمراقبة والاستطلاع لمدة ثمان وأربعين ساعة غرب النهر وبمحاذاته.
كانت أمامنا مواقع القوات المعادية في (الجنيدية) و(التركمانية) وبيارة

(أبي هاشم) و(الخطيب)، ومنطقة أم سدرة وغيرها من المواقع التي نقوم بالتسلل إليها وضربها، واصطياد الكمائن والدوريات المعادية على نواحيها.

طالما أعقب عملياتنا قصف شديد من قبل قوات الاحتلال، أصبح من المعتاد أن يقوم طيران العدو بقصف قواعدنا وقذفها بالحمم المتفجرة، وبرصاص مدافعه الرشاشة بينما نحن في أوار وزخم حربنا نمارس القتال، وبناء القوات النموذج الجديد وحماية أنفسنا، وإقامة الصلات الوثيقة مع الجماهير، أيام المجد تلك لا تنسى!.

كنا نقطع من أجل القيام بدورياتنا السدود المتتالية، ونواجه العوائق المتعاقبة، علينا في البداية أن ننفذ من خلال قوات الحجاب الأردنية، وفي فترة لاحقة أصبح هذا الأمر سهلاً، نظراً لتعاون أفراد هذه القوات معنا، ثم نواجه عائق نهر الأردن، وخاصة في مواسم ارتفاع منسوب مياهه، ثم حقول الألغام والأسلاك، فالكمائن المعادية، وبعدها نواجه الهدف نفسه وتطورات الاشتباك، ونقفل عائدين عبر كل هذه العوائق من جديد تحت القصف ووابل الرصاص.

خسرنا الكثيرين في النهر، وحقول الألغام، ومناطق الكمائن وتحت القصف، كان شريان دمنا مفتوحاً وفائضاً مع ذلك فقد كانت تلك بالذات هي أيام المجد والتألق.

امتدت قواعدنا على طول خطوط المواجهة باستثناء منطقة العقبة وتواصلت عبر الحدود السورية في حوران وجبل العرب وفي مقابل هضبة الجولان، وفي الواقع فقد انتشرنا من سوريا، ووصلنا حتى حاصبيا والهبارية وكفر شوبا في جنوب شرق لبنان، وتمكنا فيما بعد من

الامتداد إلى المتوسط شمال الناقورة.

بمحاذاة قطاع "201" جنوباً انتشرت قواعد القطاع الأوسط في الواجهة المقابلة لنهر الاردن وصولاً إلى البحر الميت، صعوداً إلى منطقة الجبال حتى مدينة (السلط) شرقاً.

كانت هذه القواعد جميعها مليئة بالرجال ممن تركوا جامعاتهم وأعمالهم وذويهم والتحقوا مسترخصين الأرواح يشدهم نداء الوطن، قاعدة القدس، قاعدة الشهيد أبو الروس، قاعدة الشهيد الفسفوري، وعلى المنبسط جنوباً "عصافير الفجر"[2]* في القاعدة 49 قاعدة الرصد العسكري، وغيرها وغيرها.

أصبحت مرة على وشك أن أتلقى عقوبة لأنني رافقت عناصر هذه القاعدة الأخيرة في دورية كانت مشتركة بينهم وبين عناصر من القطاع الأوسط عبر نهر الأردن، حيث هاجمنا موقعاً معادياً في منطقة الطمونية، فقد تركت بعض المهام الإدارية –كنت آنذاك ضابط الإدارة في مقر القيادة العامة لقوات العاصفة– عدت بعد أن أدينا مهمتنا بظفر وشجاعة مبللاً بماء النهر المقدس، لأجد أمراً باصطحابي إلى عمان. ركبت سيارة اللاندروفر، شعرت بالبرد الشديد، الجزء الأكبر من ملابسي، البوط الجيتر، جميعها مبللة وفوقها برد الصباح. مرضت بعدها، لم آخذ إجازة، لأنني كنت أعتقد أن ذلك يعيبني، وجدت الأخ الذي أمر بإحضاري دافئاً وودوداً، أخي أبا ماهر، إنه رفيق حقيقي أحببته، وأسر فؤادي وحاز على احترامي الدائم، لكنه لم يكن موافقاً على أن اتجاوز حدود المهمة الإدارية التي كلفني بها.

٢إشارة إلى رواية الكاتبة اللبنانية ليلى عسيران.*

فيما بعد عندما أصبحت مفوضاً سياسياً لقطاع "201" عدت أشارك في العديد من الدوريات المقاتلة، وأطلق النار مباشرة على العدو وأعبر نهر الأردن المرة تلو المرة ليس من أجل أداء المهمات القتالية فحسب، ولكن أيضاً لكي يتم بناء العمل السياسي في القوات بناءً صحيحاً.

لا زالت تلك الليلة الليلاء من عام 1969 عالقة بذاكرتي، عندما نفذنا إحدى عمليات الاشتباك المباشر في منطقة غور اليابس، كانت العملية مشتركة بين قطاعنا والقطاع الشمالي، عبرنا مخترقين منطقة الحجاب الأردنية، إذ أصبحت علاقاتنا بأفراد الجيش الأردني بعد معركة الكرامة وما قبل أيلول تتسم بالتنسيق الميداني والدعم.

قطعنا منطقة خطرة للغاية، وكان علينا أن نجتاز نهر الأردن في فترات صعبة، وخاصة في تلك المنطقة من الأغوار، بل وأن نلجأ إلى المعابر الصعبة لجريان الماء المتهور، كما كان علينا أن نجتاز منطقة خطرة من حقول الألغام.

توقعنا الخطر في كل شبر، وتسللنا بعواطف جياشة تكتظ بالآمال الثورية، شعرنا أننا صناع المجد، ذلك الشعور بالاعتزاز، وأنت تعبر على ساقيك لكي تضرب العدو لا يضاهيه شعور.

استحضرت بعض المقاطع من الأغاني الحماسية والأناشيد، ورحت أرددها بيني وبين نفسي، وكأنها صممت خصيصاً لنا في تلك الليلة التي لا تنسى.

ثمة أناس يكتبون التاريخ، وثمة أناس يصنعونه، ومن هؤلاء من يحفرون بعمق ولكن في صمت.

هؤلاء الرجال الذين يتحملون المشاق ويسيرون على حواف الموت لأداء

المهمات القتالية الصغيرة يرسون القاعدة الصلبة لكل ما برز على سطح الأحداث والوقائع، هؤلاء الرجال يحق لهم في مثل تلك اللحظات ذلك الشعور... يحق لهم أن يشعروا أن النشيد صمم خصيصاً لهم، وأن عيون الصبايا وعيون أحبائهم تراهم، وأن يكون ذلك ضرباً من ضروب أحلام يقظتهم، فقد أدوا ضريبة الحلم وخيال المجد بالسير على حافة الموت، والنحت على الصخر القاسي بنقوش صغيرة، ولكن بعرض دمائهم لتصب في الشلال المبارك.

أصطدم بنا فجأة كمين للعدو من نفس الاتجاه الذي كنت فيه، كنت على يسار المجموعة، وإلى يساري أحد أفرادها وهو الأخ صلاح الدين. كان الأقرب للكمين، وقد أصيب مباشرة، فتحت لحظتها نيران بندقيتي (الكلاشنكوف) باتجاه العدو، وغيرت المخزن، تعلمت أن أطلق رشاً على صليات متقطعة.

لا أعرف ما إذا أسكتنا الكمين أم أنه سكت لسبب آخر، فسرعان ما فتحت علينا أبواب النيران من ثلاثة مواقع معادية شكلت مثلثاً يواجهنا، وراحت تصب حمم الرشاشات من نوع "500"، بينما ملأت قذائف التنوير سماء المنطقة فتحولت إلى ما يشبه النهار، وأصبحنا عاجزين نتيجة لكثافة النيران والتنوير أن نتحرك من مواقعنا ونحن نحتضن الأرض إحتضاناً.

كلفنا الإنسحاب لعشرات الأمتار ساعات طويلة، لعلها من أطول الساعات التي عرفتها، أما زخات النيران فقد استمرت تحيط بنا من كل جانب، أصبحت فيما بعد متقطعة، وتمكنا قبل الفجر مباشرة أن نتمم انسحابنا إلى شرق النهر.

استشهد من مجموعتنا صلاح الدين، ذلك الأسد ما عرفته إلا يوم استشهاده.

أيها الشهيد المجهول الذي لا يعرف أسمك أحد، وحتى أنا لا أعرف أسمك الحقيقي، أنت واحد من الذين غرسوا لكي تجني أجيال شعبهم، أنت واحد من الذين بذروا دمائهم في تربة الثورة المقدسة كي تصل إلى شطآن النصر مظفرة وخفاقة الرايات.

لم يقتصر الأمر عبر واجهة نهر الأردن على هذا النوع من دوريات القشرة، وهي الدوريات ذات الأهداف القريبة من خطوط المواجهة، إذ طالما انطلقت دوريات العمق المسلحة لتقوم بمهامها القتالية والتعبوية في عمق الأرض المحتلة.

كان من تلك الدوريات، دورية طوباس الأولى، التي عرفت بشهيدها الفدائي الشجاع مازن أبو غزالة، والذي يعتبر في عداد أوائل المفوضين السياسيين.

ثم دورية طوباس الثانية التي تمكنت أن تنزل بالعدو خسائر بشرية موجعة بعد مقاومة بطولية، ولم ينج من أفرادها سوى المقاتل جهاد أبو خيط، وهو أحد رفاقي في دورة الصين، والذي عاد إلى معمعان القتال من جديد حتى لقي الشهادة بطلقة في الجبين.

وقد بلغت هذه الدوريات ذروتها سواء من حيث الإعداد أو التحدي بدورية (بتاح تكفا) قرب يافا على الساحل الفلسطيني، في صيف 1971.

جرى الإعداد الدؤوب لهذه الدورية الباسلة في غمار ذلك الإرهاص من التقاء مجموعة من جيل الكادر الفتي الناهض ذي العقل العلمي

والوعي الثوري ومنهم عمر فهمي، أحمد حبش، مروان منى (أبو الوليد) ونبيل أبو ردينة وآخرون.

كان أحمد حبش بما يمثله من إرادة ناهضة وعقل علمي منظم من أكثر قادة مجموعات العمق حرصاً على الاستعداد والتزود بالمستلزمات المعنوية والجسدية لمواجهة تحدي النيل من كبد العدو.

بلغ أحمد درجة من الدقة حتى تفاصيل التفاصيل، ولا أستطيع أن أنسى إنغماره في الإعداد الدؤوب من أجل القيام بهذا العمل النوعي، وذلك في ظل بدايات الحصار في أحراش دبين.

لقد أراد أحمد أن يحدد العدو الرئيسي بدقة وسط ضباب الفتنة ومتاهاته. على يد ذلك الإعداد ولدت دورية بتاح تكفا، وهي بحد ذاتها نموذج نضالي وتجربة قائمة بذاتها، وقد قامت بمهمتها، وقدمت المعاني الكبيرة، واستشهد الرجل الباسل أحمد حبش، وكذلك القائد عمر فهمي وغيرهم.

يمضي الشهداء في خضم الصراع المباشر مع العدو الصهيوني قريري العين، أما ضمن هذا التطاحن للحرب السوداء في لبنان وبين أيدي هؤلاء المحققين والجلادين، فإن المرء قد يمضي وعلامة استفهام كبيرة حول مستقبل أمته، تملأ خياله وعقله. ومع ذلك فإن المعركة هي المعركة. وهذا الممر الثقيل على النفس ممر مفروض في الطريق. والمهم بالنسبة إليّ الآن أنني تمكنت أن أمضي في حقل ألغام أسئلتهم دون أي تعثر.

تعالت صباح اليوم التالي أصوات الباعة وحركة السيارات معبرة عن يوم نشيط وهادئ في هذه المنطقة، أحضروا لي شطيرة وسمحوا أن

أذهب لقضاء حاجتي.

مر الوقت الذي يستدعونني عادة فيه للتحقيق، لم يكن يوم أحد، أظن أنه كان الثلاثاء، ربما لن يحققوا معي، فقد أصبحنا بعد منتصف النهار.

حوالي العصر حضر رجل في حدود الخمسين من عمره قصير القامة نحيف الجسم، وبرفقته مسلح آخر بدين متوسط الطول، اقتادني الرجل القصير خارج الزنزانة وقال لي:

- سترى منظراً جميلاً يهمك!.

أخذني إلى غرفة في الطرف الجانبي من البناء في نفس الطابق الثامن الذي تقع فيه زنزانتي، أوقفني قرب نافذة تطل على الشارع ومن طرفها تطل على البحر، رأيت ممراً أعتقد أنه بداية جسر من جسور الطرقات، أغلق عليّ الباب ومضى، فرحت أتطلع إلى البحر وإلى طيور النورس الحرة الطليقة.

مر وقت وأنا قرب النافذة أغبط الطيور حريتها، منذ عدة أيام لم أطل على الخارج، ظهرت فجأة مجموعة من المسلحين، يحمل بعضهم السكاكين، إضافة إلى البنادق والمسدسات، لمحت في وسطهم شاباً معصوب العينين مقيد اليدين يقتادونه باتجاه الجسر بركلاتهم ودفع أيديهم، المنظر أشبه ما يكون بحفلة زفاف، جميعهم يتحلقون من حول الشاب ويتراكضون للحاق بالوليمة، أقترب أحدهم وكمن سرق من الشاب الأسير ضربة على رأسه، أدركت أن هذا ما يعنيه ذلك المسلح الذي قال سترى منظراً جميلاً.

أية وحشية هذه؟! أنهم أشبه بقطيع من الأشرار كما تصورهم الأفلام

السينمائية، هذه هي المرة الثانية التي يذكروننني بمثل تلك الأفلام، إذ تذكرت الصورة نفسها ونحن في جونيه.

عبروا الشارع مبتعدين عن المنطقة الآهلة، يبدو أنهم أتخذوا زاوية تحت الجسر، أعتقد أن الأمر انتهى، بعد دقائق من الصمت وسكون الجلبة سمعت إطلاق الرصاص، يا للفظاعة كم تعذب ذلك الإنسان أثناء تلك الدقائق؟!.

تعاقب الإطلاق ثم تلا ذلك بدء إنفضاض المسلحين باتجاه الشارع العام، رأيت بعضهم يعودون فرادى، أدركت أن الشاب قد قتل، وما هي إلا هنيهة حتى كانت ضوضاء تتبع. أنهم يحملونه ملفوفاً بدثار من الأغطية، لقد شاهدت آثار الدماء على الأغطية في الغرف التي بجواري، هل يكون قد حدث الشيء نفسه مع آخرين؟.

صارت الجثة المحمولة وسط الشارع، شاهدت الرأس مدلى يسنده أحدهم، بالكاد يرتبط بالجسم، والنحر أحمر قان.

يا لهول ما أرى؟ إذن لقد ذبحوه ولم يكتفوا بالذبح أطلقوا عليه الرصاص، أشبعوا غرائزهم، أشبعوا ذلك بالشذوذ النفسي الذي يلوث نفساً بشرية مليئة بالضعف والجبن.

حُفر المنظر في ذاكرتي، نحت نحتاً، صنع أخدوداً، ترك علامة حمراء بلون النحر الدامي، جعلني ألامس مباشرة الصور التي سمعت عنها أو قرأتها عن الفظائع والمجازر منذ ثورة العبيد وحتى المقابر الجماعية في فيتنام والاضطهاد العنصري في أفريقيا، والشذوذ السادي للمستوطنين اليهود في فلسطين والعصابات الصهيونية قبل ولادتي، وبعدها، أية وحشية تملأ قلوب الجلادين في كل زمان ومكان! إن قصة الكفاح من

أجل الحرية، الكفاح العنيد والأمل المضيء في هذا العالم واحدة.
تحسست عنقي، تذكرت الشباب الذين برفقتي، ورفاقي الذين سبق ضياعهم في البحر، نعيم، آه يا نعيم

[3]، أيها المقاتل الغضنفر، أيها النسر قائد نسور العاصفة، ما هو مصيرك؟ قلت في نفسي، وقد تذكرت أنني بين أيديهم، تعددت الأسباب والموت واحد، فليكن الموت بالمواجهة فوق أسنة المحاولة والتحدي.

أخذوني في اليوم التالي إلى التحقيق، بدأ التحقيق بعملية تخويف من الإنكار وتشجيع على الاعتراف، ثم عاد إلى نفس الطريقة السابقة في توجيه الأسئلة التي تحاول اصطيادي بكلمة أو هفوة أو معلومة أو حتى حرف، بقيت ثابتاً وواثقاً وهم يحاولون بكل الوسائل، ويأتون من هنا ومن هناك دون جدوى، ظهرت علامات الانفعال على رئيس التحقيق، بدأ صبره ينفذ، راح يصرخ بي مؤكداً قدرته على الاحتمال، واستعداده للبقاء شهراً كاملاً، انهارت أعصابهم، وأخيراً وقف قائلاً:

- حسناً، حاولت أن انقذك، لم أعد قادراً.

اقتادوني إلى الجدار، صلبوني مقيد اليدين، وقف ثلاثة منهم يشهرون مسدساتهم، عصبوا عيني، وقفت ثابتاً، اللامبالاة والعنفوان في آن واحد، تلك الصورة التي رسمتها على وجهي، فيجب أن أواجههم واقفاً، هكذا يكون الموت بدون انحناء، وهكذا تكون الحياة. داخلني شعور أنهم يمثلون، ومع ذلك فلا شيء يمنعهم لو أرادوا، أو حتى لو أراد واحد منهم، فماذا تعني حياتي بالنسبة إليهم!، ماذا تعني حياة إنسان في هذه الحرب القذرة، التي تستنفذ فيها مجهوداتنا الواجب بذلها من أجل الحرية والتقدم، نحن أمة واحدة. ونحن ضحايا نأكل أنفسنا، لو أن مجموع المجهودات الحربية التي بذلت في النزاعات داخل لبنان

٣ هو الشهيد نعيم أحد قادة قوات العاصفة الأوائل.

والأردن وضعت في مواجهة العدو، لتغيرت معادلة المنطقة، ولأصبحنا شركاء في خندق منيع نصنع التاريخ معاً، ونصنع التحول معاً، ونسطر صفحة مجد لكي تأخذ أمتنا دورها بين أمم العالم، شدوا الوثاق على العينين بعد أن عصبوهما، كل شيء أصبح جاهزاً، ضغطة واحدة وتمضي أيها القلب الذي توقد بوميض المحبة والكفاح، طالما تمنيت أن تكون النهاية برصاصة في الجبين أو الصدر، لأنها نهاية تليق بحياة متوثبة بوميض العنفوان.

مضت لحظات وكأنهم ينتظرون إشارة التنفيذ، وفجأة قاموا بحركة كشفت المسرحية، تناولوني، فكوا العصبة عن عيني، أحضروا السياط، انهالوا علي، ضربة، ثانية، ثالثة، سقطت قذيفة قرب البناء تماماً، أحدثت دوياً وكسوراً وتساقط أجسام صلبة، وغباراً، أبتعدوا عني، تغير لون وجوههم، تحولوا إلى كائنات خائفة تبحث عن مأمن، وحدي بقيت واقفاً وسط الغرفة، حتى المسلح الذي استمر يرقبني وقف في الممر قرب الباب مدارياً نفسه وشاهراً مسدسه باتجاهي.

أي رعب شاهدته في عيونهم، تلاحقت أصوات الرشاشات، ثم تبع ذلك انفجار كامل على خطوط التماس، جاء مسلحان على عجل واختطفا الحديث مع زميلهم، أمروني بأن أبتعهم، وقادوني إلى المصعد، ثم إلى الزنزانة، شعرت أنهم هزموا أمامي، أمام قذيفة من الطرف الآخر من بيروت، آه يا رفاقي في الجهة الثانية من خطوط التماس، لقد أنقذتني قذائفكم من ويلات عذابهم، وجعلتني أرى الخوف في عيونهم، رأيت ذلك الزوغان الإنساني الذي يجعل دقات القلوب تتسارع، وترد الإنسان إلى ضعفه وخوفه، لتظهر أن الوجه الآخر للبطش، الوجه

الآخر للجلادين القساة هو الخوف.
ذلك اليوم، كان يوماً عاتياً، قضيته في الزنزانة مثل عصفور في قفص معلق تزلزله الرياح وتعبث به يد هوجاء.
تواصل القصف، قذائف المدافع، رشاشات الدوشكا، ورشاشات الـ"500" الصواريخ، قذائف الهاونات، لم تعد أصوات الرشاشات الخفيفة تشد الانتباه، تصطك فرائص البناء بأسره، وتنهال بعض نوافذه أو أبوابه، السكون والعاصفة يتناوبان بسرعة، بلمح البصر، تطغى العاصفة ثم تطغى، الغبار يختلط بالهواء، يبدو أن حريقاً شب في مكان ما قريب، أنني في هذه الزنزانة لا أرى شيئاً، قيودي مشدودة على معصمي، دفعت باب الزنزانة بكتفي، إنه قوي جداً، كل شيء يهتز سوى هذا الباب اللعين، إنهم في مكان ما من هذه البناية، لجأوا إلى مأمن، وتركونا تحت رحمة القصف معرضين للخطر، سلمت أيديكم يا أخوتنا، فأنتم قوتنا في هذا الأسر، وأنتم قوة الحق.
حل سكون الليل، ما يشبه الفراغ بعد عاصفة مهيمنة، فراغ في صمت كوني خارج الجاذبية والمدارات والجواري السبع، سرحت مع أفكاري طويلاً وبعيداً، رحت أتأمل في المعضلة الكبرى، الإنسان والكون والحياة، في قوانين الوجود وقوانين التطور، في الحقائق العليا التي تحكم الوجود. قال إبن طفيل في مرحلة من مراحل بحثه عن الاهتداء:
"بالاستقرار والتأمل يستطيع المرء أن يصل إلى الحقائق العليا"، هل حقاً نستطيع أن نتوصل إلى الحقائق العليا؟ هل يسمح بذلك مستوى التطور البشري المنظور والمحتمل سواء أكان هذا التوصل بالأسلوب العلمي واتباع المنهج العلمي، أم كان بالمنطق أم بالحدس، بالإحساس ورؤيا

العقل؟.

لقد أعتقد الفيلسوف الألماني هيردر ومثله الفيلسوف كانت، أن الحياة الأرضية وحدها لا تتيح الوصول إلى إدراك كاف للحياة الإنسانية، أما الفلسفة المادية الجدلية فقد أجابت عن سؤال هل يمكن معرفة العالم بالإيجاب.

سرحت مع أفكاري في البعد الأزلي لرغبة الإنسان في معرفة الأسرار العليا قبل أن ينكب جلجاميش للبحث عن الخلود في أقدم ملحمة عرفها تاريخ البشرية.

لم أسرح بأفكاري كنتائج لحلم فلسفي، ولكن كنتاج للتفاعل في خضم هذا التوتر من العذاب والقذائف والسكون.

لا أعتقد أنني توصلت إلى جواب محدد، ذلك لأنني أتوقف عند أسئلة تشكل في نظري مفاتيح حتمية للخروج من حيز المعرفة هذا إلى ما هو أوسع، وهذه الأسئلة لم تجد لدى كافة العقائد والمذاهب والنظريات سوى أجوبة افتراضية حتى الآن.

إلا أنني توصلت إلى تقسيم الوجود إلى قسمين: الأول وهو ما يمكن أن تصل إليه أحاسيسنا وعقولنا ومشاعرنا سواء أكان مباشرة أم بالوساطة، والثاني وهو ما وراء ذلك، ما وراء كافة قدراتنا ووسائطنا، ويبدو أن القوانين المادية هي التي تحكم القسم الأول في نطاق قدرتنا على التعرف.

وفي نطاق أي فهم للإنسان وعلاقته بنفسه أو علاقته بالحياة أستطيع أن أفسر هذا العذاب، وهذه القذائف ومثلها من آلام البشرية وحدة صراعاتها!.

أستطيع أن ألمّ بالتفسير السياسي فهو سهل بالنسبة لي، لأنها قضية كفاح أعيشها بكل نبض في فؤادي، ولكنني الآن أتساءل حول التفسير الذي يقود إلى كنه تفاعلات الحياة وطبيعة الإنسان.

على العموم لست غارقاً تحت تأثير العذاب إلى الحد الذي يجعلني أقبل نظرة مثل نظرة "جيبون" عندما قال: "إن التاريخ لا يحتوي قط إلا على جرائم وحماقات ومصائب الإنسانية، وان كل صفحة منه كانت ملطخة بالدم، وبغلواء المنازعات وغطرسة الانتصار، ويأس المغلوبين، وذكرى أعمال الحيف التي حلت بهم، والخوف من الأخطار القادمة".

إنني رجل متفائل بطبيعتي وبإدراكي لأهمية الرقي والتطور الذي توصلت إليه الحياة عبر مسيرتها، وأتطلع إلى عالم تسوده الحرية والمساواة والسلام والتقدم، وهذه العذابات هي مخاضات إنسانية تشكل صاقلاً وحافزاً للتطور في آن واحد شريطة أن تنتصر قوى الخير، وشريطة أن تأتي التحديات كما يقول "توينبي" ضمن معدلاتها الخلاقة، في الحدود المحفزة ودون القاتلة.

حتى الحروب لها من الجانب الآخر دورها التاريخي الخلاق، فهي مولدة الحضارات ومخاضها، وفي غمارها نشأت مؤسستها العسكرية وتطورت وأصبحت عمقاً من أعماق الحضارة ومجالاً من مجالاتها إبدع في مضماره العقل البشري وقدم المكتشفات والتراكمات العلمية الجبارة.

في كل الأحوال يجب أن يأتي السلام على أساس العدالة والحق، لأنه المناخ الخلاق لعلاقات الإنسان، ويجب أن ينطوي على نمط من التحديات السلمية لكي يستمر الخلق والتطور والإبداع، ولعل التحدي الذي يوحد الإنسانية هو التحدي الأكثر هولاً إن وجد.

أعادوني في صباح اليوم التالي إلى غرفة التحقيق من جديد، توقعت أن يبدأ ساخناً، إلا أنه جاء أهدأ مما توقعت، حاولوا فقط أن يضعوا اللمسات الأخيرة لكل أقوالي، وأن يجربوا محاولتهم الأخيرة أيضاً، وأن يختبروا ثقافتي ليتعزز إعتقادهم بأنني فعلاً طالب جامعي في كلية الحقوق.

صدف وسألني ذلك المحقق الوسيم الذي ترأس الاستجواب الأول عن مبدأ ميكافيلي، فقلت له:

- "الغاية تبرر الواسطة".

انتفض كمن ألقى القبض على ثغرة في جوابي، وقال:

- خطأ، الصحيح هو "الهدف يبرر الوسيلة".

يبدو أنه لم يتمعن بإجابتي، وأنه كان تلقائياً ومندفعاً وحرفياً، ابتسمت قليلاً، ونظرت إلى رئيس التحقيق مشيراً بوجهي وأنا أقول:

- اشرحها له.

أخفى رئيس التحقيق عني ابتسامته، وتوجه لزميله قائلاً.

- نفس المعنى.

ثم أعاد على سمعه عبارتي كي يتبين معناها.

سررت بردة فعلي، لقد تنفست أجواء التحقيق، كان ردي مليئاً بالثقة بمعلوماتي وقوة إرادتي، وباستخفاف مبطن بثقافة هذا المحقق الذي يبدو عليه أنه جامعي حاول أن يستعرض ثقافته.

لم يخل الأمر تماماً من العنف، فقد تدخل أكثر من مرة ذلك الرجل

البدين وأخرج مسدسه وضرب راسي بكعبه، وصرخ بي مرة أخرى وهو يقول:

- "إن في راسك أربعين كمبيوتر"، ترد على كافة اسئلتنا بذكاء، لا بد أنك تساوي ذهباً، إذا استبدلناك سيكون لقاء ذلك ذهب.

تساقطت في هذا اليوم أيضاً أثناء التحقيق بعض القذائف، وانطلقت أصوات متقطعة للرشاشات المتوسطة، إلا أنها كانت بعيدة عن البناء الذي يحتوينا، وقف رئيس التحقيق، ونظر من النافذة ثم ناداني وهو يقول:

- أنظر هناك، حيث يوجهون نيران أسلحتهم، أتعلم ما هو هدفهم؟!. إنها إهراءات القمح، يريدوننا أن نجوع، ولكننا سندفنهم، لم يبق لهؤلاء الغرباء سوى جزر صغيرة في بيروت، وسوف نجعلها قبوراً لهم.

وعندما عاد إلى طاولته سألني بعض الأسئلة السخيفة التي أرادها مخرجاً وخاتمة لتحقيقه، ثم عقب على أجوبتي بقوله.

- اقتنعت الآن أنك لست فلسطينياً، اجلس، هل أطلب لك قهوة أم شاياً؟.

- أريد شاياً.

- أعتذر عن معاملتنا لك، ولكنك ترى أن بلدنا يحترق، ونحن مضطرون لأن ندافع عنه.

ثم بعد شرح مختصر سألني:

- ما هو رأيك بنا؟ وما هي فكرتك عنا؟.

تبدلت الأدوار، أصبح ينشد إقناعي، قلت في نفسي أنه يريد أن يمارس نوعاً من الدعاية السياسية أو غسل الدماغ، حسناً أنا المفوض السياسي سأمارسه عليه دون أن يشعر، لقد بدأ هو بشكل مباشر وعفوي، أما أنا سوف أمارس عليه تعبئتي بشكل مبطن وموجه تماماً، وضمن قانون التعبئة السياسية، ودون أن يكتشفني، ومن أجل ذلك عليّ أن أبدو عفوياً وغير استفزازي، إلا الاستفزاز المحرك بالاتجاه الذي أريده، سألته بدوري:

- هل تريدني أن أتحدث بصراحة وصدق أم تريدني أن أجاملكم؟.

- تحدث بصراحة وصدق ولا تخش.

- مجمل الصورة المرسومة عنكم في الاعلام العربي أنكم طائفيون وانعزاليون وفاشيون.

- فسر لي كل واحدة منها.

- طائفيون، أنتم حزب مسيحي ماروني، مع أنكم تعيشون ضمن وحدة سياسية جغرافية يشكل الموارنة جزءاً منها، وقد يكون جزءاً صغيراً. وانعزاليون بمعنى أنكم تفصلون أنفسكم عن مصير الأمة التي تشكلون جزءاً عضوياً منها، تعزلون أنفسكم عن آمالها

وآلامها ومشاعرها وقضاياها وحاجاتها، وتتطلعون إلى ما وراء البحر. أما فاشيون فتعني أنكم ضد حركة الحياة إلى الأمام من ناحية، وأن مفاهيم لا إنسانية تحكم ممارساتكم، كالقتل والتعذيب، مفاهيم العصا.

إننا في خارج لبنان نسمع عن حوادث القتل على الهوية لمجرد الإنتماء إلى طائفة أخرى، أو لكون الشخص فلسطينياً ليس إلا، وهذا ما نقرؤه في كثير من الصحف والمجلات.

بقدر ما تركت لديه إنطباعاً عن صراحتي وصدقي بقدر ما استثاره حديثي، أصبحت مهمته أن يثبت لي أنهم ليسو طائفيين ولا انعزاليين ولا فاشيين.

بدأ حديثه عن الفاشية، إذ أن مسلسل التحقيق معي وما جعلوني أراه بعيني، لا بد أن يشعره بحاجته إلى مجهود كبير لدحض هذه النقطة بالذات، قال لي:

- بالنسبة إلى الفلسطينيين لا يوجد نقاش، هل تعرف ماذا سنفعل بالمسيح لو أمسكنا به؟

قلت له مستغرباً!

- كلا، ماذا ستفعلون؟!.

- سنذبحه ونقطعه بالسكاكين.

نظر إلى الدهشة التي قفزت ناطقة في وجهي وتابع قائلاً.

- لأنه فلسطيني.

ثم أردف:
- لماذا؟ لأن الفلسطينيين غرباء وليسوا لبنانيين، جاءوا ضيوفاً علينا ثم دمروا بلدنا، كل ما يحدث لنا بسببهم. أما بالنسبة إلى اللبنانيين فأنا أسألك؟ أين هم اللبنانيون الذين كانوا معكم على متن الباخرة؟ لقد أطلقنا سراحهم لأن هذا الوطن وطنهم، نحن إنسانيون ولدينا روح إنسانية، ولكن عندما نكون مضطرين لحماية بلدنا وشعبنا فأننا نعامل الآخرين بمثل ما يعاملوننا.

- ولكن الروح الإنسانية لا تفرق بين إنسان وإنسان، ما دام غير مدان!.

- هناك من لا يستحقون وصف إنسان.

- بالتأكيد ولكنهم القتلة والمجرمون المدانون.

- أما عن الطائفية، فنحن حزب غير طائفي، يضم المسلم والمسيحي وكل لبناني يؤمن بمباديء حزب الكتائب.

نادى على أحد الذين شاركوا في تعذيبي، وطلب منه أن يقدم بطاقته وأشار لي أن أقرأ فيها أن صاحبها مسلم شيعي، ثم سألني:
- ألا ترى أنه مسلم شيعي وهو عضو في حزب الكتائب؟.

تساءلت عن نسبة هؤلاء غير الموارنة في حزب الكتائب وعن المباديء التي تجمع ما بين انتماءاتهم والحزب، وعن المواقع التي يمكن أن يصلوا إليها، خاصة وأن كل الأسماء القيادية المعروفة للحزب هي من المسيحيين.
تابع حديثه موضحاً:
- أنهم كثيرون. وصفوف الحزب مفتوحة أمامهم بكل درجاتها، إن مبدأنا الأساسي هو الإيمان بلبنان، وهذا هو النطاق الذي لا يمكن أن نوصف في حيزه بالانعزالية. العروبة إبداعنا، ولكن عندما نتطلع

وراء البحر، كما تقول، فإننا نتطلع إلى الحضارة وإلى التقدم. عندما ننظر شرقاً لا نجد سوى الهمجية والتخلف والتمييز، هناك النظرة الطائفية وليس هنا.

- العالم كله يعتقد أنكم حزب ماروني، ومع ذلك لو افترضنا أن ما تقوله صحيح، فهذا هو واقعكم، قدركم أن تكونوا جزءاً عضوياً من منطقة ومن أمة لستم كثيري التفوق عليها، إن وجد هذا التفوق، مهمتكم أن تنهضوا معها وبها، ما قيمتكم عندما تنعزلون لتصبحوا جزءاً صغيراً جداً، الحضارة للمتحدات الكبيرة، وحتى الدول الصغيرة القائمة فإن متغيرات في خارطة العالم تمحوها كما خلقتها. يجب أن تتطلعوا إلى الحضارة من خلال ارتباطكم بهذه المنطقة وهذه الأمة.

- سوف يشدوننا إلى الخلف ويأكلوننا.

- إذا اندمجتم بآمال هذا العمق الكبير وتطلعاته فسوف يحملكم ويفيد منكم، ولن يأكلكم أبداً. كذلك فإنكم لا تستطيعون أن تحلقوا فوق الخطوط التي يحتملها واقع هذه المنطقة، لأن ذلك سوف يدمركم، أنتم محكومون بكونكم جزءاً عضوياً منها، تطلعوا إلى هذه الحقيقة. وانهضوا مع هذا الانتماء الذي لديكم جسوره المتينة، فلا توجد لديكم جسور ثابتة لأي انتماء آخر.

ربما رغب في تغيير الحديث، أو في أن يتعرف إلى المزيد من قناعاتي، لكنه بالتأكيد لم يكن نافراً مني عندما سألني عن رأيي بالفلسطينيين، وقد قلت له:

- شعب عربي احترمه وأؤمن بقضيته.

- نحن كذلك آمنا بقضيته وعطفنا عليه، لكنه غدر بنا!

- هذه رؤيتكم للأمور. هذه الحرب مدمرة لكم ولهم، سوف تؤذيكم وتؤذيهم، لا تعتقدوا أنكم منتصرون، فمجرد دخول السوريين

هو سقوط لفكرتكم عن العروبة والمسلمين، لأن السوريين في النهاية عرب ومسلمون.

- لقد أعددنا أنفسنا للسوريين أيضاً.

- عندما تترسخ أقدامهم في الأرض فإن رياحهم سوف تؤثر على معالمها حتماً. لقد فتح حديث عن أزمة لبنان في بيتنا فسمعت صديقاً لوالدي –غير فلسطيني– جاء لتعزيتنا به وهو يقول: "إن اللبنانيين والفلسطينيين هما أكثر شعبين عربيين ثقافة وذكاء، وفي هذه الحرب سوف ينهكان معاً، من أجل ما هو مرسوم، وما هو مرسوم ليس في مصلحة تطلعات أو أهداف أي منهما". وأنا أسألك : هل تستطيعون أن تخرجوا أيديكم من الصراع بين العرب والكيان الصهيوني وتحفظوا رؤوسكم؟!

- ولماذا لا نستطيع؟

- سوف يشدكم أحد قطبي الجذب، إن لم تكونوا مع العرب فلن تسلموا من نزعة التوسع والسيطرة الأمنية للكيان الصهيوني، إنه خطر عليكم أيضاً، بل هو الأخطر، وما دام الأمر كذلك فإن من مصلحتكم التاريخية والحياتية أن تكونوا في صف أمتكم، لأن الجسور الأخرى واهية تحت أقدامكم. ما دام عليكم أن تدفعوا التضحيات وتتحملوا الأعباء وتخوضوا الصراع، فيجب أن تكونوا في خندق العرب. وأي تطلع خارج ذلك هو طيران فوق قدرة الأجنحة على الاحتمال.

- اختلف معك كثيراً. نحن لا نريد أن نقف ضد العرب، ولكن لديك منطق عميق، وهذا لا يعني أنني أتفق معك، آراؤنا مختلفة، إلا أنني أتمنى لو أن صحافتنا وكتاباتنا تُقرأ عند العرب لتفهمنا أنت وغيرك

أكثر.

نظر إلى المسلحين وطلب منهم أن يأخذوني عند الآخرين، وبذلك ختم النقاش، لعله بسبب الوقت، وشعرت بهذا الختام أن معركة الإرادة ربما تكون قد أخذت ذروتها، أما معركة الذكاء فإنها ستبقى محتدمة إلى النهاية.

الكفاح والأمل

عدت إلى الطابق السابع، فوجدت جميع رفاقي الأسرى متلهفين لسماع أخباري، أكدت نداءاتي التي أطلقتها لهم أنني ما زلت موجوداً، أخبرتهم بما حصل معي، وجدوني مرتاحاً وواثقاً، ووجدتهم قد اكتسبوا بعضاً من التكيف مع واقعهم.

أصبحت هناك امرأة تشرف على حراستهم ومعها بعض المسلحين الآخرين، وأصبح لديهم ماء، وقد تحسنت قليلاً عملية تقديم الطعام لهم بالرغم من أنها اقتصرت على بعض الشطائر التي كانت دون الكفاية، ووجدت البحار أبا مروان وقد أصبح يلعب الضامة مع الآخرين، إذ أمنوا قصاصات من الورق باللونين الأبيض والأسود للعب الضامة، ورسموا مربعاتها باللون الأسود على غلاف من الورق المقوى لكتاب من مكتبة عمل صغيرة في الغرفة.

سأل أحد الأخوة أبا مروان عن الوقت، فنظر أبو مروان من النافذة وعاد يقول:

- الساعة الرابعة.

عبّرت عن استغرابي، كيف عرف ذلك؟! فأخذني إلى النافذة واشار إلى عمود كهرباء في الشارع، وقال لي، انظر إلى ظل العمود، عندما يكون بهذا الخط بين نقطتين -أشار اليهما بقرب العمود- تكون الساعة الرابعة، ثم راح يحاول تعليمي متى تكون العاشرة صباحاً، أو الثانية عشرة ظهراً مثلاً.

فيما بعد أتقنت تماماً معرفة الوقت من ظل العامود هذا، بعد أن جازفت أكثر من مرة بسؤال أحد المسلحين الذين كانوا يأتون إلينا عن الوقت

ومقارنته بوضعية ظل العامود.
في إحدى المرات انتهرني أحدهم وقال مستهجناً:
- أنت دائماً تسأل عن الساعة، أخبرني لماذا؟!

- أرغب في معرفة الوقت.

المهم أنني تعلمت بدقة كيف أعرف الوقت، كذلك تعلمت من أبي مروان كيف انتزع القيد من إحدى يدي، وقد أكد على ضرورة أن أعيده إذا سمعت المسلحين يأتون.
وجدت أن هناك بعض المشاكسات بين علي وعدد من رفاقه بسبب لفائف التبغ، لقد طمأنت رفاقي على أقوالي في التحقيق، وأنا بدوري شعرت بالإطمئنان، لأن التحقيق معهم قد انتهى كما بدا لي الأمر، لكن هذه المشاكسات يمكن أن تكون خطرة، لأنها على ما يبدو قد أصبحت أكثر حدة في غيابي.
وعندما حضر المسلحون قبيل الغروب، وأحضروا معهم بعض شطائر المرتديلا والسلامي، طلبت أن أذهب إلى دورة المياه، فاقتادوني ضمن مرافقة وحراسة، ووجدت نفسي أمام المرآة. أكتشفت فجأة أن لحيتي قد طالت، كيف لم أفطن إلى ذلك من قبل؟! إنها تناسبني.
أشار علي بعض الحراس بالقول "هذا هو اليمني"، فتقدم أحدهم وركلني وشتم اليمن، وشتم العرب، وعندما عدت إلى الغرفة وجدت علياً يسابق غيره ممن ينتظرون دورهم للخروج وأخذ سطل البول والبراز إلى دورة المياه وتنظيفه، وعندما نبهت رفاقي إلى أن المسلحين ما زالوا يقومون بضرب من يخرج وجدت أنهم لا يحتاجون إلى مثل هذا

التنبيه، وأن علياً نفسه أول من يعلم ذلك، ولما سألت عن سر رغبته في الخروج رغم هذه المعرفة، أخبروني أنه إلى جانب الركلات والشتائم والضرب، يمكنه أن يحصل على بعض لفائف التبغ من أحدهم أحياناً، قد يحصل على واحدة أو اثنتين من اللفائف، وقد يحصل على الأعقاب فقط، فهو يريد أي شيء يجعله يتجرع أنفاس التبغ، فيما بعد أصبحت أشاهده ينفنف مثل وحش حائر من أجل واحدة من لفائف التبغ.

كان صلباً وشجاعاً في الموقف ولا شيء ينال منه، ولكنه أمام رغبة التدخين كان يضعف تماماً ويتحول إلى إنسان يقبل الشتائم والضرب ويعارك زملاءه، كم كنت مصيباً عندما عزفت عن التدخين طوال عمري!، إنها نقطة ضعف لدى علي، بدأت أحسب حسابها إذ قدرت أن معركة الإرادة مع آسرينا ربما تكون قد انتهت، أما معركة الذكاء فما زالت بعد قائمة، قد تهدم أية ثغرة كل شيء، ويذهب كل ذلك التحمل سدى ونعود للتحقيق من جديد، وسوف ينتهي الأمر حتماً بالموت.

لقد أقنعت آسري بصدق أقوالي، وأي خطأ بعدها سوف يثير ردة فعلهم ضدنا جميعاً.

كان ذلك المساء بالنسبة لي مساءً جميلاً، القيد لم يكن يأسر معصمي، وقد تنفست شيئاً من الحرية، والسماء أمامي بنجومها المتلألئة، رحت أرقب فيها نهر المجرة، كنت أسمع جدي يسميها "طريق التبانة" وكثيراً ما تأملتها مستلقياً في عراء الصيف في كروم الخليل.

السماء صفحة زرقاء تمتلىء بنقوش ماسية مضيئة، تقود الإنسان إلى محاولة تحسس ما وراء هذا البعد، وتضعه في حرم مهيب من الأحاسيس الجياشة، إذ يختلط الحنين بالتأمل ما بين حب المعرفة وتأثيرات اللواعج

الروحية والإعجاب بالطبيعة وقدرة الخلق.
تترصع هذه الصفحة غير المتناهية أمامي بدرر مضيئة، بعضها أكثر توهجاً، وبعضها أكثر بعداً، منها ما تناثر فرادى، ومنها ما ظهر متكاملاً في إطار وشكل من الأشكال، وجميعها ترسل ذلك التوهج الرصاصي اللامع الذي يخترق ظلمة الليل وينير أفق الحياة.
رأيت إحدى هذه الدرر تهوي مخترقة خطاً في صفحة السماء، تاركة وراءها ذيلاً ضوئياً متلاشياً في أثرها. قبل حوالي عشرين سنة سألت جدي عن هذه الظاهرة فتلا الآية الكريمة:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ " (سورة الملك)

صدق الله العظيم

آه يا جدي كم استمعت إلى حكاياتك وكم تعلمت منك، لقد كانت مجالسك مصدر ثقافتي الأولى، ومصدر استلهامي الأساسي للوطنية الفلسطينية في إطارها القومي التي كنت شديد الإيمان بها.
لم أكن هنا قادراً على الاستغراق بأفكاري مثلما فعلت غالباً، وأنا في أسري المنفرد، فكثيراً ما أصبح يقطع عليّ أفكاري سؤال أحد رفاقي أو رغبة من آخر في الوقوف إلى جواري أو نشوب اشتباك وإطلاق قذائف، فالاشتباكات لا تتوقف بمعنى التوقف الكامل، قد تنفرج قليلاً ولكنها لا تنتهي.

تتوقف حدة القصف أثناء النهار أحياناً، وخاصة في ساعات الصباح أو الضحى، أما في المساء فإنها تنفرج لتتجدد دائماً، ولتصبح غالباً وكأنها إندلاع عواصف من الجحيم.

إختار لي رفاقي مكاناً فوق طاولة مستطيلة لأنام فيه، فوضعت بعض الكتب والملابس كوسادة تحت رأسي، ونمت في تلك الليلة لأول مرة ممدداً جسمي طليق اليدين.

جاء اليوم التالي هادئاً، وقد قضيت بعضه وأنا أدقق أقوال رفاقي كل على حده، دون إشعار الآخرين، تحسباً لأي أمر، كذلك رحت أحاول حل القضايا العالقة بينهم بعد أن تعرفت عليها، كما قمت بترتيب نظام شامل لنا، وقد وجدت أن توزيع الشطائر التي لا تكاد تكفي يخلق بعض الإشكالات، فبدأت بالإيثار مقدماً جزءاً من حصتي القليلة لمن يحتاج إليها، وكررت ذلك فيما بعد أكثر من مرة حتى وجدت ردة فعل إيجابية بين رفاقي، أدركت بعدها أنني تحملت الجوع أحياناً، ولكنني غرست الإيثار بيننا.

كان عليّ أن أقوم بتوجيه تعبوي غير مباشر حيال الكثير من الأمور الصغيرة والكبيرة، وكان همي الأول هو الحفاظ على المعنويات، وكان لا بد من التحمل، خاصة أثناء توجيه بعض الأخوة الصغار، مثل علي، كان عليّ أن أسير على الخط الدقيق بين الحزم وشحن الحوافز وتوجيه المدارك.

على العموم يكفيني أنه أصبح هناك أناس أتحدث إليهم وأصبحت قادراً على التصرف لسد الثغرات وتلافي وقوعها.

نمت هذه الليلة طليقاً أيضاً، وكنت مستغرقاً في نوم عميق عندما

صحوت بما يشبه الصدمة على صوت يصرخ فينا، وفتحت عيني فإذا بضوء مبهر لمصباح يدوي، أداروا المصباح على الآخرين رأوهم نياماً وأياديهم طليقة، أخذوا يشتمون ويتوعدون (بالتسويح)، وقد أشهروا مسدساتهم وبنادقهم باتجاهنا.

تقدم أحدهم مني وتفقد القيد في يدي فوجدني مقيداً! صرخ بي مؤكداً أنني أرجعت القيد تواً، وأنني نمت بدونه مثل الآخرين، ثم أطبقه بقسوة علي معصمي.

واصلوا شتائمهم ووعيدهم وهم يركلون الأجسام الممدة على الأرض، والتي تظاهر بعضها باستمرار النوم تحت وطأة ذعر المفاجأة.

أجبروا الجميع على النهوض وشدوا القيود، ثم جمعونا في الغرفة المطلة على البحر، وأغلقوا علينا أبوابها، وأداروا المفاتيح وانصرفوا.

لم ندرك معنى هذه الحركة التي قاموا بها، ذهب النوم من عيوننا، ورحنا نخمن! بعد ساعة تقريباً سمعنا جلبة قدومهم في الممر، وفتحهم لباب الغرفة الخارجية، وسمعنا بضع كلمات ثم خطى إنصرافهم، وأدركنا أنهم تركوا ضيوفاً جدداً.

أما هذا الذي أتوا به فهو فلسطيني قادم من اسبانيا، وبرفقته خطيبته، وقد أختفى في اليوم التالي، ولم نعد نسمع عنه شيئاً، بينما تضاربت التخمينات حول مصيره ومصير خطيبته.

راحوا يحضرون الآخرين من الأسرى الجدد إلى الغرفة المجاورة، وقد تكرر لهم تقريباً ما حصل معنا.

شدني حب الاستطلاع والتحسب معاً لمعرفة القادمين الجدد، ولكنني لم أتمكن طيلة ذلك اليوم من هذه المعرفة لأنهم أبقونا محبوسين في غرفتنا.

أحضروا في اليوم التالي جزءً آخر من الأسرى، وحتى عندما أدخلوا الطعام لنا، وسمحوا لعلي أن يخرج لإفراغ سطل البول والغائط، لم يتركونا نتمكن من رؤية أحد، وبعد أن رجع علي أخبرنا أنه شاهد أربعة أشخاص عليهم آثار الضرب والتعذيب.

بعد أن هدأت جلبة الحراس والمسلحين ليلاً، تم أول إتصال بيننا وبين جيراننا في الغرفة الأخرى، فعرفنا منهم تلك المعلومات الأولية، كما أخبرونا أن هناك شخصاً آخر معهم من الإعلام الفلسطيني، وأنه ما زال في مكان آخر.

نزل النبأ عليّ ثقيلاً، وحرّك التوجس في فؤادي، حب الاستطلاع والتحسب من جديد، ماذا لو كان يعرفني أو يعرف أي واحد آخر من أسرى سفينتنا؟! قد يفسد كل شيء ويفتضح أمرنا!.

خفت على القادم الجديد، لأن هويته واضحة لهم، وخفت منه قبل أن أعرف من هو، وتساءلت في نفسي إذن لقد عرفوا أنه من منظمة التحرير الفلسطينية، فلماذا لم يصفّوه؟.

أكد لنا زملاؤه مراراً أنهم لم يفعلوا به شيئاً وأنه غالباً سيلتحق بنا.

كيف تمكنوا من معرفة ذلك؟! ربما كانوا يخمنون، سوف يقتل حتماً، وقد تصورت كيف سيتم قتله، فقد شاهدت طقوس إعدام الفلسطيني لديهم، وليمة أخرى، مسدسات وبنادق وسكاكين، ثم يعيدونه ملفوفاً بغطائه هو الآخر. من هو يا ترى؟!

نمت تلك الليلة على هذه الأسئلة والخواطر المزعجة، وأفقت في اليوم التالي مبكراً على مثلها أيضاً، وبقيت أترقب حتى وقت العصر تقريباً، وخلال تلك الفترة كانت تتم عملية استجواب الأسرى الجدد واحداً

واحداً، وتكرر الأمر من جديد أيضاً، إذ فرغوا من استجواب هؤلاء الجدد باستثناء شخص واحد أمعنوا في التحقيق معه.

قرابة العصر جاء المسلحون، وفتحوا الباب بين الغرفتين، ثم ذهبوا، فلفتت هذه الحركة انتباهي، حيث لم أجد الأمر طبيعياً.

اقتربت من الباب، ونظرت في الغرفة الأخرى، وقعت عيناي على وجه أعرفه، انه حقاً من العاملين في جهاز الاعلام.

التقت العينان، تجاهلته، خطفت نظرة إلى أسفل الباب بين الغرفة الداخلية والممر، وجدته معتماً، وكنت قد تعلمت من قبل أنه في مثل هذه الحالة يكون الحراس واقفين بقربه.

مضيت متجولاً في غرفتنا، أما هو فقد بقي جالساً في مكانه على كرسي متدثراً بحرام وثير يبدو أنه أحضر له خصيصاً! قررت أن أعود مرة أخرى لأنظر إليه فيدرك أنني أتجاهله متعمداً.

عدت في سياق حركتي وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، فلم أكن أريد لأي شخص آخر أن يشعر بالأمر، وقعت عيناي على عينيه، تجاهلته وكأنني أنظر إلى شخص لم أره من قبل، ثم مضيت وإذا به يقفز باتجاهي وينادني باسم غير اسمي قائلاً:

- أخ مازن.

- من هو مازن؟ أنت مخطيء اسمي ليس مازناً.

ثم أكمل اسم عائلتي، نطق باسم عائلتي الحقيقي، وأضاف:

- لقد أخبرني مدير مكتب الحركة في الكويت أنك أسرت ومعك أربعة شباب!

ما كان مني إلا أن أجبت على الفور.

- هذا ليس صحيحاً، ليس معي أحد هنا، لا علاقة لي بأي فلسطيني.. أنا يمني، إذهب إلى غرفتك، سوف تتسبب لنا بالضرب الذي لا يطاق.

ذهب إلى مكانه، وذهل الآخرون، وعدت أذرع الغرفة لأطل على أسفل الباب المحاذي للممر، إلى أن وجدت أن آسرينا قد أخلو مكانهم، فقفزت قرب هذا القادم الجديد متظاهراً بأنني آخذ وعاء اعتدنا أن نضع فيه الماء وهمست له:

- لقد أنكرت هويتي وشخصيتي، وهم لا يعرفونني، كن حذراً لئلا تكشفني، فقد انتهى التحقيق معي.

بدأ المفتاح يدور فجأة في باب الغرفة، أطل المسلحون، اقترب أحدهم مني هاماً بضربي، سبقه جسم أنثوي، إنها الفتاة ذاتها التي رأيتها في اليوم الأول، لقد سارعت بالوقوف بيني وبين المسؤول الكتائبي الذي يرافقها، لتسألني بحدة بدت لي زائدة:

- ماذا تفعل هنا؟

- جئت لآخذ هذا الإناء.

استجمعت ملامح من الزجر والجدية الآمرة بشكل واضح وقالت:

- اذهب إلى غرفتك.

رجعت إلى الغرفة الأخرى، وأنا أسأل نفسي عما إذا كانوا قد لاحظوا

من أمري شيئاً.
قبل أن يقفل المسلحون عائدين التفت أحدهم إلى الأسير الجديد العامل في الإعلام الفلسطيني منادياً إياه:

- مختار.

رد الأسير بدوره:

- نعم.

- اتبعني.

أدركت أنهم سوف يسألونه عني، قطب النهار حاجبيه، توجس الفؤاد، بكلمة واحدة منه سوف ينهار كل ذلك الصمود والاستعداد، غاب حوالي عشر دقائق طويلة، ثم أعادوه وبرحوا المكان.
لم أكد أشعر بذهابهم حتى أشرت له بالمجيء وانتحيت به جانباً لأسأله مباشرة:

- لقد استدعوكّ فماذا قالوا لك؟

- لا شيء، كنت قد طلبت أن أتحدث هاتفياً مع زوجتي، وقد حددوا لي موعداً.

قلت بحزم واضح:

- لا لم يكن كذلك، لقد سألوك ما إذا كنت تعرفني.

تغير وجهه وسألني:

- كيف عرفت؟! لقد سألوني عنك.

- ماذا أجبتهم؟

- قلت لا أعرفه.

فكرت قليلاً، عليّ أن أحذره من العواقب وأن أغريه في نفس الوقت وتابعت:

- حسناً، إن كنت قد أخبرتهم أنك لا تعرفني، فهذا أمر جيد ويعبر عن موقف وسوف ينفعك لدى الحركة بعد خروجك من الأسر، وسيؤكد على نقائك.

أما إذا اعترفت عليّ، فأرجو أن تقول لي الحقيقة كي أعرف على أي نحو أتصرف، إن عذابهم لا يطاق، دعني أواجه الموت بطريقتي وليس بطريقتهم.

تمعن في كلماتي، ثم قال لي بتأكيد واضح وكمن عزم على القرار:

- لم أخبرهم بأي شيء عنك، ولن أعترف عليك، إنني صاحب عقيدة.

ارتحت قليلاً لقوله، وارتحت أكثر لعلامات العزم التي بدت على ملامح وجهه، كان يبدو صادقاً، وأنه اختار حقاً عدم الاعتراف، مع ذلك فقد بقي في قلبي قليل من الشك، ماذا لو كان يخدعني؟ فراستي لا تقول ذلك. سأتأكد قريباً ربما خلال أقل من ساعة وفي الأكثر قبل الليل.

مضت الدقائق ولدي خوف من أن يتم استدعائي في كل لحظة، وأصبحت كل خطوة في الممر تلقي في نفسي الترقب والإحساس بالخطر، يجب أن لا ينهار في لحظة واحدة كل ما بنيته، ويجب أن لا

ينهار نتيجة صدفة قد تكون صغيرة وتافهة، أعلم أنني طيلة وجودي في الأسر سوف أبقى مهدداً بمثل هذه الصدفة أو الثغرة لكنها يجب أن لا تأتي أبداً.

جاء الليل، وبقيت استبعد كلما مرت دقيقة جديدة دون استدعائي، أعترافه لهم أكثر من ذي قبل، إلا أن احتمال ذلك لم ينتفِ من داخلي تماماً.

****

اختلطنا بالآخرين، تعرفنا عليهم، الأول أسمه محمد حسن درويش، بملامح فلسطينية هادئة وصلبة ومريحة، والثاني بسام العايش طالب جامعي يدرس في الهند، والثالث نبيل النجار، وجميعهم يحملون جوازات سفر أردنية وبإمكانهم أن يؤكدوا أنهم أردنيون، وبالرغم من ذلك فقد كان ثالثهم هو الشخص الذي وقع اختيار الكتائبيين عليه من أجل التركيز في التحقيق معه ومحاولة التأكد من حقيقته.

أما الشخص الرابع فإسمه عصام، ويحمل جواز سفر يمني جنوبي، كانوا في الحقيقة، جميعهم فلسطينيين وطلبة جامعات. وحتى نبيل النجار الذي تأخر في التحقيق وتم عزله في اليوم الأول فهو من طلبة الجامعة الأمريكية ببيروت، ويحتفظ ببطاقته الجامعية، ولديه مبرر قوي للمجيء إلى لبنان.

أعادوا نبيل النجار فيما يشبه حالة الإغماء، آثار التعذيب وبقايا الدم واضحة على جسده وثيابه. ترك منظره شعوراً آخر لدى جميع الأسرى، المسألة ليست سهلة، سرى شيء من الخوف.

أعادوا إغلاق الباب بين الغرفتين قبل أن يذهبوا، فعدنا نتبادل الأخبار من خلال التهامس من وراء الباب، وقد تولى ذلك من الجانب الآخر بسام العايش.

استمرت هذه الحالة قرابة يومين أو أكثر، كانوا يأخذون نبيل النجار صباحاً ثم يعيدونه بعد الظهر، وقد استخدموا أثناء تعذيبه كثيراً من الأساليب التي استخدموها معي، وإضافة إلى ذلك فقد أوثقوه وضربوه في الأماكن الحساسة من جسده.

صمد نبيل النجار أيضاً، أكد لهم أنه أردني، وأنه من مواليد شرق الأردن، وأنه جاء ليلتحق بجامعته في بيروت. وقد شاهدته عندما تركوا الباب بين الغرفتين مفتوحاً بعد مضي يومين أو أكثر من استئناف تعذيبه ملقى على الأرض يحنو عليه رفاقه ويمسحون جراحه.

لم تتوقف عملية استدعائه وتعذيبه، الفارق بيني وبينه أنهم لم يعزلوه.

أصبحنا نستقبله مع زملائه في كل مرة يعيدونه من تحقيقهم، وقد تحولت وحشية التعذيب وقسوته إلى لكمات زرقاء وحمراء وآثار سياط وبقع في جسده، وضربات على عينيه، وآثار دماء، وشفتين منتفختين.

استنتجت من تلميحات زملائه أنهم منتمون، وأنهم مناضلون، فأدركت أن لهذا الشاب الفتي الصامد ذي الوجه الذي يشبه وجه يوحنا المعمدان، والذي يتعرض لكل هذا العذاب، تراثاً من الكفاح.

وبالتأكيد فإذا ما سبر غور حياته فسوف تكون رواية أخرى وقصة كفاح مماثلة، فهذه الثورة مثل غابة من صنوف المناضلين والأبطال، فإذا ألقينا فيها الضوء على مسيرة فرد بعينه فإنها ليست إلا مجرد عينة، وربما ليست الأكثر عنفواناً.

ليس هذا الزخم من النضال إلا نتاج الكم الهائل من نضالات الأفراد ضمن المجموع، فنحن ذرات صغيرة ضمن محيط مليء، وكثيرون قد كثفوا حياة من البطولة وقدموها في لحظة واحدة.

عرفنا من بسام العايش أن نبيل النجار الذي يتعرض لكل ذلك التعذيب هو مسيحي فلسطيني، فتذكرت ما قاله لي المحقق عن المسيح الفلسطيني. شعرت بالاعتزاز والفخر، السيد المسيح فلسطيني، حقاً أن شعبي جدير بهذا الشرف. وهذا نبيل النجار إبن شعبي يتعرض للعذاب والوحشية على أيدي الكتائبيين من أجل فلسطينيته، وبسبب إنتمائه للنضال من أجل تحرير فلسطين.

العلاقات الإسلامية المسيحية في فلسطين علاقات فريدة، التسامح، الوحدة، الحياة المشتركة، أنها علاقات حميمة، لربما لا يخلو الأمر من شوائب صغيرة، فالكمال غير موجود، وحتى أخطاء بعض المؤمنين لدى استلهامهم للموروث الروحي موجودة أيضاً، ولكن بشكل عام فإن النموذج لعلاقات السمو الطائفي هي هذه العلاقة بين المسلمين والمسيحيين عند الفلسطينيين، تاريخنا يشهد أن رموز الوطنية من المسيحيين الفلسطينيين بالرغم من الأغلبية الإسلامية كانوا الأكثر تشدداً وصلابة إنطلاقاً من حب الوطن في طريق الكفاح من أجله.

ما الذي قادني إلى التفكير في العلاقات المسيحية الإسلامية في فلسطين، لم يسبق أن شعرت بأي فارق، بالتأكيد فإن ما قادني إلى ذلك هو الجو الطائفي المحموم والبغيض الذي أراه في هذه الحرب.

الجو في القدس مختلف تماماً، والحياة فيها مليئة بأمثلة المحبة، ولا أستطيع أن أنسى علاقاتنا التي تسمو على الطائفية فيها.

كانت عمتي تسكن في حارة الأرمن، على حافة طريق الآلام الصاعد عبر الدرجات العريضة بإتجاه باب الجديد، وكنت أقضي وقتاً طويلاً في بيتها، حيث أن أولادها أقراني، وكان سكنها وسط مجموعة من العائلات المسيحية، لم نشعر مرة واحدة أن شيئاً يفرقنا أو يفسد العلاقات الطبيعية والمعتادة بيننا.

كنت وأبناء عمتي نذهب إلى كنيسة القيامة القريبة نلتقي بالرهبان، ونسمع التراتيل ونحصل على الشموع، أو نذهب للعب وقضاء الوقت في ساحة الحرم الشريف مروراً بباب السلسلة، حيث ولدت في أحد البيوت المرتفعة المطلة عليه، لاجيء إلى هذه الحياة على أيدي قابلتين من الراهبات، ولتبدأ خطواتي الأولى بإتجاه العالم الفسيح من هذا المنبت المليء بالمعاني في القدس. كذلك كنا نهبط أحياناً بإتجاه باب المغاربة لنعبره إلى سلوان، حيث تسكن عمتي الأخرى، وحيث اعتدنا الذهاب إلى عين سلوان: لنعبر الشق الصخري المعتم في باطن الجبل على شكل ممر مغلق مليء بالماء، يصل بين فتحتي العين، إذ أن لعين سلوان منبعين متصلين عبر الشق الصخري، وكل منهما على طرف من أطراف باطن المرتفع في أسفل الوادي. وكان الرجال والصبية يستحمون أو يتسبحون في أحدهما بينما تقوم النساء في الطرف الآخر بغسل الثياب والتزود بالماء أو اللهو، وخاصة أيام الصيف.

كذلك كنا نسعى للحصول على الثمار، وخاصة ثمار التين في المنطقة حول بئر أيوب، ثم نقفل عائدين أحياناً عبر الطريق المؤدي إلى "طنطوره فرعون" وكنيسة "ستنا مريم"، كما أعتدنا أن نسميها، ثم إلى باب الأسباط.

وقد قمت في كثير من الأحيان، بالإتجاه يميناً إلى السفوح الخلفية من جبل الزيتون عبر الطريق المؤدي إلى "وادي الجوز"، ثم إتخاذ طريق "المطلع" في منطقة الصوانة"، وهي منطقة مليئة بالحجارة الصوانية الصلبة التي كنا نتسلى بقدحها ورؤية الشرر المنبعث منها.

كان أحد أفراد عائلتي يسكن في منطقة الصوانة، وهو في الوقت نفسه خال أمي، لذلك كنت أقضي أياماً في الصوانة -خاصة وأن أحد أبنائه من أقراني- لنتلهى في سفوح جبل الزيتون، وقد صدف فيما بعد أن تزوج هذا الصديق من فتاة مسيحية. حقاً أن للقدس طابعها الفريد، كل شيء فيها يختلف تماماً، فيها تنبعث روائح التاريخ وتفيض تجلياته، وتسكن الهالة المقدسة للعمق الروحي للإنسان، ولاتصال الأرض بالسماء، ومحبة الله والخير.

آه يا مدينتي، يا نجمة الصحراء الوحيدة، وغزالة القمر التي وثبت من وردة عشقت كونها، وتمددت على ضفاف الحزن تبشر بالأمل والأماني.

يا مدينتي.. يا التقاء الأغنيات على الوتر، وتراتيل السماء في مدار الزمن ومسار الحياة، يا بنفسجة وينبوعاً روحانياً لمعنى السر الإلهي في معبد الأرض، ونقطة اللقاء، ومفترق الفراق في العلاقة ما بين الحياة والامتداد، ما بين دورة واحدة للزمان وأزلية الخلود.

يا عصفورة الشوك التي اختبأت في الظلال تحمل رمز السر ومفتاح اللغز لتبقى على درب آلام البشرية والإنسان قطب مطاردة الأشقياء والأشرار قبل أن يمر الغزاة، وبعد تلفيق دعاوي الحق التاريخي في مؤتمر بال، وحتى المجيء الحتمي الدائم لرياح الخير العنيدة.

يا قدس، يا موطن الروح، ويا روح الوطن، لك الشموع والقلب

والتراتيل وخطى الشهداء وأغصان السلام عندما تتكلل بسطوع الحق، لك أسنة الرماح، وسنابك الخيل، ودورة الحياة ما بين الخلود والسرمد. لك المجد، ولأبنائك المحبة، ويا أيها المسيحي الفلسطيني الحبيب سلاماً وأنت ملقى على جراحاتك، في تلك الزاوية من الغرفة الأخرى.

ترك منظر نبيل النجار في نفوسنا وقعاً مختلطاً من التضامن والتعاطف وبلسمة الجراح، وأينع عود الند الفلسطيني في قلوبنا، وقد انعكس ذلك في انفراج حقيقي وصراحة نسبية حول حقيقتنا فيما بيننا، ورحنا نتعرف على آراء بعضنا، وحتى آراؤنا المختلفة ووجهات نظرنا المتعارضة أخذت تعبر هنا عبوراً ودياً وحميماً فيما بيننا.

أذكر أنني دخلت في نقاش حول مسألة التسوية مع بعضهم، وفي واقع الأمر فقد كانت أرضيتي التي ترفض مبدأ التسوية وأرضية هؤلاء الشباب واحدة، ولكن الاعتقاد لديهم هو أن أفكارهم ضمن خلفيتهم التنظيمية تتعارض تماماً بهذا الخصوص مع نظرة حركة فتح التي قدروا أنني أميل إليها، وربما ايقنوا فيما بعد أنني عضو فيها.

كان سهلاً عليّ أن أشرح أفكاري من البداية، خاصة وأن ميولي تساعدني، فأنا أنطلق من الإيمان الراسخ بضرورة الوحدة الوطنية، ومن القناعة بأن نضالية أي عضو في أي تنظيم فلسطيني هي محل تقدير متكافئ، وفقاً لمعايير النضال بحد ذاتها، وليس وفقاً لأي تمايز تنظيمي. بل أن إنتماء هؤلاء الشباب هو محل تقدير واطمئنان نضالي كبير من قبلي.

وعلى العموم إن الوحدة الوطنية بالنسبة لي هي في مركز الدائرة المقدسة. كذلك فأنا لا أؤمن بالإقبال على التسوية مهما كانت موازين القوى وضمن أية شروط، وذلك من حيث المبدأ أساساً فما بال الأمر

عندما يتعلق بصراع الوجود الذي نخوضه.

إنني أعتقد أن للثورة مرحلتين، مرحلة بناء القوة القصوى ثم مرحلة إستثمار الإستخدام الأمثل لهذه القوة القصوى بهدف إنجاز الحد الأقصى الممكن.

وأن تتابع إنجاز الحد الأقصى الممكن عبر المراحل هو الذي يؤدي للوصول إلى الهدف النهائي.

إننا لم ننجز بعد مرحلة بناء القوة القصوى وليس بإمكاننا الإستخدام الأمثل لما أنجزناه من بناء القوة في هذه المرحلة. لذلك فإنني أؤمن أن هذه المرحلة ما زالت هي مرحلة الحشد وتفكيك قوى العدو. كما أؤمن أن الإقبال على التسوية بعد مرحلة لم تتجاوز الثلاثة أعوام من الحشد لم يكن عملاً صحيحاً أو مؤدياً إلى إنجازات يمكن البناء عليها من أجل الوصول إلى التحرير والنصر.

ومع ذلك فقد انطلقت في حواري من الرغبة في إيجاد القواسم المشتركة بين وجهات النظر الوطنية المختلفة وفي رؤية عوامل مؤثرة يجب أن تتم رؤيتها.

بدأ الحديث بسام العايش عندما أكد أننا نواجه التناقض المشترك والخصم المشترك، كانت روحيته أكثر حرارة ودفئاً من الحديث المجرد. وقد أنطلق من مبدأ الوحدة، فنحن أمام الكتائبيين وأمام الصهاينة صف واحد، والوحدة الوطنية مجسدة هنا بعمقها، مجسدة على أرض الصراع بالإيثار الحقيقي والتضامن الروحي والمعنوي والمادي.

انطلقت بدوري من الروحية إياها وقد قلت:

- نحن شيء واحد، ولا لقاء أمتن من اللقاء فوق أرض المعركة،

والأسر جزء من المعركة.

تدخل عصام كمن أراد أن يظهر جانباً تجاوزناه بقوله:

- خلافنا الوحيد المهم تقريباً مع فتح هو الخلاف حول مسألة التسوية، وما عدا ذلك يبقى ثانوياً، لنا وجهة نظر مختلفة لكننا رفاق.

- في فتح نفسها وجهات نظر حول مسألة التسوية، ولكن التباين يبقى على قاعدة الوحدة.

- أتفق معك ولا أشكك بضرورة الوحدة، ولكنني أسألك: ألا ترى أن الخلاف حول هذه المسألة ليس خلافاً سطحياً؟.

- نعم إنه خلاف مهم، ولكن بين وجهات نظر وطنية.

يبدوا أن الحديث أخذ يشد بسام العايش باتجاه اللون الآخر الموجود في صورة واقعنا الفلسطيني، إذ أنه تدخل من جديد محاولاً تحميل وجهه تعابير الود والملاطفة والرفاقية، عندما أصبح على درجة أوضح من الصراحة بقوله:

- ثمة قوى أخرى تستثمر إحدى وجهات النظر هذه التي تتحدث عنها.

- في حالة الضعف بإمكان القوى الأخرى أن تستثمر أياً من وجهات النظر إذا لم يكن هناك وعي كامل ووضوح رؤيا.

للقوى المضادة أكثر من لون وشكل وهوية، إلا أنها تتكامل في المخطط،

تتكامل من خلال التنسيق، ومن خلال أداة الضبط العليا.
شجعت إجابتي بساماً على مزيد من الصراحة، ولمحت إختفاء الحذر من قسماته وهو يقول:

- ليس هذا فحسب، بل هناك عناصر غير وطنية بأغراض مشبوهة تمتطي وجهة النظر المرحلية بقصد إدخالنا في دوامة التنازل.

ثم استدرك قائلاً:

- وأرجو أن تدرك أنني لا أقصد فتح ولا أريد أي تشكيك.

- بالعموم أتفق معك وأضيف أن وجهة النظر الأخرى أيضاً معرضة للإندساس عليها. بل أنني أعتقد مثل ما تعتقد أن هناك خطورة في تبني المرحلية التي لا تفتح الطريق أمام مرحلة أخرى أكثر تقدماً منها. وفي المقابل أعرف مناضلين حقيقيين يؤمنون عن قناعة وإخلاص أن الإنجاز المرحلي خطوة إلى الأمام في كل الظروف.

- من أي منطلق؟

- حسناً دعني أشرح قليلاً، وسوف أتحدث في نطاق النوايا الوطنية وعلى أرضيتها. الآخرون الذين ينطلقون من ارتباطاتهم أو ذوو الحسابات المجيرة فهو حديث آخر.

نحن جميعاً ننطلق من هدف تحرير وطننا فلسطين، وقد أجبنا في البداية عن سؤال: هل يمكن تحقيق هذا الهدف بحتمية ذلك، ولكن هناك سؤالاً يتبع: هل يمكننا أن نحرر فلسطين في هذه المرحلة العالمية بالذات

تحريراً كاملاً؟ هناك عدة إجابات وطنية: تقول الأولى نعم، نستطيع بمواصلة الكفاح المسلح أن نحرر فلسطين.
وتقول الثانية، نستطيع في هذه المرحلة أن نوقف التمدد الصهيوني، وفي هذا تكمن بداية الإندحار للكيان الصهيوني، بل وبداية إنهياره الذي سيتم حتماً في المرحلة التالية.
يؤكد أصحاب هذا الرأي أن وقف التمدد الصهيوني سيؤدي إلى الإنقلاب التاريخي، إلى بداية العد العكسي، فصلاح الدين الأيوبي لم ينه الوجود الأوروبي في بلادنا، كل ما فعله أنه بمعركة حطين وتحرير القدس أوقف إمكانية التمدد الأجنبي، بعد صلاح الدين بمئة سنة انتهت الفرنجة، واستطاعت المنطقة أن تهضم بقاياهم.
إن خطوة مثل خطوة صلاح الدين من شأنها أن توقف المد الصهيوني وسوف تؤدي إلى تحريك عوامل التحلل الذاتي للوجود الصهيوني، وتعطيل دوره كركن أساسي في نظام السيطرة الاستعماري بالتدريج.
وذلك ما سوف يؤدي في ظرف موضوعي مؤات وعبر استخدام العوامل الداخلية والخارجي، إلى إنهيار هذا الكيان وقيام مجتمع ديمقراطي يرتبط بالمنطقة تاريخياً، وبالأمة العربية عضوياً هذه الرؤية وطنية ولها منطقها الوطني أيضاً.

- ولكن ما هو رأيك في وجهة النظر الأخرى؟

- أريدك أن تعرف أنني بالذات من المؤمنين بوجهة النظر الأخرى، لأنني أعتقد أن الصراع على فلسطين ما زال يحمل من التعقيدات أكثر مما يبدو لنا، وأن موازين القوى تحتاج إلى استمرارية

العمل بقوانين مرحلة الحشد وما تعنيه من تعبئة معنوية ومن استنهاض لحوافز الأمة وروحها، أنني أعتقد أن استمرار الكفاح هو الذي يبقى قضية فلسطين على جدول أعمال العالم وأن استمرار الصراع متفجراً هو المناخ المناسب للضغط على المجتمع الصهيوني، ولزيادة وتيرة التحدي على قدرة تحمله، وذلك من أجل تعطيل تحريك عوامل تحلله الذاتية وإحياء تناقضاته الداخلية من ناحية، ومن أجل دوره في النظام العالمي الاستعماري وتحويله إلى مصدر عبء على هذا النظام.

استمرار الصراع وإنعدام الأمن لهذا الكيان يدفعان بالمهاجرين اليهود في النهاية للعودة إلى أوطانهم، إذا لامسوا سخونة الصفيح المحمي سوف يرحلون، وإذا لم نتمكن من استكمال التحرير في هذه المرحلة بفعل الظرف الموضوعي غير المؤاتي، فإنه يصبح مضموناً في الغد.
ومما لا شك فيه أن الأمر يحتاج إلى قدرة على التحمل من قبلنا، ويحتاج إلى إرادة عربية مساندة، ويحتاج إلى خوض غمار الحرب دون الخشية من تضحياتها واحتمالاتها ومنها الاحتلال وضرب العواصم والمعاناة والشهداء، والانتصارات واحتمالات الهزائم ثم الانتصارات، كل ذلك سوف يؤدي بالنهاية إلى إنهاك العدو وتبديد قواه واستنزاف أداته البشرية وإرغام القوى الدولية على إعادة النظر في مساندتها له.
قاطعني عصام ملاحظاً:

- واضح أن هذا لا يتوقف على إرادتنا وحدنا.

- صحيح بل وأن التعقيدات الناشئة من هذه الحقيقة بالذات هي أحد الدوافع لأصحاب الرؤية الأخرى، هناك اعتقاد جازم أن

معادلة الأنظمة تصب في إتجاه قبول الأمر الواقع ضمن موازين القوى القائمة وقناعتي أن عدونا ضمن موازين القوى القائمة هو الأقدر على فرض شروطه ومراوغتنا.

بشيء من الحماس والإيمان اندفع بسام يشرح وجهة نظره ويبسط رؤياه كمن أراد أن يكمل شيئاً من الحديث لم أقله وقد قال:

- أريد أن أناقش الرؤية الأخرى، وجهة نظر التسوية من جانب لم يتم تناوله:

أولاً: أن سياسة التسوية هي سياسة أمريكية والقصد منها إدخالنا في دوامة من التنازل والسراب نصل من خلالها إلى التفريط والإنهاك وتؤدي إلى انتقال التناقضات إلى داخل صفوفنا العربية والفلسطينية.
ثانياً: إن مرمى هذه السياسة هو تكريس السيطرة الأمريكية على المنطقة وإتخاذها أشكالاً مباشرة.
ثالثاً: يترافق بذلك الحفاظ على الكيان الصهيوني وعلى قوته وقدرته التوسعية وزيادة المراهنة عليه وتعزيز دوره.
وعليه فأن صفوف التسوويين تجمع فيما تجمع السماسرة الذين توجههم القوى المضادة، والانتهازيين والمفرطين، إضافة إلى أصاب الإجتهاد الوطني، وهو ما يعني أن هذا الخندق هو خندق مضعضع وطنياً، ولا يمكن المراهنة عليه. من الذي يستثمر مربعات التقاطع مع خطوط الولايات المتحدة؟، بالتأكيد انها الولايات المتحدة، وماذا تريد لنا الولايات المتحدة؟ إلغاء ثورتنا ومنجزاتنا وتدمير حركة التحرر العربية بأسرها.

- حقاً أن الولايات المتحدة تريد ما هو أسوأ بكثير من كل تصوراتنا، وكما قلت فإن سياستها الحقيقية هي ملء الفراغ الذي تحدث عنه أيزنهاور في الواقع الإقليمي لمنطقتنا، ولدى ملء الفراغ فإن الطريق مليء بالكوارث والمراوغة والخداع.

ما تقوله هو المنطق الذي أعتقد به، ولا استطيع أن أدحض ما أعتقد به، ولكنني لا أنكر وجود جانب من الحقيقة في إعتبارات ذوي الرؤية الوطنية في الرأي الآخر. هناك منطق منسجم مع نفسه ينطلق من الممكن في غضون المنظور ويأخذ بعين الاعتبار البعد الدولي ودوره المتزايد بفعل تزايد الجبروت التكنولوجي والتسليحي للدول الكبرى، منطق يعتقد بضرورة توفر معادلة عربية دولية مؤاتية لتحقيق الهدف، ولا يرى إمكانية لمثل هذه المعادلة في نطاق المنظور على أكثر من البرنامج المحلي، بل ويعتقد أن هذا بحد ذاته ليس سهل المنال، لذلك فإنه يطرق باب الممكن على أساس بذل المجهودات القصوى المتاحة، وهذا ما يدخله في دوامة التقاطعات والمساومات، والبعض جريء إلى حد المقامرة، حيث أنه لا يرى خياراً آخر.

نظر عصام إلى رفيقه وبشيء من الموافقة سألني:

- ما هو الحل في رأيك بين المنطقين؟ بين منطق تؤمن به، وآخر لا تؤمن به، ولكنك لا تنكر الموقع الوطني لبعض معتنقيه، أو وجاهة جزء من اعتباراتهم؟.

- إنني أؤمن أن الأرضية الموضوعية لتحقيق ما يجري الحديث عنه في دائرة الممكن المرحلي ما زالت غير متوفرة، لا بد من استمرار

الحشد وتجميع القوى، لا بد من الاستمرار في الاستنهاض الأقصى لقدرات الأمة، وفي الجانب الآخر يجب أن تكون هناك ضوابط وثوابت، ليست الثوابت التي من قبيل المقولات اللفظية المعممة بل الثوابت التي تنطبق عليها النظرة العلمية العملية لقوانين الصراع وتنعكس في حقائق مادية.

تتباين وجهات النظر بين الوطنيين على أرضية الوحدة والتماسك. ويتم التحرك السياسي الخارجي على أرضية عدم تبديد الأوراق أو النيل من قوانا الذاتية.

هذان المفهومان هما القانون لهذه المسألة.

- المهم أي خيار سوف يسود في النهاية؟

- الخيار الذي تفرزه نتيجة المعادلة بين إرادتنا ومحصلة القوى، أما معادلة القوى غير الفلسطينية فإنها تصب في خيار التسوية، وفي رأيي فإن مخاض التسوية لن يسفر إلا عن الآلام والتراجعات والإحباطات والإخفاقات، وفوق ذلك إحكام قبضة الولايات المتحدة. دخول الدوامة هو المطلوب ليس إلا.

- ثم ننتهي في هذه الدوامة؟

- الخصوم يريدون لنا أن ننتهي، ولكننا لن ننتهي ابداً، وحتى لو فشلنا في انجاز شيء أو تحقيق تقدم على طريق النصر، فإن موجتنا القادمة ستندلع حتماً، أما عدونا فسوف يتفاقم خطره كمشكلة للمنطقة بأسرها، وهذا أحد حوافز الموجة الشاملة.

المهم فإن علينا أن نعرف كيف نجتاز العصور بثبات، إذ أننا أبناء عصر الحروب والسياسة، هذا هو الميسم الطاغي على ملامح عصرنا، بينما ملامح الآفاق تحمل التباشير لعصر الاقتصاد والتكنولوجيا.
ذلك العصر ستكون له خصائص أخرى، وظروف أخرى، وربما علاقات دولية أخرى، ولا ندري إلى أين سوف تؤدي بنا.
إن الصلابة والثبات والاجتياز الصحيح للعصور هو أساس النصر.

***

قبل أن يترك الكتائبيون الباب مفتوحاً بين الغرفتين من جديد -إذ أنهم عاودوا إغلاقه مع استمرار استدعاء نبيل النجار إلى التحقيق وتعذيبه- سمعناهم يخرجون رفاقه أيضاً ويذهبون بهم، وبعد برهة حضروا وفتحوا الباب المفضي إلى غرفتنا ثم أمرونا بأن نقف صفاً واحداً وقادونا إلى الممر فدرج البناء قرب المصعد، وصعدوا بنا إلى الطابق العلوي وأبقونا في إحدى غرفه.
حضر بعض الأشخاص الذين نراهم لأول مرة، تكوّن لدي حدس أنهم يحاولون تمرير وقت معنا، إذ راحوا يسألوننا واحداً واحداً بعض الأسئلة فيما يشبه التحقيق غير الجدي، تشككت بالأمر، سمعت أحدهم يتحدث بلهجة مصرية.
شاغلونا لمدة ساعة تقريباً، ثم قادونا صفاً واحداً إلى درج البناء عائدين بنا، جاء أحدهم من الطابق الأسفل مسرعاً وطلب أن نتوقف، بعد فترة حضرت فتاة مسلحة وأشارت للمسؤول الذي ينتظر عندنا بقولها:

إنتهى.
أمرونا بالنزول، وقد استغرقت أسأل نفسي: ما الذي انتهى؟! ماذا فعلوا؟! ربما وضعوا شيئاً في غرفتنا، لهذا السبب أخلوها منا لهذا الوقت.
عندما أدخلونا لم يغلقوا الباب بين الغرفتين، أغلقوا الباب الخارجي فحسب، وانصرفوا لإحضار الآخرين.
أشرت إلى زملائي بيدي، ورسمت الكلمات رسماً على شفتي لكي لا يخرج أي صوت موضحاً أنهم ربما يكونوا قد وضعوا أجهزة تنصت أو تسجيل.
فتشنا الغرف، تتبعت، وجدت قرب المنضدة الداخلية، تحت النافذة التي تطل على البحر جانباً من "الموكيت" في أرضية الغرفة، على غير حالته السابقة أزحت بعض الأغطية عن فتحة خلف المنضدة وتحت النافذة، وجدت جهازاً، وأشرت للآخرين أن يروه، أكدت لهم أن هناك تنصتاً علينا، وأن الواجب أن نتحدث بشكل اعتيادي دون الوقوع في الفخ الذي نصبوه لنا، تحدثت بالإشارة والهمس الخفيف، وقد فهم الجميع.
حضر الآخرون، وضحنا لهم الأمر، علينا أن نقلع عن الحديث حول الأمور التي قد توقع بنا، فلعل نقاشاتنا هي التي لفتت انتباههم لكي يتجسسوا علينا.
استوعب ذلك جميع الأخوة، وحتى عندما أحضروا نبيل النجار فيما بعد، كانت تعليمات الأخوة موجهة بقصد إسماعهم إلى درجة أن بعضها كان زائداً عما يلزم، مما حدا بي أن أشير بالكف عن بعض الحديث، لأنه سيجعلهم يفطنون إلى أننا كشفنا لعبتهم.

هكذا تمضي لعبة الذكاء بيننا، فقد تخلصت خلال أيام قليلة من فخين كبيرين: المختار وجهاز التنصت.

لم أعد أذكر ذلك اليوم الذي فوجئت به بوصول وجبة إفطار شهية لنا من فطائر الزعتر "المناقيش"، ملفوفة بصحيفة حديثة، أخذتها بلهفة شديدة، إنها مليئة بالبقع من آثار الزيت، ومع ذلك رحت أقرأ فيها بنهم أخبار الوضع في لبنان، وأخبار المعارك والتحركات السياسية، وجدت خبراً بارزاً، قرأت تفاصيله، إنها بنود إتفاق موقع في الرياض بين القائد العام والرئيس السوري.

أراحنا الخبر، وقد سألت نفسي عما إذا كان وصول الصحيفة لنا عفوياً، قدّرت أنه كان مقصوداً، إذن فإن يداً تتعمد إيصال شيء من الإطمئنان إلى قلوبنا، وهي التي جعلت هذه الصحيفة تصل إلينا، كذلك لم أعد أذكر اليوم الذي إدلهمت فيه سماء آسرينا، راحوا يأخذوننا واحداً واحداً، ابتدأوا بالأخ عصام، عصبوا عينيه وذهبوا، ثم أخذوا غيره، عاد الجزء الأول مشبعاً بالضرب، ثم الجزء الثاني وهكذا.

أسرت لنا رئيسة الحرس أن معركة قد تمت في قرية العيشية، وأن خسائرهم كانت باهظة، إذن لقد أفرغوا غيظهم فينا.

قبل أن يعودوا إلى إشباعنا ضرباً وتعذيباً، بعد عدة أيام من هذا الحدث، وجدنا أنفسنا في راحة من إيذائهم، ثلاثة أو أربعة أيام مرت بدون استدعاء للتحقيق، وبدون توتر سوى الإنتظار.

قضينا معظم هذه الأيام نتبادل الأحاديث مع بعضنا، أما في الأمور التي لا نريدهم أن يعرفوها، فقد صرنا نتهامس حولها في زاوية بعيدة عن منطقة التنصت كما قدرناها، تتقبل حاجتنا إلى الكلام الحذر، ولكنها لا

تطيق الامتناع.

إنزوى بي بسام العايش ليسر لي أنه قد لاحظ تأثيري على جميع الأخوة، وأنه يعتقد بأنني رجل مسؤول في الثورة، وخاصة بعد نقاشنا، ولذلك فقد قرر أن يكاشفني بأمر احتفظ به.

قال لي بسام العايش أنه في ليلة إعتقالهم سمع بنفسه المختار يفصح للمحققين عن إتصال سابق له مع المكتب الثاني اللبناني، وعن مساعدات قدمها لأحد الأشخاص الكتائبيين أثناء إحدى الأزمات العنيفة بيننا وبينهم وأسمه "شارل سعد"، وأن الكتائبيين أشاروا لبعضهم أن يتأكدوا من هذه المعلومات، ثم أكد لي بسام أن ذلك هو سر حسن معاملتهم له وعدم إيذائه، ومنحه هذا الغطاء الصوفي.

تجاذبت أثرها أطراف الحديث مع المختار، حتى تقربت من الموضوع، طرقته طرقاً غير مباشر، سألته في البداية لماذا يدعونه المختار، فأجابني أن ذلك هو أسمه في جواز السفر الذي يحمله، والذي حصل عليه عن طريق المنظمة.

وفي واقع الأمر فإنني ما زلت لا أعرف ما إذا كان هذا هو أسمه الحقيقي أم لا، فمعرفتي به تقتصر على الوجه ليس إلا.

جعلته بعد الاستيضاح عن أسمه يصل إلى طريقة تعامل الكتائبيين معه، فأفاد أنه بيّن لهم بأن له أياد بيضاء أثناء الحرب على بعض الموارنة، ومنهم شارل سعد، وأنهم تأكدوا من أقواله بعد أن أجروا إتصالاتهم، فأمنوه على حياته وأحسنوا معاملته، وأضاف أن سبب خروجه أصلاً من بيروت كان بغرض تسجيل أبناء أحد الأخوة مسمياً لي إياه في مدرسة يديرها شارل سعد خارج لبنان.

زادت بعد هذا الحديث تحسباتي من المختار، وزاد إحساسي بأن المساومة معه قد أجدت، أنه لا يرغب في إيذائنا، ويريد أن يمد يداً بيضاء للحركة، ويبدو أنني عندما ساومته لامست ذلك أو أثرته في أعماقه.

أصبحنا نجلس مع بعضنا البعض نتبادل النكات والأحاديث، ونستمع أحياناً إلى البحّار أبي مروان، الذي كثيراً ما حدثنا عن البحر وعن حكاياته في الإبحار والتجوال، استمعنا له بشغف واستزدناه، وسألناه في أمور شتى، ولامسنا فيه الخبرة والحكمة والمعرفة المستقاة من التجوال ومشاهدة العالم،وجدنا فيه الشجاعة والصبر والدراية.

أصبح أبو مروان موضع سري وثقتي، وكذلك فقد تأثر به جميع الرفاق الأسرى، إنه رجل ضخم بملامح أبيّة وصلابة تعززها التجربة وطول السنين، صورته أشبه بصورة أسطورية.

كثيراً ما استغرق بعض الأخوة في الاستماع إليه مشدودي الحواس وهو يتحدث إليهم في أمور شتى، عن الحيتان وأنواعها، وأين صادف كل نوع منها، عن البحر وأعماقه، عن حياة الصيادين وصراعهم مع البحر وحبهم له، عن فلسطين وتعلقه بها، عن أسرته ومعاناتها.

بدأ أبو مروان حياته صياداً في حيفا، وأصبح بحاراً في مطافه الأخير، وقد عاش حياة الصيادين ثم حياة البحارين، فاكتسب خبرات البحر جميعاً، وقد أدرك أعماقه وتقلباته وطبائعه، وعاش في خضم هذه الحياة حالات اللجوء والكفاح والفقر بكل أبعادها.

جميع هؤلاء الذين حول أبي مروان هم من الفقراء، الذين استمعوا بشغف لقصصه عن معاناة أسر البحارين البائسين، وكدح الصيادين وكفاحهم.

أجلت نظري في إحدى المرات بين هؤلاء الرفاق الأسرى، كلنا من أبناء الفقراء، ليس بيننا إبن أسرة غنية، وحتى أنا الذي أنتمي إلى عائلة فلسطينية معروفة بثراء الكثيرين منها، فإنني إبن أسرة فقيرة نشأت مع الكفاح من أجل العيش والتعلم، وعندما اضطر والدي للهرب إلى الكويت، أصبح يوزع موارده القليلة بين أسرته وتعليم أبنائه توزيع الكفاف، ومن خلال التعرف على هؤلاء الذين معي في الأسر وجدت أن بعضهم يعاني أكثر مما عانيت، وأن أسرهم تعاني أكثر مما عانت أسرتي، وأنهم مثلي، أشتغلوا في صغرهم، كدوا وعرقوا ليحصلوا على القليل الذي يساعدهم على أود الحياة. وهم يتابعون الآن تحصيلهم العلمي بكفاحهم وكفاح آبائهم أو أشقائهم.

وجد أحدهم جهة تعينه على التعليم، وهو إبن أسرة متوسطة الحال، بل أقرب إلى الفقر، أما الآخرون فهم أبناء فقر شديد يتطلعون للتخلص منه.

بينما كان غير الطلبة منهم عمالاً من مختلف المجالات، الحداد، النجار، الأجير في أحد المحلات التجارية .. الخ.

كثيراً ما أستغرق سامي الليل وهو يجهش بالبكاء عندما يحدثنا عن والده الأعمى ويردد: إن والدي يحتاجني، لا يوجد أحد غيري له، إنه فاقد البصر.

حدثنا رفيقه محمود الحلاق عن سوء الحالة ومستوى البؤس الذي يعاني منه سامي الليل، ناهيك عن الفقر الذي يعاني منه محمود نفسه، وبعد أن أصبح مطمئناً لي تماماً كشف لي عن صلته مع محمد دغمان، من المقاومة الفلسطينية، فاجأني الأسم، محمد دغمان صديق أعرفه تماماً وأعرف

انتماءه، فقد كان زميلاً لي في دورتنا العسكرية في الإتحاد السوفياتي، كنت المفوض السياسي للدروة، وكان محمد دغمان عضواً مميزاً ولامعاً ومهذباً. تظاهرت بعدم معرفتي لمحمد، إلا أن المكاشفة قد أضافت جديداً إلى إلمامي بخلفية رفاقي الأسرى، وقد تأكدت في النهاية وفيما بعد أنه لم يكن هناك أسير واحد غير منتم إنتماءاً نضالياً.

ساعدني ما وصلت إليه من معرفة حول رفاقي في مواصلة خطتي للعمل التربوي، ولشحن الحوافز بشكل مستمر، من خلال العمل المشترك والتوجيه وإظهار النموذج، ومخاطبة الجذور الملتزمة لكل واحد منهم. وكان هدفي الأول هو صقل الصلابة وتحريك التحدي اليقظ.

تتسم تجربة العمل التربوي في الأسر بطابعها الخاص وأهدافها المحددة، وقد قررت أولوية أهدافي منها وفقاً لحاجات الأسر ذاتها. ووجدت خصوصية بهذا عما سبق ومارسته سواء أكان من خلال عملي مفوضاً سياسياً أم آمراً لمدرسة الكوادر الثورية في قوات العاصفة.

كان هدف عملنا السياسي الأول في القوات من خلال جهاز التفويض السياسي هو بناء قوات من نمط جديد وبتقاليد جديدة. وقد تكرس هذا الهدف للجهاز بعد أن أصبح الأخ هاني الحسن مفوضاً سياسياً عاماً، حيث جاء مسلحاً باطلاعه على التجربة الصينية وبتلك المعايشة مع المقاتلين وخاصة في القطاع الجنوبي.

من خلال الحس المشترك بأولوية العمل السياسي أصبح هناك توافق حقيقي في العمل من أجل بناء قوات من نمط جديد وهو الأمر الذي اصطدم اصطداماً مريراً بكل العوامل المضادة.

بل وآلت التجربة إلى نفس الدرجة من الاصطدام في ظل تولي الأخ

ماجد أبي شرار لهذه المهمة فيما بعد، إذ أن ماجداً قد امتلك من بُعدٍ آخر كل ذلك المقدار من الوعي السياسي وصفاء التعامل والإخلاص للأهداف.

في مدرسة الكوادر تمكن العمل الدؤوب أن يزرع وأن يبني الكثير. لقد وضعت خطة التربية الشاملة. وانطلقت من اعتقادي أن الذات البشرية تتشكل من أربعة عناصر أو عوامل، وهي النفس، والروح، والعقل، والجسد.

وأن لكل عامل من هذه العوامل وظيفة أساسية، وخاصية أساسية تكمن فيها فضيلته أو صفته الحميدة.

ووفقاً لهذا الاعتقاد فإن فضيلة النفس هي الشجاعة وقوة الإرادة أو صلابتها، وفضيلة الروح هي الوجدان السليم والضمير الحي، وفضيلة العقل هي المعرفة والوعي، أما فضيلة الجسد فهي العمل والحركة.

هذه هي الخصال الأساسية للذات الإنسانية، وهي محور للخصال الحميدة الأخرى، وهدف أية عملية تربوية يجب أن يكون رفع سوية هذه الخصال وفقاً للاتجاهات المطلوبة والقيم الخاصة أو خصائص الرسالة.

اقتضت تجربتنا في مدرسة الكوادر وضع خطة برفع مستوى الفضيلة لكل عامل من عوامل الذات الإنسانية بالأساليب المباشرة، وغير المباشرة، عبر التثقيف النظري، وعبر الممارسة، والتوجيه غير المباشر، ومن خلال تنوع البرامج.

قامت مدرسة الكوادر العسكرية بواجبها التربوي في الظروف القتالية المختلفة، وتحت وابل الغارات وفي غمار تهديداتها، وذلك منذ أن

تأسست في أحراش جرش في الأردن.

وقد كان من ضمن هذه الغارات تلك الغارة المؤثرة التي أصابت إحدى دوراتنا إصابة موجعة، أثناء إجراء أحد مشاريع التدريب العملي في معسكر المنطار على الساحل السوري جنوب طرطوس وهو المعسكر الذي يقوده المناضل العملاق منذر أبو غزالة[4]*.

استشهد سبعة قادة من أفراد المدرسة وعلى رأسهم نائب آمر مدرسة الكوادر الشهيد محسن عويضة.

كان محسن أحد القادة الحقيقيين الذين آمنوا بمهمة إعداد الكادر العسكري إعداداً متكاملاً ضمن طموحنا لبناء قوات بمواصفات جديدة ومتميزة.

قدمت مدرسة الكوادر عبر مسيرتها الصعبة رتلاً من الشهداء الشجعان ضرغام لطفي، رفيق أبو سيدو، ثائر منظم، مصباح البطاط وغيرهم.

وكان ذلك كله في غمار هذا العمل التربوي الشامل ذي الاتجاهات الرئيسية الأساسية.

أما هنا وفي هذا الأسر بالذات، فإن الأساس الذي وجدت أنه يشكل أولويتي هو رفع درجة الصلابة وغرس روح الإيثار والتضحية بالتوجيه المباشر، والولوج من الأشياء الصغيرة لتكريس المعاني الكبيرة.

إن كسب الثقة، وإعطاء النموذج السلوكي، وغرس روح التضامن، هو الأساس، وأن شحن الحمية المستمر، واستنهاض الحوافز هو الاسلوب المناسب.

٤ استشهد المناضل منذر أبو غزالة في عملية تفجير استهدفته في أثينا*

وقد دأبت على العمل في هذا السبيل، في كل فرصة ومناسبة وتمكنت أن أجعل المداخل الصغيرة، والصغيرة جداً جسوراً للمعاني الكبيرة والمعنويات المرتفعة.

أصبحت أوقات هدوء المعارك أكثر من ذي قبل وصرنا نشاهد في الصباح عودة الحياة إلى المنطقة الشرقية من بيروت، الباعة، العربات، الأسواق، وحتى الدوام الوظيفي لأفراد حزب الكتائب، ومن بينهم رئيس هذا الحزب الذي كثيراً ما شهدناه يأتي بسيارته الأمريكية السوداء إلى مقر "الصيفي" في الجهة المقابلة.

أما أوقات الصحو فقد أصبحت أقل، وكثيراً ما احتجبت الشمس وادلهمت السماء وفاضت الأمطار، كان الميناء الذي أمامنا خالياً من أية حركة أو نشاط.

راقبت البحر والمطر والميناء، في أوقات اشتدت الرياح وهطلت الأمطار، واتخذت الدنيا لوناً رمادياً داكناً انعكس على الأزرق الغامق المشوب بابيضاض الزبد. شاهدت قارباً صغيراً أفلت من مربطه لتتقاذفه الأمواج على مدخل الرصيف، بينما ثلة من طيور النورس، مجموعة صغيرة متبقية تحط على الماء، تستكين على سطحه الرجراج مستسلمة بهدوء لهدهدة الموج، لا أدري كيف تأقلمت هذه الطيور بين البحر والعاصفة. الفارق كبير بيننا وبينها على الرغم من أننا أيضاً وقعنا في منطقة التجاذب القاسي بين البحر والعاصفة، ومثلما قاومت أجنحتها فقد قاومت أجنحتنا، ونحن ثلة قليلة استفردت بها الأنواء، وسكنتها إرادة الحياة.

في الطرف الآخر، حيث البنايات ظهرت معالم التدمير وآثار الحرب،

والأسود المتبقي من رمادها، البنايات المخروقة، والجدران المحترقة. والإنهيارات والهدم، وبقايا القذائف، والسيارات المدمرة والمخلفات المتناثرة للمعارك.

مر بخاطري شبح ايلول من عام 1970 في عمان، ليذكرني بذلك الشريط المليء بالمآسي: قلت في نفسي ما أصعب الحروب الأهلية، وما أقساها وأعندها، وهذه الحرب اللعينة القذرة إلى متى وإلى أين؟! ماذا يريدون من ورائها؟

وجدت الجواب المحدد وهو أنهم يريدون تمزيق لبنان، وضرب القاعدة المادية للثورة الفلسطينية وإخراجها من لبنان.

إن إنهاء القاعدة الصلبة للشخصية الوطنية الفلسطينية يسمح بتمرير مسار تسووي خادع تحقق من خلاله الولايات المتحدة استكمال زرع النفوذ الأمريكي في المنطقة وتصفية الخطوط الخارجة عن إرادتها أو التي تنافسها، ويتخلص فيه الكيان الصهيوني من خصمه الأساسي وهو الوطنية الفلسطينية المجسدة في هذا التواجد والنضال المسلح للثورة الفلسطينية، ويوسع نفوذه الأمني ربما سيطرته على منابع المياه حتى نهر الليطاني.

عندما تم إقتلاع الثورة الفلسطينية من الأردن، تم في نطاق مخطط يشمل المنطقة، هدفه أن يتيح لخيار التسوية الأمريكية أن يكون هو الخيار السائد فيها. ومنذ حرب تشرين انتقلت المنطقة باتجاه مفصل جديد على طريق التمهيد من أجل خلق مناخات التنفيذ.

كانت الثورة الفلسطينية وظاهرة الجماهير المسلحة التي أنشأتها في الأردن تشكل أحد العوائق الأساسية أمام الخيار الأمريكي الذي من

شأنه أن يجعل الولايات المتحدة تزيد من نفوذها في المنطقة وأن تطبق ولو بثياب جديدة مبدأ أيزنهاور "ملء الفراغ" تطبيقاً شاملاً.

نفذ هذا الإقتلاع في ظل معادلة عربية ودولية، وعندما أتى دور المفصل الجديد بعد حرب تشرين وجد أن الثورة الفلسطينية قد جددت ظاهرة الجماهير المسلحة وأجادت الانتقال إلى لبنان، فأصبحت عائقاً أمام الانطلاق من هذا المفصل الجديد. فكان لا بد من اجتثاثها وإنهاك المنطقة وتركيع الجميع، وزيادة التشرذم وإبراز شخصيات الطوائف وتعميق التناحرات.

بدأت هذه الحرب باستخدام القوى الانعزالية، إلا أن معارك الجبل والدامور قلبت المعادلة، فأدخل الجيش اللبناني بديلاً للقوى الانعزالية التي أصبحت في المأزق. ونشبت على أثر ذلك حرب الثكنات مما أدى إلى إنهيار الجيش وتمزقه وإنقسامه بين مجموعات التحقت بالجبهة اللبنانية ومجموعات شكلت جيش لبنان العربي، فسقطت إمكانات استخدام قوى لبنانية وفتح الطريق أمام احتمال تحويل لبنان إلى قاعدة ثورية موحدة بنظام وطني لبناني بكل ما يعنيه.

تدخلت المعادلة والحسابات من جديد، ودخلت سوريا الصراع وتصاعدت المعارك مرة أخرى، وتجدد القصف والدمار واحتدم القتال، وتم إحياء قوى الجبهة اللبنانية، وعاد القتل على الهوية، ووجدنا أنفسنا أسرى هذا القتال البغيض، الذي زرع أحقاداً من الصعب أن تتوقف.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أتعرض فيها للأسر، إذ يبدو أن لي حظاً مع العام الثالث والعام السادس من كل عقد للوقوع في مأزق ينال من

حريتي، فقد سجنت في عام 1963، وكذلك في عام 1966، وأنا الآن في عام 1976 مقيد اليدين في الأسر، وسبق أن وقعت في أسر الجيش الأردني إبان حرب تشرين عام 1973.

بدأ اشتراكي بحرب تشرين عندما صدر لي أمر بالتحرك على رأس قوة من مدرسة الكوادر وبعض العناصر الأخرى إلى لبنان، كنت في ذلك الوقت آمراً لمدرسة الكوادر الثورية في قوات العاصفة، وكان عماد هذه القوة هم تلاميذ المدرسة إضافة إلى كادر المدربين والإداريين الذي لم يكن يشكل قوة بحد ذاته.

اتخذنا مواقعنا في الجنوب، صدر لي أمر بأن أشكل فصيلاً من قوة المدرسة تنضم إليه مجموعات من تشكيلات أخرى إلى الجوار مثل تشكيل القوة التابعة لجهاز شؤون الأردن، للقيام بهجوم بقصد الإشغال والإرباك على منطقة رويسات العلم.

تقرر أن أقود الهجوم، وتم إنتقاء أفراد قوة الهجوم وترتيب المجموعات ودراسة المعلومات المتوفرة، وقررت أن أذهب للاستطلاع.

وجدت من المعلومات المقدمة لي ومن مشاهدتي للموقع أن أي تقدم باتجاه هذه القلعة الحصينة في قمة جبل يحتاج إلى تمهيد مدفعي، وإنزال جوي مع تقدم بري مباغت في آن واحد، ولم يكن ذلك متوفراً خاصة بالنسبة إلى أية قدرة على الإنزال الجوي لدينا. تساءلت في نفسي عن معنى هذا الهجوم، لكنني لم أبد تحفظاً بسبب شدة حماسنا للمشاركة في الحرب، حيث أنها ما زالت في بدايتها، وجميع المقاتلين يتسابقون للاضطلاع بواجب ما.

تأكد لي تقدير الموقف الأولي الذي توصلت إليه من خلال الاستطلاع،

عدت إلى قاعدة الإنطلاق مبقياً مفرزة لإدامة الاستطلاع وإجراء مزيد منه.

تمت مناقشة الأمر بغيابي مع القائد العام، وقد أثار لديه الأخوة من كبار القادة العسكريين مسألة هذا الهجوم فاتخذ قراره إلى جانب رأيهم لأجد أمامي ذلك القرار بوقف العملية نتيجة للاعتقاد أن هذه القلعة تحتاج إلى اسلوب آخر للهجوم عليها.

واجهتنا مشكلة حاجة الوحدات الميدانية إلى القادة، أرسل لي بعض قادة الكتائب يطلبون استرداد بعض كوادر كتائبهم المتواجدة في مدرسة الكوادر، ومع أنني كنت أدرك وجاهة مبرر هؤلاء إلا أنني لم أكن راغباً في ضعضعة القوة التي بأمرتي أو تقليصها خاصة وأننا نقف على محور قتالي هام بعد أن صارت جبهة القتال الثالثة مشتعلة، وقد انخرطنا في الواجبات إلى جانب الوحدات الأخرى في الجوار، وأصبحنا نقوم بجميع مهامنا بشكل متميز، دخلت في مناقشات ملحة مع زملائي من قادة الكتائب، وعندما أصبح طلبهم عاماً بحثت القيادة الأمر، وسألني الأخ نائب القائد العام عن رأيي، وشرح لي الحاجة إلى بعض الكوادر على الجبهة الساخنة في الجولان، والوضع العسكري فيها وأن علينا أن ندعم قواتنا هناك وخاصة بالكادر. وفي النهاية سألني: لماذا لا تلتحق أنت شخصياً بهذه الجبهة، وحدد أسماء من قوة المدرسة لاحظت مدى العناية في انتقائه لها لتلتحق بالكتيبة الأولى وقطاع الجولان.

التحقت بمقر قيادة العمليات على جبهة الجولان فوراً ووجدت أنهم قد أعدوا خطة أظهر الأخ الحاج حسن قائد قطاع الأردن حماساً في الدفاع عنها ورغبة في مشاركته شخصياً في تنفيذها، وتتركز هذه الخطة

في حشد مجموعات تتسلل ليلة بعد ليلة عبر الأراضي الأردنية لتتجمع في منطقة محاذية للجبهة في شمال الأردن وتقوم بالتعامل النشط مع أهداف في مؤخرات العدو وطرق تأميناته والضرب في كل من سمخ، شعار هاجولان، وجسر بنات يعقوب.

إتفقنا على الخطة، وتقرر أن نشارك فيها أنا من جهة، والحاج حسن من جهة أخرى، وأن ندفع بمجموعات متتالية للدخول والكمون بحيث يرافق كل منا إحدى المجموعات ونتمركز في منطقة محددة لندبر عمل المجموعات ونخلق حالة تواجد فدائي على الأراضي الأردنية، وأننا أثناء إنتظار دورنا في العبور نقوم بالمشاركة بإعادة توزيع قواتنا على جبهة الجولان والإندفاع معها.

كان قد تحرك وفد إلى الأردن لإقناع الدولة بأن يتم مرور قواتنا عبر أراضيها إلا أن ذلك الوفد قد عاد إدراجه بعد أن رفض الأردن طلبه.

بدأت في الأيام الأولى مجموعات من قطاع الجولان، ثم تلا ذلك مجموعات من الكتيبة الأولى والتي كان عليّ أن أعبر مع أحداها.

احتدم الموقف على الجبهة، شاركت قواتنا إلى جانب القوات الباسلة من الجيش السوري. من المعلوم أن الفارق بين حجمنا وحجمهم كبيراً جداً ولا مجال للمقارنة، لكننا بحجمنا ومجهوداتنا شاركناهم بشرف وحماسة، كذلك فعل مقاتلو جيش التحرير الفلسطيني منذ الإندفاعة الأولى في تل الفرس، والمرصد وتل أبي الندى وغيرها، تراب سوريا هو تراب فلسطين، وهذا الوطن وطن واحد، والمعركة كلها معركة فلسطين. كنا نتنقل مع وحدات الجيش العربي السوري وبين مواقعهم دون حواجز، وقد شاهدنا بأم العين أي مجهود وأية بطولة أبداها

المقاتلون السوريون عندما أتيحت لهم فرصة القتال.
ألوية بكاملها فقدت معظم دباباتها، فرق تبعثر شملها، ومع هذا وجدنا قادة متشبثين عنيدين وجنوداً راغبين في الشهادة.
رأيت المفوض السياسي للكتيبة الأولى عبد الناصر عبد الحميد ودميرم، ذلك الفدائي السوداني من الضباط السياسيين، يعمل متقدماً الصفوف يحمل منظاره وبندقيته ويتقدم إلى الأمام، يتابع تحرك المجموعات، ويتابع التنسيق مع ضباط الجيش العربي السوري.
عندما جاء دور المجموعة التي سأشارك بها، كانت المجموعات السابقة التي عبرت عن طريق الأراضي الأردنية قد آلت إلى ثلاث حالات، الأولى مجهولة المصير، والثانية بعثرتها الألغام واستشهد بعض أفرادها، والثالثة وقعت في أسر القوات الأردنية، وقد قيل أنها نقلت إلى سجون الزرقاء.
توجهنا إلى قاعدة إدارية للتجهيز والتزود بالعتاد والمؤونة، كنت بكامل جاهزيتي تقريباً باستثناء الحذاء الجلدي الذي أصبح مقلقاً لي، فطلبت حذاء بحجم قدمي التي غالباً ما يتوفر قياسها، لكنني لم أجد من النوع الذي يصمد لهذه المهمة، فأخذت حذاءً مطاطياً من النوع المتوفر ليكون احتياطياً.
تحركنا من قاعدة التجهيز إلى قاعدة الإنطلاق انتظاراً لوقت ما قبل الغروب مباشرة للتحرك.
وإذا بسيارة الإسعاف تصل بعد أقل من نصف ساعة من الانتظار حاملة إثنين من أفراد مجموعة الليلة السابقة، ساق أحدهما مبتورة، وقد تلقى بعض الإسعافات الأولية، وسيتم نقله إلى أقرب مستشفى

في الخلف، أما الآخر فإن جسده مليء بالجروح الصغيرة والدماء، سألته عما حدث لهم.

لقد وقعت الدورية في حقل للألغام في الأراضي الأردنية، ولا يعرف هو أو رفيقه مصير الآخرين، طلبنا منه أن يصف الخط الذي اتبعوه، أخبرنا فقدّرنا ذلك على الخارطة بالقياس مع الاتجاه وزمن المسير ومعالم المنطقة، وقد اشترك في ذلك التقدير الأخ قائد الكتيبة وأنا والأخ الملازم أول قائد الوحدة (السرية) التي ستتحرك منها المجموعة والتي سيكون على رأسها.

انتحينا ثلاثتنا جانباً، وبدأ قائد الكتيبة الحديث عن مشكلة هذا الحقل المفتوح للألغام، والذي لم ينج أحد منه في حدود معلوماتنا حتى الآن، ثم سأل ما إذا كان مفيداً أحداث تعديل على خطتنا، وكان رأيي أن التعديل سيساوي إلغاء العبور من خلال الخطوط الأردنية، وهو ما يعني أن دورنا سيبقى محدوداً جداً، فما هي فعاليتنا بجانب هذه القوات السورية: الفرق، الألوية، ومختلف صنوف السلاح.

إن فعاليتنا ستكون أنجع بالتحديد خلف خطوط العدو. وإذا تراجعت هذه المجموعة التي تضم اثنين من المناط بهم أمر قيادة المجموعات كلها عن محاولة العبور فسيكون لذلك أثر سيء على الآخرين. علينا أن نمضي علنا نجد منفذاً.

ودعنا قائد الكتيبة بقوله: "على بركة الله".

تحركت مجموعتنا بعد أن رأيت رؤيا العين نتيجة الوقوع في حقل للألغام غير محدد المعالم، وحتى القوات الأردنية التي كانت قد زرعته لم تزرع لنفسها أشارات كي تستدل عليه، ونحن مضطرون إلى أن نعبر

من منطقته أو بمحاذاتها تماماً وهو ما يعني أن احتمال الوقوع فيه احتمال كبير.

لم يكترث أفراد الدورية بالألغام أو بما رأوه، بل لقد قال أحدهم مظهراً التأكيد "إن حقل الألغام والإصطدام بالعدو أهون من الوقوع في قبضة الجيش الأردني".

إن أفراد هذه الدورية وكتيبتهم من قوات اليرموك، وهم من الذين التحقوا بالثورة في الأصل فراراً من الجيش الأردني في أثناء أحداث أيلول 1970 وما بعدها، وتصل عقوبتهم جراء ذلك وفقاً للقوانين الأردنية الحدود القصوى، وهذا هو السبب في أن حساسيتهم مفرطة خوفاً من الوقوع في قبضة الجيش الأردني.

لم يكن كذلك شعوري، فقد كنت في داخلي لو أنني خيرت، لا أختار حقل الألغام، انطلقنا قبل الغروب مشياً على أقدامنا عبر منطقة "كويا" وهبطنا لنعبر جسراً على نهر اليرموك، ثم دخلنا منطقة بمحاذاة النهر بين الأراضي الأردنية والأراضي التي يحتلها العدو، وأصبحنا في ذلك المعبر المحاط بالتلال العالية بين المطرقة والنسدان.

حل الظلام ونحن نتابع مسيرنا، خط السكة الحديدية بمحاذاتنا، سرنا أحياناً على قضبانه، الحصى، القضبان، الأعشاب، والنباتات الهشيمية في طريقنا. محطة وادي خالد ما زالت أمامنا، الوقت يمضي والليل يتوغل وضوء القمر ينير طريقنا ويساعدنا على قراءة الخريطة ونحن نتابع تقدمنا مستعينين بها.

وصلنا نقطة في وادي خالد مقابل السفوح الأردنية، قدرنا أنها آخر نقطة أمان قبل حقل الألغام، أصبح علينا أن نحدد اتجاهنا بدقة، حقل

الألغام أمامنا بكل تأكيد، وإلى يسارنا يقف مرتفع جبلي حاد، لعله يشكل الفاصل بين المنطقتين، ولا نستطيع أن نجزم ما إذا كان يدخل في نطاق أحداهما أو أن بإمكاننا أن نجد عبره منفذاً.

يتكلل هذا المرتفع بنطاق صخري تبدو في قمته رؤوس حادة، تظهر في وسطها ثغرة ضيقة، إننا نفضل أن نتجنب المعابر الإجبارية لأنها خطرة. ولكن من الواضح أن هذا المرتفع يصعب توقع ولوجه. قررنا أن نجرب وأن يكون رتل مسيرنا طويلاً، لكي نحقق شيئاً من الاستطلاع والتقرب بأقل عدد من العناصر.

عبرنا خطاً باتجاه المرتفع، طوله أكثر من كيلو متر، وفي كل خطوة توقعنا إنفجار لغم أو مفاجأة.

لقد ابتعدنا عن المنطقة التي يطل عليها العدو ونحن الآن في مناطق وسطية لا يمكن أن تصل إليها سوى يد الجيش الأردني. توقفنا قليلاً في أسفل السفح، أمامنا مرتفع حاد وشاهق، وقد جعلتنا حدته نستبعد أكثر من ذي قبل إمكان وجود الكمائن والألغام، وقد ازداد هذا الاستبعاد عندما فردنا الخريطة وقرأنا ما توفر من معلومات قليلة حول طريقنا.

تفحصنا في ضوء القمر المسارب التي لم تكن أكثر من مواقع لأقدام الرعاة، حاولنا أن نتبين إلى أين يمكن أن تقودنا كل واحدة، فكرنا ثم اخترنا طريقنا، قدرنا أننا سنصبح في الذروة خلال نصف ساعة.

أخذنا في الصعود، وأخذنا في كل خطوة نكتشف أن الصعوبة أكبر بكثير مما توقعنا. وجدنا أنفسنا معلقين في السفح نتحسس بعض الصخور الصغيرة المعلقة كنتوءات فيه أو الكتل الترابية الهشة، ونتعلق بالنباتات التي نستشعر متانة جذورها، ويحدونا الأمل أننا آخذون في الاقتراب

من منطقة الصخور القادرة على أن تحملنا.
ترنحت كواهلنا من ثقل أحمالنا، بنادقنا وذخائرنا المضاعفة كي تكفينا لمدة طويلة، والقنابل اليدوية، ومدافع الآر.بي.جي، وقذائفها، إضافة إلى مؤونتنا بما تحويه من معلبات وبعض الحاجيات الأخرى.
علينا أن نتسلق بكل هذا الثقل، وعليّ بالذات أن انوء بأعباء إضافية نتيجة إنقطاعي الطويل عن تسلق الجبال أو تلقي التدريبات اليومية أو حتى القيام بالمشي لمسافات طويلة، وحتى ذلك الحذاء اللعين أصبح يخذلني وأصبح من الضروري أن أنتبه لدى كل خطوة من خطواتي، فلم يكن ليثبت تحت وطأة اتكائي عليه.
وصلنا أخيراً منطقة الصخور، وجدنا سداً صخرياً خاصة في المنطقة التي حاصرنا أنفسنا فيها، وليس أمامنا إلا أن نعود أدراجنا، نظرنا إلى الأسفل، وجدنا أنفسنا معلقين على حافة جرف عميق يمتد إلى نهر اليرموك، أخذنا نفساً من الراحة ونحن نتعلق بأغصان وسيقان بعض الشجيرات والصخور الناتئة، ثم بدأنا مسيرة النزول، وكم كان الصعود سهلاً!.
أصبحت أحمالنا تضغط علينا نحو الأسفل، لم نعد قادرين على تثبيت أقدامنا، ولم نكن نثق بالحجارة أو النباتات التي نتعلق بها، صدف أن تشبثت بأحد الحجارة، فانسل من التراب المزروع فيه، اتقيت السقوط بالإمساك بغضن شجيرة قريب وراح الحجر يتدحرج وأنا أسمع صوت تدحرجه الطويل والمتواصل، لأقدّر أية هاوية نحن على منزلقاتها.
أصبح كعب الحذاء متعباً في النزول بأكثر مما كان أثناء الصعود، وليس من سبيل لتغييره.

استغرق هبوطنا وقتاً طويلاً، وجدنا أنفسنا بعده على طرف السفح من الناحية اليسرى، فلم نكن قادرين على أن نتحكم كما يجب باتجاهنا فالطريق تقودنا حسب المداس الذي نستسهله. لعل لهذه التلال دروباً أخرى لم نكتشفها، فالخريطة التي بين أيدينا لا تمكننا من العثور عليها، بل ولعلها تكون دروباً مريحة بالنسبة لما غامرنا بسلوكه، جلسنا قليلاً نعيد ترتيب ملابسنا وأحزمتنا وأحمالنا، ووجدتها فرصة لتغيير حذائي. أخذ منا هذا المرتفع كثيراً من الوقت والجهد، علينا أن نسارع لكي نستثمر الليل، فكرنا في خيارنا الجديد أننا نقوم بمهمتنا دون معلومات مسبقة ودون إعداد أو استطلاع، إذ نواجه وضعاً لم نكن مهيئين له، إن المبادرة لمحاولة عمل شيء وتقديم مجهود في هذه الحرب هي حافزنا، اخترنا طريقاً يلتف من جهة اليسار مع سفوح المرتفع التفافاً تدريجياً وواصلنا سيرنا حتى وجدنا أنفسنا بين مناطق فوق التلال تكسوها بعض الاشجار، وإذا بنا أمام منطقة مكشوفة يجب اجتيازها للوصول إلى منطقة كثة الأشجار.

توقف رتلنا بصمت كامل، وقد أخذنا وضع القرفصاء، انصتنا جيداً على بعد بضعة أمتار وتحت شجرة منفردة رأيت انعكاساً لضوء القمر، كأنها مرآة، الأخ الملازم الأول ورائي، أشرت إليه بضرورة أن نستطلع هذه القطعة المتوهجة. فأشار لأحد الأخوة أن يتبين أمرها، وجدناها علبة للحم المعلب، تلمسناها وشممنا آثارها، لقد استعملت حديثاً.

إذن نحن في منطقة يتواجد فيها الجيش، قررنا أن نعبر المنطقة المكشوفة ثم نجد وسيلة لمعرفة ما حولنا وأمامنا في أثناء الكمون بين الأشجار، تنصتنا من جديد، لم نسمع حراكاً، تقدمنا، دخل رأس الرتل تلك

المنطقة وقد كنت الثاني فيه، واصلنا توغلنا، إنطلقت صرخة فجأة تأمرنا بالوقوف، وإذا بنا مطوقون تماماً، لمعت رؤوس الحراب وفوهات البنادق من خلف سيقان الأشجار أو السواتر الأخرى، لا يزيد بعد إحداها عني ثلاثة أمتار، كذلك بالنسبة للآخرين في بقية رتلنا.

لقد وقعنا في فخ كمين أحسن إعداده من كمائن الجيش الإردني، أمرونا بإلقاء أسلحتنا، لم نكن قادرين على المقاومة، ومع ذلك فقد كانت أوامرنا عدم الاصطدام مع الجيش الأردني في كل الظروف.

أدركت أية مخاوف تغزو قلوب رفاقي، إذ أن الوقوع في قبضة هذا الجيش هو عقدتهم، بدأت أعد نفسي للتصرف، اقتادونا إلى مقر مجموعة الكمين، كانوا بقيادة ضابط صف يتدثر بفروة صوفية من جلد الخراف، أجلسونا على الأرض بعد أن فتشونا وانتزعوا المسدسات والذخائر منا، وقد طوقنا ببنادقهم المصوبة نحونا، لاحظت أن أفراد دوريتنا تلثموا بكوفياتهم وامتنعوا عن الكلام. فأردت أن أصنع انفراجاً وأن أعرف درجة تعبئة الجنود الأردنيين ضدنا، سألت ضابط الصف:

- كم الساعة الآن؟

وجه ساعته لضوء القمر، ودقق فيها ثم أجابني بهدوء:

- الواحدة والربع.

قلت في نفسي: حسناً يبدو أن مهمتنا أقل تعقيداً مما نتصور، وسألته من جديد:

- هل لديكم ماء؟

أمر أحد أفراد مجموعته بقوله:

- أحضر ماء للأخوان.

صار الأمر أكثر إنفراجاً وتفاؤلاً، توجهنا له بالحديث عن مهمتنا ضد العدو، وسأله الأخ الملازم أول:

- إنك تعرف أننا ذاهبون لمقاتلة عدو لنا ولكم، اسمحوا لنا بالمرور.

- لا استطيع، هذه مسؤولية.

نظر الملازم أول باتجاه أفراد الكمين وقال:

- جميع أخوانك من الجيش وأفراد الدورية يعرفون أننا في حرب ونريد أن نضرب عدوهم.

- لا نستطيع.

- إذن اسمحوا لنا بالعودة.

- لا استطيع، هلموا بنا إلى مقر قيادة الكتيبة.

حملونا بعض أمتعتنا وحملوا أسلحتنا، أما ضابط الصف فقد أكتفى بأخذ مسدس الأخ الملازم الأول، ثم قادونا إلى مقر قيادة الكتيبة الذي لم يكن بعيداً.

جلسنا في حلقة دائرية، ومن حولنا الجنود يصوبون أسلحتهم إلينا، تجمع الضباط وجاؤوا يشاهدوننا، شعرت أن تلك هي اللحظة المناسبة،

وليس غيرها، لكي أخاطب ضميرهم الوطني، أو أشجع رفاقي في أقل تقدير، محاولاً الإفادة من الوقت قبل أن يقوموا بإجراء اتصالاتهم.
توجهت إلى رفاقي متعمداً أن يستمع إلي الجميع بالقول:

- أيها الأخوة، نحن في مهمة من المتوقع فيها لأي واحد منا أن يلقى الاستشهاد، وما نصادفه سواء أكان الاستشهاد أو غيره، هو قدرنا ونحن ندافع عن شرف الأمة العربية وكرامتها..

ورحت أركز على معنى الدفاع عن أمتنا وتاريخها، وذكرت بأمجادنا، وبالمصائب التي حلت بنا على يد هذا العدو.
في الحقيقة كنت أوجه كلامي إلى ضباط الكتيبة الأردنية مخاطباً الوجدان الوطني فيهم. لاحظت قبل أن أكمل حديثي، أن الضباط قد تنادوا منسحبين من حولنا، وأنه لم تبق بندقية واحدة مشهرة علينا.
واصلت حديثي، لقد كسرت حدة التوتر في نفوس رفاقي على الأقل، وهذه اللحظة هي البداية التي يتقرر فيها داخلياً لكل فرد منا ما إذا كان سيصمد في المواجهة أم لا.
وجدت شيئاً من الانتعاش، وعودة الروح، حزم الرجال أمرهم، وقفزت جرأتهم سداً منيعاً بينهم وبين الإنهيار، هؤلاء الرجال أبطال حقيقيون، لقد استهانوا بالأمر وبدأوا يستعدون لمواجهة المصير والتأقلم مع القدر.
رجع إلينا قائد الكتيبة برفقة بعض ضباطه، ووقف مقابلنا وراح يخاطبنا:

- يا أخوان، يبدو أنكم مجموعة طيبة من فتح، يقول المثل عندنا

"أنا وأخوي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب". وهذا العدو الذي تريدون مقاتلته هو عدونا، ولكل حرب ظروفها، وتأكدوا أنه سيأتي اليوم الذي يدافع فيه الجيش الأردني عن شرف الأمة العربية.

ردد تقريباً العبارات والمعاني نفسها التي قلتها من قبل، ثم ختم حديثه بالقول:

- نرجوكم ألا تحرجونا، سنسلمكم أسلحتكم، وعودوا من الطريق التي أتيتم منها.

تحرك في هؤلاء الضباط والجنود حسهم الوطني، لامسناه في هذه اللحظة، عهدناهم في أيلول معبئين ضدنا إلى الحد الذي يدفعهم إلى عدم مناقشة ما وراء الفتنة، بل إلى حد عدم رؤية البديهيات أحياناً.
دب الفرح والأمل، حقاً لم يخذلنا وجدانهم القومي، فعندما وجدوا فرصة للتصرف تصرفوا، لقد سبق أن اعتمدنا على هذا الوجدان في معركة الكرامة ولم يخذلنا، وعندما جربناهم في المحكات دون تأثير التعبئة المضادة أو الفتنة كانوا دائماً أصحاب نخوة، وطنيين، يحبون فلسطين،وتتحرك لها أعماقهم ومشاعرهم. ولولا القرار السياسي لكان هذا الجيش شريكاً فعالاً في هذه الحرب.
الشعب الأردني المعطاء في كل الأحوال هو شريك حقيقي للشعب الفلسطيني، بينهما ارتباط الدم، وتراكم الحياة المشتركة والأواصر المادية والمعنوية بما هو أقوى من العوامل السلبية التي يمكن أن تفتعل.
هذا الشعب الباسل، وهذا الجندي سيكونان في المقدمة يوماً ما.
تسلمنا أسلحتنا، همس الأخ الملازم أول في أذني قائلاً:

- لم يعيدوا إلي مسدسي.
- أين هو؟
- مع الرقيب.
- حسناً.

اقتربت من قائد الكتيبة وقلت له:

- بقي مسدس لنا لا نعرف أين هو؟

نادى الرقيب وسأله عن المسدس، أخرجه متذرعاً ببعض الكلمات التي لم أسمعها جيداً، وسلمني إياه، فسلمته بدوري لصاحبه.

ودعنا قائد الكتيبة وضباطه بأريحية مؤثرة، وعدنا أدراجنا إلى منطقة الكمين، وفوجئت برفاقي وقد أماطوا ألثمتهم، وكشفوا لجنود الكمين عن أشخاصهم، تبع ذلك عناق وقبل وسلامات واسئلة عن المعارف والأصدقاء.

اكتشفت أن أفراد دوريتنا تعرفوا من البداية على آسريهم، كانوا زملاءهم وأصدقاءهم في الجيش، وقد تخفوا بألثمة كوفياتهم حذراً وأملاً في أن لا يكتشف بأنهم من الفارين من الجيش.

قبل ساعة من الزمان كنا أسرى وكانوا آسرين، وفي لحظة واحدة انتصرت وحدة دمائنا وحياتنا، صرنا أخوة يسألوننا عمن استشهد من زملائهم السابقين، وعمن بقي على قيد الحياة، وعن أحوال الذين أمامهم، لعنوا السياسة، أبدوا تحرقهم إلى أن يكونوا مثلنا، وأن يحاربوا

كما نحارب.

انتحى أحدهم بي وبالملازم أول، وعرفنا على نفسه، وسمى لنا قريته "بيت سوريك"، ثم أشار لنا:

- هل ترون تلك الشجرة على ذلك السفح؟

حدد لنا السفح بدقة، حتى تأكد من رؤيتنا للشجرة كنقطة (علامة)، وقال:

- من هذه الشجرة وحتى النهر، هناك حقل ألغام مفتوح، وقعت فيه أكثر من عشرة دوريات من دورياتكم، ونقل عدد كبير منهم إلى سجن الزرقاء.

حددنا بدقة منطقة حقل الألغام واكتشفنا أننا سرنا على يسار هذا الحقل بمسافة لا تزيد عن المائة متر. إذن لقد حققنا فائدة وأجرينا استطلاعاً متقرباً بدون قتال، وعندما نعاود العبور سوف يكون الأمر أسهل علينا، وسنتجنب هذا الحقل اللعين ونحاول النفاذ من الكمائن، وقد فكرت بأن تكون خطتنا هي الاتجاه إلى العمق الشرقي والالتفاف من وراء منطقة الإنتشار.

ودعنا أفراد الجيش الأردني، وعدنا أدراجنا، كانت الساعة الثالثة صباحاً، وكان علينا أن نسارع لكي نجتاز المنطقة المكشوفة للعدو قبل حلول النهار، لم نتمكن من ذلك، أدركنا الضوء، واضطررنا أن نقضي نهارنا في المنطقة الوسطى متسترين بالشجيرات المحاذية لضفاف اليرموك.

مضى النهار مليئاً وطويلاً، أصوات المدفعية الثقيلة لدى إنطلاق

قذائفها، وهي في المرابض القريبة داخل الأراضي المحتلة لم تنقطع عن أسماعنا حيث أجواء الحرب المدلهمة تخيم تماماً.

في ظلال الحرب وعلى ضفاف اليرموك، ليس بالإمكان تجنب استذكار التاريخ، أو مناجاة المجد. وقد وجدت نفسي في ذلك النهار الطويل على تلك الضفاف مسكوناً بالتاريخ وكثير الترداد لقول الشاعر:

على اليرموك قف وإقرأ السلاما وكلّمه إذا فهم الكلاما
وقل يا نهر قد هيجت ذكرى شجت قلبي وحركت الغراما

وفي يوم وصولنا إلى منطقة قواتنا في الأراضي السورية، وجدنا أن السادات قد أتخذ قراراً بوقف إطلاق النار، وقد استكمل الوضع تحوله تماماً على الجبهة السورية، من حيث الموقف العسكري، وتلا ذلك بأيام قليلة وقف القتال على هذه الجبهة أيضاً. وتوقفت الحرب التي أرسلت في لحظة من لحظاتها نسيماً من الأمل إلى قلوبنا، والتي طرحت المعلومات فيما بعد علامات استفهام على بعض جوانبها.

لقد اندفعت القوات السورية بسرعة كبيرة يحدوها تطلعها إلى طبريا والجليل دون أن تكنس من ورائها بقايا العدو، فتمكن من استخدام مؤثر لعقد الصواريخ من نوع "تاو" في هجومه المضاد.

وقد كان لهذه الصواريخ تأثيرها الفعال في تدمير الدبابات السورية التي لم يتم تعويضها إلا بوصول الدبابات العراقية التي وصل بعضها سيراً على الجنازير للالتحاق بجبهة القتال وحماية العمق السوري.

أما القوات المصرية، فقد اندفعت أبطأ مما ينبغي غير مستثمرة بذلك فوز العبور وبطولات المقاتل المصري الباسل، بل أن الخرق المعادي عبر قناة السويس قد أحيط بحد ذاته بملابسات مريبة.

أما الولايات المتحدة فقد أجادت استثمار الحرب لتحريك سياسة التسوية وفقاً لما خططته بعد تحويل المعادلة النفسية بين النصر والهزيمة لتصبح قابلة للتحريك على أساس المنهج الأمريكي في الحلول المنفردة. وتحقق "اصطياد السمكة الكبيرة" مصر، وعزلها عن الأمة العربية إذا عادت تنوء بأثقالها. وكذلك لزيادة نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة في إطار سعيها لتصفية خطوط النفوذ الأخرى والبؤر الوطنية والقومية الفاعلة.

لقد تعمدت الولايات المتحدة أن تسفر هذه الحرب عن ارتفاع تكاليف السلع الأوروبية واليابانية عن طريق رفع أسعار النفط كي تتمكن من تحقيق الفوائد على مستوى المنافسة التجارية والتوازنات الإقتصادية والنقدية، بل ومنذ هذه الحرب حددت الولايات المتحدة برنامجاً لتطلعاتها بالسيطرة على منابع النفط من أجل فرض هيمنتها على العالم كله. وفي غياهب الآفاق المطلة على الأرض التي كانت بالأمس ميدان قتال شهدنا بريبة وذهول الاندحار التدريجي لرجاء غض لوحنا له بأكاليل أحلامنا.

***

أصبحت علاقتنا بحراسنا المسلحين أفضل من ذي قبل وخاصة بتلك المرأة التي تشرف على الحراسة.

صار بعضنا يتجاذب معها أطراف الحديث محاولاً تسقط خبر صغير من المذياع الذي واظبت على الاحتفاظ به، لعلها قد تلقت تنبيهاً بعدم

إتاحة الفرصة لنا بالاستماع لأي خبر، فهذا هو التفسير الوحيد لعدم مقدرتنا على أن نسترق إلا النذر اليسير.
غالباً ما تناهى إلى أسماعنا صوت فيروز الرخيم، بأغانيها المحببة وخاصة أغنيتها التي صدحت أثناء لحظات الزهو في حرب تشرين وهي تنشد:

خبطة قدمكم على الأرض مسموعة
جبهة العز والراية المرفوعة
خبطة قدمكم على الأرض هدارة
وانتو الأحبة وإلكم الصدارة

جذب سمعي في إحدى المرات لحن دافئ لأغنية من أغاني شارل ازنافور، الوتيرة الموسيقية تعلو وتنخفض لتسري في خلايا الجسم، وتحرك حس الحياة، وتلامس الصفاء الداخلي للإنسان.
أعتُبر كونفوشيوس منذ أقدم العصور في كتاب الطقوس "أن الموسيقى هي التعبير عن الفرح". إنها أكثر من ذلك، لقد أثّرت فيّ هذه الموسيقى تأثيراً خاصاً وغيّرت أجوائي النفسية.
ربما كان ذلك بسبب الظروف المحيطة، وربما كان هذا النوع من الموسيقى له وقع خاص يجذب الإنسان ويحرك في مكنوناته إيقاعاً من الجاذبية بين وتيرة الصوت وأحاسيسه.
على العموم فإن الأذواق الموسيقية متعددة، بل وأن لكل موسيقى وقعها الذي يتجاوز حدود الجغرافيا واللغات بالرغم من التنوع والتمايز.

فهذه الموسيقى الأوروبية تحرك الجسد تلقائياً حركة إنسيابية بينما تملأ الموسيقى الإفريقية المكان صخباً واندفاعاً راقصاً يتمايز عن الوقع الصاخب لموسيقى الجاز الأمريكية، بينما يتماثل مع روح موسيقى البلوز ذات الجذور الإفريقية والمسحة الحزينة. لفت إنتباهي قبل أكثر من سنتين ذلك المهرجان الذي أقيم في سان فرانسيسكو للبلوز. في البلوز يستغرق الفقراء السود تعبيراً عن أنفسهم بمسحة الحزن العميقة وألم الفرح.

لا أعرف عن أية إذاعة انبعث هذا اللحن الذي جاء كصوت للحياة، ذكرني بنعمة الأمن والاستقرار والسعادة، الحياة حق جميل للإنسان ينتشر في أرجاء ذاته، ويصنع في أعماقه توقاً دائماً إلى أن يعيشها في كل الظروف. الحياة تفرض نفسها حتى في أتون الحروب ولهيبها القاسي.

لم يكن المذياع هو السبب الوحيد الذي جعل بعضنا يتجاذب الحديث مع مشرفة الحراس، بل لقد دأبنا على محاولة استنتاج شيء حول مصيرنا عن طريق الحديث مع غيرها من الحراس أيضاً.

ففي إحدى المرات أسرت هي لأحد الأخوة أنهم قد يطلقون سراح بعضنا إلى سوريا.

أحيت تلك الأحاديث في نفسي حب استطلاع مصير زورق لنا كان قد اختفى وهو ينقل بعض القادة من بيروت إلى طرابلس وعلى رأسهم الرائد نعيم أحد أفضل مقاتلي هذه الثورة وبصحبته أبو عمر (حنا ميخائيل) وأبو الوفا، وغيرهم من القيادات والكوادر.

تجرأت أكثر من مرة على السؤال بطريقة غير مباشرة مستثمراً مناسبة تمكنني أن اسأل. حدث مرة أن تكلم معنا أحد المسلحين عن أسرى

آخرين شاهدهم قبلنا وتمت تصفيتهم سألته:

- وهل أخذتموهم من البحر مثلنا؟

رد عليّ دون أن يتنبه إلى مقصدي وقال بهدوء:

- لا من الجبل.

وقد تنبه في إحدى المرات مسؤول من مسؤولي الحراس لأسئلتي، فاستوضح مني عن السبب مستهجناً، جعلته يعتقد أنني أحاول الاطمئنان على مصيري من خلال معرفة ما إذا كان الذين يتحدث عن تصفيتهم من مثل حالتي.

علينا أن نكون هنا حذرين في اسئلتنا، وفي كل شيء، لأن الهفوة تعني الكثير، أقله الضرب والتنكيل. وبالفعل فقد تمثلنا الحذر في كل كبيرة وصغيرة، حتى في أحاديثنا التي ثابرنا على أن نتجه بها بعيداً عن لبنان والحرب والثورة الفلسطينية.

رحنا نمضي أوقاتنا بلعب "الضامة" أو بالاستماع إلى النكات أو الحديث عن البحر أو عن حياتنا الشخصية، وحتى الفلسفة الهندية خضنا غمارها، ويعود السبب إلى أن بسام العايش من طلاب الهند، وقد أوصلنا تداعي الأفكار إلى موضوع تناسخ الارواح، فديانة الهندوس تقوم على مبدأ التجسيد، فهم يعتقدون بأن روح الكائن تنتقل من بعد موته إلى جسد آخر، وقد يكون لكائن وضيع، وقد يكون لكائن راق، حسب الأعمال في الحياة.

وحتى عندما تنتقل من جسد إنسان إلى جسد إنسان آخر فإن الامر لا يعدو أن يحمل في طياته التعبير عن الثواب أو العقاب، لأن الطبقات

الإجتماعية لديهم خمس طبقات أدناها طبقة المنبوذين الذين لا يجوز لمسهم، وأعلاها طبقة البراهما. وعندما تتجسد روح المرء في إنسان في طبقة أعلى فإن ذلك يعني أنه كان صالحاً في حياته السابقة وأنه يستحق الثواب، أما عندما يحدث العكس فإنه يعني أن هذا المرء لم يكن صالحاً في حياته وأنه يستحق العقاب الذي يصل حد تجسيد الروح في جسد حيوان متدن لكي يسام العذاب والوضاعة.

عند الهندوس آلهة متعددة تدل أساطيرها على أنها أشبه بالأبطال الاسطوريين منها بالآلهة. ولهؤلاء الآلهة أشكال غريبة تنبثق كلها من الشكل الإنساني، ومن أكثرها شيوعاً إله بستة أذرع، أما إله الآلهة "بوجوان" فهو بمثابة الله. وتحتوي أساطير ديانتهم (البراهمية) على قصص لتجسيدات إلهية من شأنها مد البشر بالمساعدة والامتزاج بالتاريخ البشري.

يكره الهندوس قتل الكائن الحي من الحشرة حتى الإنسان، لأنهم يؤمنون بحق الحياة لكل حي، ويصل بعضهم حد الامتناع كل حياته عن أكل لحم الحيوان ويسمى هؤلاء بالنباتيين، حيث لا يأكلون من الحيوان سوى الحليب ومشتقاته.

وفي الهند ديانات متعددة جذورها هندوسية، أشهرها ديانة السيخ، ويعرف السيخ بعدائهم للإسلام، ولا يحلقون شعورهم، ويضعون ما يشبه السوار في يد من أيديهم، ولديهم تعاليمهم ومعابدهم ويتمركزون في ولاية البنجاب.

وإلى جانب ديانة الهندوس والإسلام والسيخ تجد في الهند الديانات الكثيرة والغريبة، بل وتجد أيضاً من يدعون الألوهية ويحظون بالأتباع

والمؤمنين.

وللصلات بين الجنسين في الديانة الهندوسية قدسية كبيرة، تصل عند بعضهم حد الدخول في طقول التعبد، وعلى هذا الأساس توجد رموز وهياكل جنسية في بعض مقابرهم، كما توجد طقوس أخرى في جزء من الأرياف تعتمد على مفهوم عدوى الخصب أو الإيحاء بالخصب بانتقالها من الصلات الجنسية الإنسانية إلى النباتات، وهم ينتقلون إنطلاقاً من هذا المعتقد مع زوجاتهم في مواسم نمو المزروعات إلى الحقول يقيمون هذه الصلات فيساعدون هذا النمو بعدوى الخصب وعباداته.

الهند، بلد العجائب والسحر والحكمة، ولمعتقداتهم الدينية جذورها الفلسفية والتاريخية، فالملاحم الكبرى مهاباراتا Ma'ha'ba'rata، والتي كتبت حوالي 200 ق.م. وراماياناRa'ma'ya'na، وقد كتبت بعد الميلاد باللغة السنسكريتية، وبوراناس Pura'nas، هي روافد الحكمة والتاريخ للدين والأخلاق في الأدب الديني القديم.

ويأتي التقمص وتعدد الحيوات على طريق الكمال الروحي، والذي ظهر من مفهوم الشراما Ashrammas، أنه يمر في أربعة تحويلات تاريخية للإنسان البراهمي الذي تمكن من الإرتقاء إلى أعلى طبقة إجتماعية.

وهذه التحولات الأربعة هي، مرحلة التربية والإعداد والتي من واجب الإنسان أن يعتني فيها بصحة جسده ليتمكن من المعرفة، ومرحلة الواجبات الإجتماعية للتمرس في قيم الحياة وثقافتها، ومرحلة الإنعتاق من الحياة الإجتماعية والرغبات، ومرحلة الخروج من المجتمع الزمني والإرتقاء روحياً.

ولا يستطيع أي إنسان أن يعبر هذه المراحل الأربعة في مدى حياة واحدة.

والتاريخ هو تاريخ الأفراد في هذا التعاقب مع الحيوات حتى يتم بلوغ هدف الخلاص فيما بعد هذا التكرار الممل في الولادة والموت ووصول الفرد للكمال من حيث هو روح، أو الوصول إلى النيرفانا التي هي الكمال المطلق والسعادة المطلقة والأبدية.

وفي النهاية "فإن العالم يتم ذاته من خلال تدمير ذاته، "كما يعتقد الحكيم رادا كريشنان، وعندئذ فان مأساة أخرى تستطيع أن تبدأ وأن تجري مدى الأجيال".

أطلعت على الأفكار الهندوسية ودونت بعضها من خلال اهتمامي بالقراءة عن فلسفة التاريخ، وعن العقائد التي تفسره، وقد جذبتني المفاهيم الروحية الشرقية وأثارت اهتمامي، لذلك رحت في بعض الحوارات مع بسام أحاول أن أتعرف على التبلور العملي في حياة الهند لبعض المفاهيم التي قرأتها.

تطرق بسام إلى موضوع قراءة الكف كما تعلمها في الهند، وراح يقرأ الكف أحياناً للموجودين، ولما سألته أخذ يدلني "هذا هو خط الحياة، ثم خط الثقافة، وخط القلب، وخط الثروة، وخطوط الزواج والأبناء، وخطوط الآثام .. الخ".

لا ةءارق نإكف عند بعض الهنود علم وليست مجرد تأويل وفذلكة، بل أن هناك آراء لبعض الباحثين العلميين بهذا الشأن.

قال لي ذلك بسام، وأضاف:

كذلك فإنهم يعتقدون بتأثيرات الكواكب والنجوم على شخصية الفرد، وهو ما نسميه الأبراج، فالأرض تقع دورياً تحت تأثير كوكب آخر حسب موقعها في آلية الدوران الكوني والشمسي، وعندما يولد الإنسان

فإنه يتعرض لهذا التأثير وينعكس ذلك في شخصيته.

ذكرني حديث بسام بتصنيف أخوان الصفا للناس أربعة أصناف: الترابيون، الناريون، الهوائيون، المائيون، وكيف أن كل شخص يستمد صفاته الأساسية من الصفات الأساسية لعنصر من عناصر الطبيعة الأربعة: التراب والنار والهواء والماء، وفقاً لوقوعه في دائرة التأثير الذي يجعل طبيعته وطبائعه مستمدة من ذلك العنصر.

مما لا شك فيه أن بسام قد جارى أبا مروان في ملء الكثير من الفراغ بالطرائف، والحكايات الشائقة، وقد ساعد في مرور الوقت وملئه والتقليل من عبئه ومشاكله.

أما الأمر الآخر الذي استغرق جزءاً من الوقت فهو الاشتباكات بجد ذاتها، وخاصة بعد حلول الظلام، فقد أصبح بإمكان أي منا الآن أن يطل عبر النافذة الخارجية العريضة التي تشرف على البحر وعلى جانب من مناطق التماس، وبهذا أصبح ممكناً أن نرى أسراب القذائف وطلقات الرشاشات المتوسطة، وهي تعبر ذهاباً وإياباً.

طفقت تلك النافذة تشدنا كلما سمعنا بدء المعارك، بل وأضحت أفضل مفوض سياسي للتعبئة المعنوية. لقد ساعدتني في تصليب معنويات رفاقي، عبرها انتشت المعنويات، وتعززت الثقة، وصار يبرز عنصر الصلابة بقوة، وأصبح حافز الصلابة هو الإيمان والثقة.

لقد كافحت كي لا يكون حافز الصلابة هو الحرص على الحياة، لأنه حافز هش فلعل حب الحياة يكون حافز صلابة أحياناً، ولكنه وحده غير كاف للصمود أمام الامتحانات الصعبة، بل ربما يتحول بحد ذاته إلى أهم حافز من حوافز الإنهيار، إنه وتر يجب أن لا تلامسه أصابع أي

مفوض سياسي. يجب أن يبدأ الصمود دائماً من الإيمان بالأهداف.
عبر هذه النافذة ظهرت واضحة دقة إصابات قذائف أخوتنا في الطرف الآخر وتفوق نيرانهم.
شاهدنا في إحدى المرات رشاشاً من نوع (500) يوجه حممه إلى المنطقة الغربية من موقعه في ذروة الإهراءات مستخدماً نافذة صغيرة.
انطلقت الرماية باتجاهه، وما هي إلا بضع طلقات حتى اخترقت إحداها عين النافذة، وتم إسكات الرشاش، علمت من المنظر لماذا يتم استهداف الإهراءات التي حاول المحقق أن يدخل في روعي أن ذلك بقصد تجويعهم!.
فرح رفاقي، وصفقوا وهم يكتمون صوت تصفيقهم، ويمتنعون عن التعليق بالكلام حتى لا يتم سماعهم.
كثيراً ما تبادلنا إشارات الفرح والتهنئة، وشددنا على أيدي بعضنا البعض، وكثيراً ما استغرقنا نتفرج على ذلك المنظر الذي جعل السماء مقطعاً بحرياً شاسعاً تمر عبره أسراب مختلفة الأحجام من الأسماك الحمراء المضيئة، وهي عبارة عن القذائف المتتابعة أو الصواريخ العابرة على وجبات متتالية، أو الطلقات المتصلة كخط أحمر متقطع.
عندما يعتاد الإنسان الوقوع في غمار المعارك يصبح باستطاعته -بقدر معقول من الاحتراز- أن يتابع مثل هذه اللوحات بأعصاب هادئة وقدرة على المام المشهد ومتابعة حركاته وتحليلها. إنني من هذا النمط سرعان ما تجعلني المآزق الخطرة أكثر صفاء وقدرة وتحكماً بالموقف. بل إنني في المآزق الخطرة أمتلك ذلك الحس والإرادة لإخضاع قراري للعوامل الموضوعية التي يقتضيها الواجب والمعاني الكبيرة والميدان،

وإسقاط العوامل التي لا وزن لها، أو العوامل العاطفية المرتبطة بتوتر التفكير، يجب على المرء أن يتخذ قرار التقدم بشجاعة التقدم، وقرار التراجع بشجاعة التراجع. وأنا في هذا الاتجاه شديد التمسك في أن أفكر بطريقتي.

وما زلت أتمثل في مأساة كريولانس لشكسبير، عندما قال كريولانس لأمه:

"أتمنى يا أماه أن أكون خادماً لهم على طريقتي، على أن أحكمهم على طريقتهم".

لم يتركونا ننعم طويلاً بالإنفراج الذي خيم نتيجة لتوقف بعض منغصاتهم، فوجئنا في ظهيرة يوم من أيام الصحو والهدوء، وحركة الشوارع بحوالي خمسة من المسلحين، يتقدمهم ذلك الرجل الذي أخذني ليريني عملية قتل الفلسطيني من نافذة بالطابق الثامن، سمعتهم في هذا اليوم ينادونه أبو الزوز.

طلبوا من كل واحد منا أن يجلس في غرفته، وتفقدوا القيود في معاصمنا، أعادوا تقييد بعضنا جاعلين أيديهم وراء الظهور، كنت واحداً من هؤلاء. أجلسونا بشكل دائري في أرض الغرفة، جاء موضعي في هذه الدائرة أمام طاولة مستندة إلى الجدار مقابل الباب بين الغرفتين، وفعلوا الشيء نفسه بالآخرين في الغرفة الأخرى، باستثناء المختار الذي تركوه جالساً على كرسيه يتدثر بحرامه الصوفي.

بدأوا بتلك الغرفة، تناولوا من فيها مبتدئين بالشخص الأول حسب الصف، سألوه بعض الأسئلة القليلة، ثم راحوا يستهزئون به ويشتمونه، طلبوا منه أن يشتم الفلسطينيين فلم يجب، ضربة سوط

نزلت على رأسه، بقي صامتاً، تكررت الضربة ثانية، وثالثة وعاشرة. إنه سوط جلدي ثبتت عليه بعض القطع المعدنية اللامعة. ما انفك يهوي على الجسد الذي صار عرضة للكمات والركل وصنوف الإيذاء بالأيدي.

قطب النهار حاجبيه، أسودت الدنيا في العيون صار كل واحد منا ينتظر دوره.

أصروا على محاولة إجبار كل من تناولوه على شتم الثورة الفلسطينية أو الشعب الفلسطيني أو العرب، واجهتهم الأكثرية بالصمت وعدم الرد لتتلقى نتيجة غضبهم وتحديهم. حاول البعض أن يناور في الشتيمة، أو أن يشتم الحرب، لم يشفع لأحد أي شيء.

تلمحت من بين الجلادين الشخص الذي قدموا بطاقته لي أثناء التحقيق ليروني أنه من المذهب الشيعي وأنهم ليسوا طائفيين.

وصلني الدور أخيراً، بدأوا ببعض الصفعات، طلبوا مني أن أشتم الفلسطينيين، أي طلب هذا؟! أنا الذي أصدرت التعليمات لرفاقي بالامتناع عن شتم شعبنا أو ثورتنا أو إذلال النفس. من لا يصون كرامة شعبه لا يستحق أن يكون في صفوف مناضليه، ومن لا يحترم ما يمثل لا يستحق موقع المسؤولية. واجهتهم بالصمت بداية، لكنهم اصروا على طلبهم، قلت أخيراً.

- لن أشتم أحداً.

هزئوا، أجابني أحدهم:

- حسنا، ستمدح إذن، حيي رئيس حزب الكتائب.

واجهتهم بالصمت مرة أخرى، وقعت على جسدي ضربات السوط والعصي، أمسك أحدهم بشعري وأسند رأسي إلى الطاولة بينما يداي مقيدتان وراء ظهري، طلب مني أن أشتم ياسر عرفات شاهراً السوط بيده الأخرى أمام وجهي، لم أجبه، صرخ بي كي أشتم الرجل الذي يعتبر رمز شعبي، آه أيها القائد اختلفت معك أكثر من مرة، وقد اختلف معك، ولكنك رمز شعبي.

وجدتني بمقدار أعلى من العناد والتحدي والتصميم اندفع قائلاً:

- لن أشتم ياسر عرفات.

- إذن خذ.

ألقى بضربات سوطه على وجهي، بينما ثبت رأسي بيده الممسكة بشعري، ضرب السوط المثبت في طرفه قطع معدنية على عيني، ضرب متعمداً، ثم ضرب وما فتيء يضرب حتى أحسست أنها خرجت من مكانها، مع ذلك لن اشتم ياسر عرفات.

لم أعد أرى بتلك العين شيئاً، هرت قطرات من ماء العين بفعل الضرب، شعرت بها على خدي، فلم أكن قادراً على الرؤية أو اللمس، بقيت عيني مغمضة. كان بها انتفاخ أيضاً، بينما واصلوا هم تناولهم للجالسين من الأسرى واحداً واحداً.

وصلوا إلى سامي اللل، ضربوه ضرباً مبرحاً كذلك محمد ومعين وعلي، صمد الجميع، لم يذل أحد نفسه، صدق الامتحان، الشموخ والنصر في ذروة القيد والتنكيل، القوة والتحدي في عز الضعف وإنعدام الحيلة.

جاء دور محمود الحلاق، أنه الأخير، وعليه أيضاً أن يجتاز الامتحان،

لكن امتحانه كان الأصعب! يبدو أنهم تفرغوا له، أنهكوه ضرباً وجلداً، ثم استغرقوا يظهرون فنونهم في تعذيبه.

أوقفوه أخيراً على طرف النافذة في هذا الطابق السابع، نصف جسمه في الخارج ونصفه الآخر في الداخل، وقف فوق عدة سنتميترات فقط، بكل هذا العلو الشاهق، وبعد أن أصبح منهكاً يصعب عليه التوازن، كيف ستصمد ساقاه أمام كل هذا القدر الضروري من التوازن المطلوب؟! إن مجرد تمكنه من الوقوف بعد كل هذا الضرب الذي أصابه عناء غير عادي، تذكرت ما ورد في الكتاب المقدس "ما أضيق الباب، وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه".

أراد حامل السوط أن يطلب من محمود الحلاق القيام ببعض الحركات التي ستسقطه حتماً، خفنا على محمود، أقل هفوة وأدنى اختلال في التوازن سيهوي به من هذا الارتفاع إلى الشارع، سحب حامل السوط أقسام مسدسه، صوب باتجاه محمود، أراد أن يطلق رصاصة تخل التوازن، لمحت إشارة من "أبو الزوز" تعني أنهم في الأسفل سينتبهون، فسرت أن هؤلاء المهووسين يقومون بعمل على مسؤوليتهم الخاصة.

نجح محمود في الامتحان، الفارق كبير بين الأيام الأولى لأسرنا وبين اليوم، لقد حدث التحول ونجح العمل التعبوي في المحك الصعب، وقبل ذلك نجح محمود وانتصرت إرادته وصلابته.

انزلوا محموداً، صفعوا بعضنا صفعات الوداع وهم ذاهبون. بقي شخص واحد لم يمس هو المختار، أغلقوا علينا الباب وانصرفوا، اهتم رفاقي بعيني، أخبروني أن بها انتفاخاً، طلبوا أن أحاول فتحها، لم أتمكن، إبر تخزني، تدمي مقلتي، ضغط مدمر للأعصاب.

وجدت نفسي أمام زجاج النافذة، نظرت بعين واحدة إلى الملامح الواهية من خيالي، بالكاد رأيت الأخرى، مدماة حمراء زرقاء ومنتفخة، أيقنت أني فقدتها، ناجيت نفسي:

هذه هي رحلة الثورة، المعاناة والعذاب والتحدي، لم نقل لأحد أن الطريق مفروشة بالورد، ولم يقل لنا أحد ذلك، هذا هو قدرنا! كم كان غاريبالدي بطل الوحدة الإيطالية معبراً، فعندما هزمت الجمهورية الرومانية الفتية في ميلان على يد الجيش الفرنسي، واضطر متزيني، أبو الإيمان بالوحدة الإيطالية ومؤسس جمعية إيطاليا الفتاة إلى الاستقالة، أبى غاريبالدي التسليم، وانسحب مع المئات من الرجال الذين أبوا التسليم مثله، قال لهم يومها: "لا أعدكم إلا بالجوع والعذاب والعطش واليقظة وعدم الإستسلام".

تمثلت معاناة الفلسطينيين، شعرت أنني انتمى إلى شعب ووطن يستحقان منا إبداء كل صور العنفوان والصلابة.

آه يا شعبي، إنك في العذاب المتكرر مثل سيزيف الذي حكم عليه أن يدحرج حجراً من أسفل جبل إلى قمته ليسقط باستمرار ويكرر دورته طول الزمان. ولكن الملك سيزيف عوقب على يد الآلهة لسلبه ونهبه. أما أنت فإنك تعاقب على يد سيزيف نفسه الذي سلب ونهب ورفع راية الشر وجند الأتباع.

***

حاولت في اليوم التالي فتح عيني، اخترقها الضوء، علمت أنها ما زالت قادرة على أن تتحسس النور، ومع هذا فقد استمرت أوجاعها طوال الليل والنهار، وتمكنت من رؤيتها مساء أمام المرآة في دورة المياه.

مضت الأيام تتلو بعضها، ذهب الانتفاخ من عيني، قلّ الإحمرار، أصبحت زرقاء، شاب الزرقة لون أصفر، ونحن على نفس المنوال نتبادل الأحاديث، يلعب بعضنا الضامة، نذرع الغرفة جيئة وذهاباً، نقيس طولها مرات ومرات، نتفرج على بعض الصور في الكتب التي في خزانة الغرفة، ننظر إلى الشارع وإلى البحر ونتأمل.

كثيراً ما رجعت بأفكاري مقلباً صفحات الماضي، فليس أمامي إلا أن أقضي الساعات بقرب النافذة، فلعب الضامة لا يستهويني، صفحة البحر، قرأتها موجة موجة، العواصف الشتوية الماطرة راقبت مطرها ورياحها والتجاعيد التي تتركها على سطح الماء، واللون الرصاصي الداكن الذي تغمر به الأرجاء.

وعندما أمل من النافذة، أقترب من الآخرين وهم يلعبون الضامة أو ينصتون لأبي مروان، أصغيت له مرة وهو يتحدث عني، سمعته يقول:

- هذا صنف من الرجال أعرفه، إنه مثل البحر إنه بحر هادئ وعميق.

ثم أردف:

- فيه الكثير من طبيعة الماء، الموج العاتي، والإنسياب السلس، والحياة في آن واحد.

كيف يعرف هذا البحار أن يصف بهذه الطريقة! لم تكن تلك هي المرة

الأولى التي سمعت منه فيها شعراً وحكمة.
ذكرني ذلك القول بتلك الفتاة الحالمة التي أهدتني لوحة لحصان جامح وكتبت لي يومها "إنك غير قابل للترويض، أنت حصان لن يسرج أبداً".
ما زلت احتفظ بهذه اللوحة، وسوف احتفظ بها دائماً، لأن المعنى الذي تبرزه والفن المتقد في انبعاثاتها أثار إعجابي وتعلقي بها.
حصان أسود جامح، له الملامح المستدقة لحصان عربي، ذيله نافر في الهواء، وشعره فوق جيده المشرئب متناثر، فيه إيحاءات الرفض، وقائمتاه الأماميتان مرتفعتان عن الأرض، ومن تحت ضربات حوافره خليط من الأشياء هي امتداد للصفرة التي تشكل هالة لإحمرار الأفق المتقد من خلفه، ملامح وجهه تمتليء بالوحشية والجموح وعدم الترويض، عضلات صدره تكاد تكون مفصلة، تعطي التعابير للقوة والخصب والعطاء.
أبرز الفنان بمهارة الدلالات للتشكيل العضلي للحصان، ولتعبير الألوان، فتمكن من إعطاء المعاني وتشكيل الإيحاءات بطريقة تجعل من التداعي أن يوضع لهذه اللوحة اسم الثورة، أو الجموح أو الصهيل أو الرعد.
لقد أبدعت ريشة الفنان في إلقاء الواقع الجمالي من خلال تناسق الألوان وتنافرها من الأسود حتى البرتقالي الغامق المتوهج بلون الشفق الحاد.
تداخلت الألوان في اللوحة وافترقت وتناغمت لتعطي إحساساً بوهج ناري دون أن تكون هناك نار.
لا يستطيع المرء أن يستثني أي جزء من هذه اللوحة، إذ تتسع دائرة المركز شيئاً فشيئاً، وقد جعل زخم تشكيلها الفني الحصان الأسود

بكامله، وما يحيطه من انبثاقات نارية كلاً متكاملاً متناسقاً يؤدي إلى المعنى. إنني في الأساس أحب الخيول منذ الصغر، أتفاءل بها وأعتبرها أجمل الحيوانات.

جذبني قبل ثلاثة أعوام حصان فتي يشبه في ملامحه حصان اللوحة، باستثناء لونه الأبيض، التقاسيم والرشاقة لحصان عربي أيضاً، فالجواد العربي جواد رشيق يحتمل العناء، وقد قال عنه أرنولد توينبي في كتابه "تاريخ البشرية" حمل الجواد العربي الفاتحين العرب إلى نهر اللوار (في فرنسا) ونهر الفولغا (في روسيا) ونهر سيحون (في أواسط آسيا)".

العنق مشرئب، تتدلى من فوقه خصلات الشعر المتهدل الملساء والخشنة في الوقت نفسه، قصير الظهر، طويل الذيل، مرتفع مسنده، القائمتان الأماميتنان مستقيمتان تماماً، تعطي وقفته الشامخة أنفة ونهوضاً، مفاصله عريضة، فيه خيلاء الفتوة والجموح.

أذكر أنني تلقيت ضربة قوية من عمود خشبي بينما كنت أنهل من متعة إمتطاء ذلك الحصان، فيالها من متعه هذه اللحظة التي يصبح فيها الحصان وفارسه في فلك واحد لحركة منطلقة، عندما يأخذ الجسدان للحصان وراكبه يتجاوبان من خلال حالة المرابعة فيعتلي الجسد قليلاً ويعود إلى الخلف هابطاً، ثم إلى الأمام صاعداً وهكذا. أناخت الضربة على ظهري بكل ثقلها، ولكنني تمالكت نفسي وتحملت الوجع لم أستطع الحراك في اليوم التالي، الضربة قوية، وعليّ أن أدفع ضريبة المتعة.

حقاً فلكأن الحياة قد زاوجت بين المتعة والعذاب، وبين السعادة والألم لتجعل لكل معناه.

ثمة حكمة أيضاً لوجود الألم المعنوي، فبواسطة الألم الجسدي تدق

الأجراس منبهة لوجود المرض أو الخلل الذي يصيب الجسد، أما بواسطة الألم المعنوي فإننا نستشعر قيمة السعادة والأمان ورضى النفس، ويسترشد الطموح ويجد حافزه. كذلك هو الخير والشر في الإنسان ومجتمعه، وقد بلغ بالقديس اوغسطين قوله: "وإن كانت الخطيئة في الفرد عيباً محزناً، فإن العالم يزدان حتى بالآثمين".

لا أؤمن بتوجيه دعوة لتقبل الألم أو الشر، ففي مقاومتها تكمن بعض الحكمة من وجودهما، لا بد من الحد من الألم، ولا بد من مكافحة الشر، ولكنها النظرة الجدلية للأمور التي لا ترى في الأشياء خيراً مطلقاً أو شراً مطلقاً، والتي ترى في عناصر التناقض أو أطرافه وجهيّ العملة الواحدة أحياناً، في كل الظروف لا بد من مقاومة الشر لكي نصنع الإرتقاء.

صرنا نشاهد في بعض الايام ضباطاً عرباً بملابسهم العسكرية يأتون إلى المنطقة، قدرت أنهم جزء من فريق عسكري لمراقبة وقف إطلاق النار، أو الفصل بين الأطراف، سبق وأن شاهدنا مثلهم في عمان بعد أيلول 1970، حيث أرسلت قوات مراقبة عربية مختلطة من عدة أقطار لمثل هذه المهمة.

هؤلاء في النهاية يخدمون إتجاه المعادلة العربية التي جاءت بهم، ولن يقدموا الخلاص، لأن الواقع الذي أفرزهم لا يمتلك قدرة الخلاص. لقد علمتنا التجربة أن الحكومات العربية لا تتحرك إلا عندما تنضج الظروف، أو تصل المؤامرة إلى طريق مسدود، وفي الحالتين فإن التحرك يأتي كنوع من الإخراج للفصل الأخير: ترتيب النتائج، وترتيب ثمارها، أو حفظ ماء الوجه، أو إرساء فترة استراحة بين فصلين.

الصخر والبحر

في ظهر أحد الأيام فتحت علينا الأبواب، شاهدنا وجوهاً جديدة، طلبوني وعصبوا عيني، ثم نادوا المختار، وأخذونا معاً، أوقفونا بانتظار قدوم المصعد، سألت نفسي لماذا أنا والمختار؟! صار السؤال يكبر في ذهني، وبقي يكبر ونحن نهبط في المصعد، هل وصلتهم معلومات جديدة؟! هل أعترف علي المختار؟ ولماذا يتم الاستدعاء الآن؟!.

قادونا عبر ممر طويل ثم فتح باب وأدخلنا منه، فكّوا العصبة عن عيني، وجدت أمامي ثلاثة من رجال الدين المسيحيين مع أحدالذين حققوا معي واثنين آخرين.

توجه أحد رجال الدين إليّ بالسؤال عن أسمي، فذكرت له الأسم كما ورد في جواز السفر، أعاد عليّ سؤالاً عن لقبي ذاكراً إياه كما هو في الحقيقة، أكدت له الأسم كما لفظته وكما ذكرته في التحقيق، فسألني مباشرة:

- هل أنت فلسطيني أم يمني؟

- يمني؟

أخرج من جيبه ورقة ودعاني لمشاهدتها، فقرأت فيها:

"لمن يهمه الأمر"

تحية الثورة وبعد

يسمح للأب .... بالتنقل إلى المنطقة الشرقية والعودة في مهمة لتبادل الأسرى.

وثورة حتى النصر

التوقيع

قائد القوات المشتركة
أبو موسى

قلت في نفسي، حقاً هذا هو توقيع قائد القوات المشتركة في الجنوب، وعندما سألني عن القائد سعيد موسى صاحب التوقيع أنكرت معرفتي به، فتابع موضحاً لي أمره بالقول:

- إننا قادمون في مهمة لتبادل الأسرى، وقد جئنا لنأخذك، فإذا كنت أنت الشخص المعني والذي هو فلسطيني ويحمل أسمك كما أقوله فستذهب معنا.

هل اشتري سمكاً في بحر؟! إن أحد المحققين يقف أمامي، وفي كل الظروف لا توجد أية ضمانات، أجبته بهدوء:

- لست فلسطينيا، ولست صاحب الأسم كما تذكره.

تأتي على المرء لحظات يصبح فيها الخيار صعباً، فرصة تلوح أمامي للنجاة كيف أتصرف؟ لقد حسمت وخير للمرء أن يحسم، ليس هذا فحسب، بل وأن يختار ما يؤمن أنه الخيار الصحيح وليس الخيار السهل. لقد علمتني الحياة أن اتخاذ الطريق السهل بغض النظر عن مدى الضمانات لا يمكن أن يكون دون ثمن.

نظر رجل الدين إليّ بتشكك، لعله أدرك ورطتي، أو ربما كانت له مصلحة ما، فهو لا يريد أن يستسلم لهذه النتيجة سألني من جديد:

- إذن من أنت؟

- لقد أخبرتك.

- لماذا يهتم بك قائد القوات المشتركة في الجنوب كل هذا الاهتمام؟

- لا أعرف.

- هل أنت قريب ياسر عرفات؟

- لا.

- هل أنت لبناني؟

- لا.

- هل لك صلة بأحد الزعماء اللبنانيين، صائب سلام، كمال جنبلاط.. ؟

- لا.

- لماذا يهتمون بك إلى هذا الحد إذن؟!

- لا أعرف.

- حسناً، وعلى فرض أننا سوف نطلق سراحك، إلى أين تريدنا أن نرسلك هل نرسلك إلى اليمن؟

- أنا من سكان دمشق، أرسلوني إليها.

- ما هو عنوانك في دمشق؟

فكرت قليلاً، من الخير أنني قلت لهم أرسلوني إلى دمشق، لأن طبيعة علاقتنا مع سوريا في ذلك الوقت تجعلهم يأخذون طلبي بما يموه إنتمائي، أما إعطاء عنواني فيها فإنه يحمل بعض المخاطر، يجب أن لا أعطيه العنوان كاملاً، فهناك محذور في أن يتمكنوا من السؤال عني في منطقة سكناي. كذلك يجب أن لا أعطيه عنواناً مزيفاً، فقد أضلل بهذا رفاقي.

- أنا من سكان منطقة المزة.

- في أي شارع، وما هو رقم بيتك؟

- لا توجد أرقام للبيوت في منطقتنا.

- هل والداك على قيد الحياة؟

تأكد الآن حدسي، إنها أسئلة موجهة من قبل الأخوة ليتأكدوا ما إذا كنت أنا المعني، إن الإجابة على هذا السؤال لا تتضمن أي محذور، لذلك أجبته على الفور؟

- لا، توفى والدي في شهر أيلول في الكويت.

سجل رجل الدين جوابي على السؤالين الأخيرين في دفتر جيب صغير، وقال لي:

- سنحاول مساعدتك.

لم يسألوا المختار أي سؤال، أشاروا بالفروغ من استفساراتهم، تقدم الحراس مني وعصبوا عيني مرة أخرى، واقتادوني مع المختار إلى الطابق السابع حيث رفاقنا.

شعرت أن هناك مقداراً من الحقيقة في أقوال رجل الدين، فقد شاهدت الورقة التي أخرجها لي من جيبه مروسة بشعار العاصفة، وممهورة بختمها وبالتوقيع الصحيح لقائد القوات المشتركة. عموماً كانت أجوبتي دقيقة. أرسلت إشارتين إلى الاخوة، ولم أعط آسري شيئاً. لكنني توجست، هؤلاء المحققون ماذا سيفعلون الأن؟.. تشكك رفاقي الأسرى في إمكان أي تبادل، واعتقدوا أن ذلك مجرد مسرحية

لاستدراجي. مرت الدقائق والساعات في ذلك اليوم، وأنا أتصور لدى سماع كل حركة أو جلبة أنهم آتون لاستدعائي.

جاء المساء، وحل الليل، وعدت إلى مكاني أرقب النجوم وأتدبر ما يمكن أن أقوله، إن تعذيبهم وحشي ويصعب تحمله، وأصبح من المحتمل أن أعود إليه ثانية.

حاولت أن أشغل نفسي بمراقبة الضياء الماسي المشعشع، وأن أذهب بخيالي متناسياً الأمر الجديد، مستذكراً قول أرنست همنجواي في رواية الشيخ والبحر "واجه الأمور عند حلولها". وعدت مرة أخرى إلى الماضي، أو لعل الماضي هو الذي أتاني، تتبعت نفسي في بلدي صبياً، حيث الطبيعة الجبلية الوعرة، الخليل، يا مدينتي الجميلة كم أشتاق إلى جنتك الخضراء من بساتين الكرمة والتين والتفاح، كم أشتاق إلى هدأة أحضانك الدافئة ترد لي لوني، إلى أرض أحس أنها لي وأن هواءها يحنو عليّ.

مدينة الخليل هي مدينة الجبال والمرتفعات الحادة، والوديان العميقة، والصخور الصلبة، والينابيع المتفجرة في السفوح، والرجال الأسخياء الشجعان، لقد انعكست طبيعة الخليل الكريمة الصلبة القاسية على روح السكان، فالقسوة تقابلها المقدرة على التحمل، والصلابة يقابلها التصميم والعناد وقوة الإرادة، أما الكرم فإنهم أهل الكرم.

شاهدت نفسي في شيء من الرؤيا أو التخاطر عبر الزمن مع الذات، أهبط من بيتنا القابع في إحدى قمم المدينة متوجهاً إلى مدرسة وكالة الغوث الإعدادية في بناية الدبوية، وسط المدينة تقريباً. عبرت شارع الشلالة قرب بيت إبراهيم، ثم اتجهت إلى شارع باب الزاوية ودخلته

متجهاً نحو اليسار صاعداً إلى حيث مدرستي. آه يا مدرستي الحبيبة، يا ذكرى طفولتي ولهوي واجتهادي، واساتذتي الذين أحببتهم وتأثرت بهم وعلموني حب الوطن، وزملائي الذين شاركتهم المرح والدراسة والمشاكسة والآمال وباكورة ارهاصات النضال.

عدت ظهراً من المدرسة ماضياً في شارع باب الزاوية مروراً بقهوة "أبو زينة"، إلى الدوار مقابل مركز الشرطة، ثم صاعداً في طريق

"بير الحمص"، باتجاه حارة الشيخ التي ترابط على سفوح جبل بيلون الشاهق والتي نشأت وتربيت فيها بعد رحيلنا من القدس.

في تلك الحارة استمعت إلى الحكايا عن ثوار عام 1936، 1948، وبني النموذج في خيالي لبنة لبنة، تشربه وعيي كما يسقى الفولاذ.

كانت أسماء الشهداء أبراهيم أبو دية، وعبد الرحيم محمود، وشفيق أبو غربية، وعبد شاكر الجنيدي، وناجي النبي وعبد القادر الحسيني تشق طريقها في الذاكرة الحالمة الفتية، أما من المجاهدين الأحياء، فقد كان أسم عبد الحليم الشلف علماً في كل مجلس كما كان أسم بهجت أبو غربية يتردد باستمرار على ألسنة جدي وأقاربي وأبناء مدينتي، مجاهداً امتلأ جسده بالجروح وآثار الشظايا والرصاص، دافع ببسالة وعناد عن القدس، وتمكن في عام 1948 من المحافظة على عروبة الجزء الشرقي منها على الرغم من كل التحديات والتواطؤ.

بهجت أبو غربية رمز الصلابة والعنفوان والتحدي والتفاني في تاريخ الجهاد الفلسطيني قبل النكبة وبعدها، صورته التي رسمت في خيالي هي ملهمي في نمو ملامح القدوة الوطنية، في نمو المثال الذي حلمت أن أحتذيه.

أما شقيقه صبحي، ذلك الثائر الحالم، رفيق عبد القادر، أختلط حب القدس بدمه، فقد ذاكرته فترة طويلة من الزمن نتيجة لإحدى إصاباته وهو يدافع عنها، لكنه لم يفقد حنان لمساته لوردته القدس.

القدس زهرة صبحي، ومرتع أحلامه ورفيقة عمره، غدت في عام 1967 مكشوفة الظهر تماماً، سحقت المقاومة، ولم يعد هناك مدافعون، فقد حرم الشعب من كافة مقومات الدفاع.

رفض صبحي أن تسقط القدس دون أن يسقط هو على أبوابها، أستل سيفه من غمد صديء أتلفته المخابيء، فليس هناك سوى المسدس ليشهره ويسجل بشهادة الزمن أن مجاهداً قد خرّ صريعاً في صمت على أبوابها، وهو يطلق الرصاص في مواجهة القوات الصهيونية بمسدس بربيليوم في حزيران 1967، وقد أصيب بطلقة رشاش متوسط في جبينه. ولم تسقط القدس دون أن يسقيها صبحي أبو غربية دمه الشهيد.

كثيراً ما أخذت كتاباً من كتبي المدرسية، بعد الغداء مباشرة لأعود باتجاه دوار شارع باب الزاوية، وأتجه يميناً ماراً أمام مدرسة المازنية لأدخل شارع وادي التفاح، قاصداً إحدى مناطق الكروم النائية للقراءة أثناء المشي في الطرق الخالية، ثم النزهة ومقابلة الزملاء.

وهكذا فقد كان طريق وادي التفاح محبباً، أعبره باتجاه منطقة المربعة ومنها إلى المسكوبية، وهي منطقة أثرية قديمة تحتوي على دير يقيم فيه بعض الرهبان الأرثوذوكس من أصل روسي، وبقرب آثاره التاريخية، وفي عدادها شجرة بلوط معمرة جداً نسجت من حولها الروايات والأساطير الدينية.

كثيراً ما التقيت هناك –أنا وزملائي– بالسائحين، وتحدثنا لهم عن

فلسطين، موضوع واحد حملناه على كواهلنا هو الوطن القريب المحتل. وكثيراً أيضاً ما رحنا نجمع ثمار البلوط في أواخر الخريف أو الزعرور والبطم صيفاً. نأكل بعض ما نجمع، ونأخذ الآخر إلى أمهاتنا طالبين سلق البلوط أو شيّه على طريقة الكستناء النادرة.

أما البطم فيتم خلطه بعد تحميصه مع الزبيب أو خلطة طازجاً مع العجين وخبزه لصنع فطيرة شهية بنكهة البطم. يتم إعداد هذه الفطيرة في أيام الكروم وخبزها على (الصاج)، ما أجمل أيام الكروم.

تقع كروم جدي لأمي في منطقة بيت عينون على أطراف منطقة (ايزون) كما نلفظها، وهي منطقة تلي (بير حرم الرامة)، المكان الأثري الذي تعود أثاره إلى العهد الروماني، ويحتوي على أعمدة وحجارة رومانية وبئر عميق، وقد تعوّد السائحون أن يأتوا إليه في موقعه بين الخليل وبلدة حلحول.

أعتدت أن أقضي في كروم جدي كل صيف أكثر أيام السنة متعة واندفاعاً، أقوم خلالها بصيد العصافير بواسطة عيدان (الدبق)، وركوب الحصان، واللعب مع أقراني ألعاب الكروم كحفر الحفر أو صيد الجنادب عندما كنا صغاراً. وبعد أن أصبحت على وشك فتوتي صرت أشارك في إحضار الماء قبل بزوغ الفجر عادة من عين ماء بعيدة هي (عين بيت سليم)، وأشارك في أعمال القطف ومساعدة العمال، وفي مواسم آخر أيام العنب، حيث يتم إعداد مشتقاته كالدبس والملبن وخلافهما.

تأتي هذه المواسم عادة في أواخر الصيف وأوائل الخريف، عندما يصبح أصحاب الكروم على وشك النزول إلى بيوتهم في المدينة، فيتم

جمع قطاف العنب بأكمله لتحويله إلى مشتقات غذائية تستخدم في أيام السنة المتبقية. ويشارك في هذه العملية كل أفراد العائلة: الأخوة الرجال وزوجاتهم وأبناؤهم الذكور والإناث والأجداد الأصحاء.

يبدأ الأمر بأن تضع النساء أكوام العنب بعد أن يطرحن منه كل الحبات الهالكة في مكان يسمى (المدعس)، وهو عبارة عن دائرة اسمنتية أو صخرية معدة في الأرض، مسطحة وكأنها إناء واسع، وتنتهي بممر ضيق للسائل يصب في حفرة تتسع لمئات الليترات.

يخلط العنب بمادة ترابية بيضاء تسمى (الحُوّر)، يدوس الصغار والكبار عادة هذا الخليط بأقدامهم بعد غسلها، فيسيل عصير العنب إلى حفرة المدعس، ويبدأ جمعه وغليه لغلية واحدة ووضعه في أكياس من الخيش تحتوي كمية من الحور، ويتم تعليقها لتصفيته، تسمى المادة المصفاة (الراووق)، وهو عصير العنب الصافي الأصفر، الذي يفتخر به أصحاب الكروم كلما كان أكثر إصفراراً ويشبهونه بعين الديك.

يأتي دور الرجال لإعداد (الدبس) من الراووق، أو (العنب الطبيخ) من أكوام كبيرة من حبات العنب المفروط غير المعصور والمنتقاة قبل دفع أكوام العناقيد إلى المدعس لتحضير الدبس، وذلك بعد أن يكونوا قد أتموا جمع الحطب وشجيرات (النتش) اليابس، وعيدان الكرمة الجافة، وأتموا إعداد الأواني الخاصة وأهمها (الدست)، وهو إناء طبخ نحاسي كبير يتسع لكميات كبيرة من عصير العنب الراووق.

يبدأ الرجال بإعداد النار تحت (دست) أو أكثر حسب العدد المتوفر من العاملين، ويكون الدست منصوباً فوق حجارة تشكل مثلثاً من الركائز (الموقد)، يوضع في وسطها الحطب والنتش وعيدان العبري أي عيدان

الكرمة الجافة. ويتخذ هذا الإعداد بعض صور الفولكلور الخاصة.
يأخذ أحد الرجال (المحراك)، وهو قطعة خشبية مستطيلة يتم بواسطتها تحريك المادة الموجودة في الدست بصورة مستمرة. في هذه الأثناء تفتح حلقات الدبكة بالقرب من مواقع النار، وتطلق الأهازيج، وتستل الشباري أو البنادق في أيدي المشاركين في حلقة الدبكة، وتبدأ ليال من السمر والغناء الشعبي الخاص التي تنتشر على حلقات متباعدة في الكروم المتجاورة، ويستطيع المرء أن يرى من إحدى المناطق المرتفعة حلقات النار المتناثرة، والتي ينبعث منها الوهج على إمتداد النظر في تلك الكروم.
يعبر الرجل الخيليلي في أهازيج هذه الليالي عن إقدامه ونخوته وإستعداده لعبور وديان الموت من أجل كرامته وشرفه كما يعبر عن فرحه لإتمام الموسم وحصاده.
تستمر هذه العملية حتى ساعات الفجر، ويشارك فيها جميع أفراد العائلة، ولا تتم إلا في وسط العائلة الواحدة أو الاقرباء، مما يتيح للنساء أن يشاركن بعض الأحيان أو يطلقن الزغاريد أو يقفن قريبات من حلقة الفرح والسمر.
في الصباح تفرغ المادة بعد أن تكون قد بردت وتوضع في أوان فخارية مستطيلة تسمى جراراً للدبس أوزوريات للعنب الطبيخ.
إضافة إلى استحضار الدبس والعنب الطبيخ يتم استحضار (الملبن) والخبيصة، ويعد (الملبن) من الراووق مضافاً إليه كميات من (حب قريش) والصنوبر، ويصب على قطع قماشية بيضاء مستطيلة، وبعد أن تجف بالتعرض للشمس تسلخ المادة عن القماش وتقص على شكل

ألحفة، أما الخبيصة فهي المادة اللزجة التي تسكب من هذا الخليط في الأواني الخاصة بعد إنضاجه، وقبل صبه على قطع القماش.

يتم إعداد الكثير من المحاصيل في الكروم لتخزينها والتغذي عليها أُثناء الشتاء، ومن ذلك (القطين)، وهو التين المجفف بتعرضه لأشعة الشمس، و(الزبيب) العنب المجفف بالطريقة نفسها، ومربيات بعض الفواكه، والبندورة المجففة أو المخللة، وأنواع المخللات الأخرى من الخيار والفقوس والزيتون وحصرم العنب وورق العنب الخ. وتوضع هذه المستحضرات في أوان خزفية خاصة هي الجرار.

يمتليء بيت الخليلي بهذا المخزون الذي يعيش عليه طيلة الشتاء، فشتاء الخليل صعب وبارد، وطبيعتها قاسية، يصبح هذا المخزون في الأشهر الشديدة البرودة هو التموين الأساسي للناس الذين ينقطعون في بيوتهم لعدة أيام نتيجة غزارة وتراكم الثلوج.

تمتد مدينة الخليل بين عدد من الجبال وتنتشر كرومها في المرتفعات والوديان والسفوح، وقد تمكن أهل الخليل من تحويل الصخور الصلدة إلى أماكن خضراء مزروعة، ومن تحويل طبيعتها العنيدة إلى بساتين للعنب والتين والكثير من الفاكهة والخضار، وجعلوها الأكثر إخضراراً بالمزروعات المثمرة وخاصة الصيفية منها. وعلى الرغم من تطويع الخليلي للطبيعة بقيت الجبال شامخة تطل بارتفاعاتها وتحتفظ بكل خصائص قسوتها، أتذكر تلك الأيام التي كنا مضطرين فيها أن نقطع عدة أميال بين الصعود والهبوط لشراء الحاجيات من الأسواق البعيدة أو للإنتقال إلى الحارات الأخرى أو حتى للذهاب إلى المدرسة.

شتاء الخليل صعب بارد وثلوجها الموسمية خاصة في رؤوس الجبال

ثلوج مشوبة بالعواصف والرياح، وغالباً ما تتراكم في أيام تساقطها وتسد أبواب البيوت والطرقات.

أثناء تلك الأيام المثلجة كنا نضطر أحياناً للذهاب إلى مدارسنا، وفي الأحيان الأخرى كانت المدارس تغلق أبوابها. كثيراً ما سرنا فوق هذه الثلوج بأحذية منقوبة أو مرقعة، وكثيراً ما تجمدت أقدامنا أو أصابها الإحمرار والزرقة من شدة البرودة.

كنا نتنفس الصعداء بمجرد تمكننا من الولوج قرب كانون النار، وهو وعاء توضع فيه النار للتدفئة، معد من مادة (القلالة) ومعها قصفات من عيدان السنابل الجافة. سرعان ما رحنا نتراكض لتمرير أيدينا من فوق لهب النار وجمرها أو لتقريب أقدامنا إليها بعد عودتنا عبر المسافات الطويلة من مدارسنا.

هذه الخليل بجبالها، ووديانها، وشتائها وثلوجه، وصيفها الجميل وكرومه واندائه، هي التربة التي جبلت بها أرومتي وأحلامي، وهي الطبيعة التي انعكست في نفوس أبنائها، فالخليلي رجل ليل، مقدام وشهم، ويتصف بالكرم والتعلق بالمعاني المثالية، والذكاء الحاد، والرجولة التي تتحدث عن نفسها، يتأثر بالكلمة الطيبة، لديه لهجة جبلية خشنة ووعرة وحادة. إنه يعتز بعناده وصلابته وبميوله المحافظة، واستعداده للمغامرة وركوب المخاطر، ولا يتردد في أن يجود بالغالي والنفيس إذا دعا الداعي أو احتاج الجار، جرت العادة في الخليل أن يتبادل الجيران كل مساء صحوناً من عشائهم، وأن يرسل نازلو الكروم سلال التين والعنب إلى أقاربهم وجيرانهم الذين لا يملكون الكروم، وتكاد هذه السلال لا تنضب، فهي ترسل لأكثر من مرة في الاسبوع

الواحد. وفي نهاية موسم الصيف يقدم أصحاب الكروم إلى ذويهم أو جيرانهم الآخرين جزءاً من محاصيلهم الصيفية من مشتقات العنب والتين والمخللات. وهذا أحد مصادر الترابط الذي ينعكس بدرجة من درجات التضامن خارجها.

أما سكان قرى جبل الخليل فلديهم كل سجايا أهل المدينة وطيبتهم. لديهم كرم متميز، وعطاء سخي، يشقون طريقهم في العمل الصعب ويتطلعون إلى حب المعرفة والتعليم، تربطهم بأهالي الخليل صلات لا تتمتع بها المدن الأخرى، وهم لا يسكتون على الضيم ولا يستكينون للظلم، يتذكر المتقدمون في السن منهم توزعهم بين القيسيين واليمنيين، تتجاذبهم ثارات قديمة وتسامح ينبع من سجايا الحلم وصفاء القلوب. تتشكل نفسية الخليلي عموماً من تضاريس الخليل، فهي تأخذ شكلها وحدتها وكرمها وقساوتها. آه أيتها المدينة الشامخة، أيتها الرياح العاتية، أيتها الصخور العنيدة، أيتها الجبال المعطاءة والينابيع الثرة والصيف الجميل والشتاء المتسلط، أنت جبالي التي في وديانها وقممها وسفوحها تمرّغْت ترابها، تسلقت حدة إنحناءاتها، طاردت الأفاعي، اصطدت الطيور، ركبت الخيل، وجبت خلاءها وكرادشها في غز الظهيرة والظلام.

أنت جبالي مصدر كل هذه الزوايا الحادة من الحب والعناد التي تملأ القلب، مصدر كل هذا الحس بالكرامة والعنفوان، مصدر كل هذا الرسوخ وكل هذا الصعود والهبوط بين الصفاء والغضب، أنت طبيعتي بكل فصولها وطقوسها وقيمها وتضاريسها. يا رفاقي الذين معي في هذا الأسر، كل واحد منكم له مدينة جميلة في فلسطين، وقد

ترك هو أو أبوه فيها بيتاً وأهلاً وفؤاداً وفياً.
جاءني صوت من الماضي، من حيث الذكرى، ومن حيث خبأت الفؤاد مثل ماسة مشعة تضيء صدري بالوجد وبالوجيب، إضاءة نورانية مشتعلة من زهرة الحس الكوني الفائض.

القلب أطلق جمرة عادت إلى فجر الخليل

رحلت يراودها الكلام
وتوهجت كي تكتسي بلداً وفلاً
وتبعثرت كي ترتدي وهج الصهيل
فأخرج لها زيتونة
قمراً تورد في الظلام
وأفرش لها نوراً وظلاً
أفرد لها وطناً على دمنا القتيل
أخرج نخيلاً من دمي
أو زهرة مالت على عش الحمام
وانهض قرنفلة إلى وطن تناثر في الغمام
وألمح بريقاً للعيون ونجمة في الفجر تنهض للرحيل

***

القلب يطلق نحله
ويفر من عبث الضياع على منافيهم ومن عبث الزحام

يأوي إلى حلم، وتلك حبيبة جمعت شظايا القلب من فوضى
ومن وسط الركام
ورفيقة رسمت نضال العمر فجراً آتياً
وظلال أوسمة على حدالحسام
الوجد نبع راحل لذرى الجبال وللأصيل
والجرح يمضي للينابيع التي شقت صخور المستحيل
في القلب إشعاع الإياب
والقلب أصبح وردة
كادت تفر على جناح لليمام
كادت تفر إلى الندى
وإلى الخليل

***

توغل الليل، تبين لي أن بعض الرفاق قد ناموا، وأن أبا مروان قد فرغ من ملء الوقت مع بعض الذي ما زال مستيقظاً، أقترب مني، نظر (بعيني نمر حقيقي) إلى الأفق الفسيح المطرز على أرضية من الظلام ولون السماء، وفتح الكلام معي:

- منذ زمن وأنت تقف هنا.

- هذا صحيح، لقد أخذتني الافكار بعيداً

أشار محذراً إلى المكان الذي نعتقد أنهم وضعوا فيه جهازاً للتنصت، مبرراً لجوءه إلى خفض صوته إلى درجة الإكتفاء بتحريك الشفاه أو

الإشارة عند بعض العبارات التي قد ينجم عن سماعها ثغرة ينفذ منها آسرونا، المهم أننا قد تمكنا من تبادل الحديث طويلاً، وقد تركنا الرفاق الآخرون وحدنا، لعلهم أنهمكوا فيما بينهم، أو أحسّوا أننا نرغب في الإنزواء عنهم.

أخبرني أبو مروان أنه عضو في حركة فتح وأسمه الحركي سلام، وأنه والبحار أبو علي يعلمان بأمري منذ صعدت إلى السفينة، وأنهما كانا شديدي الحرص عليّ، ثم تابع موضحاً:

- مع الكتائب، من الصعب أن تتحدث عن أمل بالنجاة، لم يدخل فلسطيني عندهم وخرج حياً، أملنا ضئيل جداً، بدأوا يسترخون وأصبح من الممكن أن نفكر بعمل ما.

قلت في نفسي، أيها الشيخ الأسد، بعد كل هذه السنين ما زالت روح المغامرة والمبادرة تملأ هذا الجسد!! أية شكيمة تسكن هذه النفس التي عجمت عود الحياة!!

عرفت من تجربتي به في الأسر أنه يعني ما يقول، بل يعني أكثر مما يلمح، إنه صنف من الرجال متريث ولكنه حاسم، يعرف في أية زاوية من زوايا النفس يطوي السر وفي أية بئر عميقة يخبئه. الرجال أصناف، وأبو مروان من الصنف الذي يعرف تماماً ما الذي يجب أن يفعله حيال القضايا الصغيرة والكبيرة، قلت له:

- نستولي على عدد من بنادقهم.

وضع يده في يدي موافقاً على إدراكي لمراميه، وشد قائلاً:

- لندرس الظرف، لا تخبر أحداً.

الظروف الموضوعية المتشابهة تخلق أحاسيس متشابهة وأفكاراً متشابهة وخيارات متشابهة.

فتح أبو مروان قلبه لي، تحدث بلغة سلسة عميقة جميلة مليئة بالحكمة وآثار التجربة، تجرد من التشبث بالحياة، ارتفع فوق الغرض أو المصلحة الذاتية والأنانية، حلق في سموه فوق عالم الأخذ، دخل في آفاق عالم العطاء، أي سيف هذا هو سيف التجرد من التشبث بالحياة؟! أية نار تطهر النفس من أغراض الذات وتغسل القلب والضمير والأخلاق، وتفتح آبار الحكمة؟! ليس بالعقل وحده يستشف الإنسان الحكمة والحقيقة، ولكن بسمو النفس كذلك.

استوقفني ملياً تفكير أبي مروان، صحوت صباحاً أتخيل كيف يمكن تنفيذه، شغلني التصور لوضع خطة، شعرت بالحماس وبالحاجة إلى إشراك آخرين، قلت في نفسي، الكل سيعرف أخيراً، ولكن كل في وقته الواجب، المعرفة هنا على قدر الحاجة وليس أكثر. هؤلاء الشباب سيندفعون للمشاركة والقبول، إنهم الآن لا يدرون فيما نفكر، لعلهم قد حصلوا على لفافة تبغ، إذ سمعت أصواتهم يتلاومون على من أعطى الآخر بالأمس، صوت أبي مروان من جديد:

- يا بني إذا أعطيت أنس، وإذا أخذت تذكر.

قال ذلك موجهاً كلامه لعلي، تأملت قوله، أية مناقبية تدل على مثل هذه الوصية!.

ما زال علي يظهر من حين لآخر بعض الإنفعالات غير الناضجة، قلت بعض مشاكله نتيجة لطريقة السلوك التي حددت له الضوابط، واظبت

على توجيهه مستخدماً الإرشاد ومقدماً النموذج ومظهراً الحزم.
توقف الشباب عن ضوضاء عتابهم عندما سمعوا المفتاح يدور في قفل الباب، دخل ثلاثة مسلحين، نادوا علي، عصبوا عيني، واقتادوني معهم إلى الأدوار السفلى، وعندما أزالوا العصبة وجدت نفسي في غرفة التحقيق، أمام المحقق من جديد.
يا إلهي، أعطني القدرة والإحتمال، لن يأخذوا مني شيئاً، ولن أنحني، وليكن ما يكون.
بدأ المحقق بالسؤال:

- قائد القوات المشتركة في الجنوب، يهتم بأمرك كل هذا الإهتمام! وفتح ترمي بثقلها من أجلك بينما أنت يمني ولا علاقة لك بالفلسطينيين! لماذا كذبت علينا؟.

- لم أكذب عليكم.

- حسناً، فسر لي، أليس غريباً أن تطالب بك فتح؟!

- نعم، إنه أمر غريب، سألت نفسي السؤال ذاته، ولا يوجد لدي سوى تفسير واحد ومع ذلك فإنني ما زلت استغرب.

- ما هو تفسيرك؟

- لقد أخبرتكم، منذ اليوم الأول أثناء التحقيق، أن لوالدي صديق بمثابة الشقيق، وهو من كبار مساعدي ياسر عرفات.

- وضح أكثر مما قلت.

- أخبرتكم أنه كان لوالدي مزرعة في سوريا، وأن علاقة وصلت حد الأخوّة ربطته في تلك الأثناء بموظف كبير في وزارة الزراعة السورية، وأن ذلك الموظف قد أصبح من قيادة المقاومة الفلسطينية، وأنه زارنا في الكويت، ودعوناه إلى الغداء، وحضر معه بعض من مسؤولي فتح في الكويت.أعتقد الآن أن أهلي عندما علموا بما حصل لي في البحر قد وسطوا هؤلاء المسؤولين، أو ربما اتصلوا بصديق والدي، وهو الذي وضع ثقله وجعل فتح تطالب بي:

طلب المحقق من أحد مساعديه أن يحضر له ملف التحقيق، ثم توجه لي بالحديث ثانية:

- وهل تظن أن هذا الكذب سينطلي علينا؟!

- هذا ليس كذباً، ولو كان كذلك لما قلته لكم منذ اليوم الأول.

- لديك فرصةأخيرة كي تخبرنا الحقيقة، وبذلك نتمكن من مبادلتك مع بعض الأسرى، أما بغير الحقيقة فإنك لن تفيدنا في أية عملية لتبادل الأسرى، وسوف نتخلص منك.

- تتخلصون من شخص بريء؟!

- الحرب مليئة بالضحايا الأبرياء. لن نتركك حياً دون ثمن.

- لقد تحدثتم لي عن عدالتكم!

- العدالة بعد الحرب.

وصل ملف التحقيق، أخذه المحقق وراح يقلب أوراقه، استوقفته بعض الكلمات، تابع تقليب الأوراق ثم عثر على شيء يريده، قرأ مرة، ثم دقق ثانية، هز رأسه ونظر لي:

- كلام غير مقنع. سنجعلك تنطق الحقيقة.

طلب مني الاستدارة باتجاه الجدار والوقوف على ساق واحدة، ثم حذرني من المخالفة ومضى. لاحظت أن أحدهم بقي في الممر يواظب على مراقبتي بين الفينة والأخرى.

قلت في نفسي: يبدو أنني عدت إلى البداية، يهيؤونني بالإرهاق والإنهاك ليعود التعذيب والاستجواب. عاد إليّ التعب من جديد، وشعرت بالإرهاق وارتعاش العصب، أكاد أكب على الجدار المقابل، سأتكيء عليه بكتفي، أنزلت ساقي، لم يشعر بي أحد، التفت إلى الباب لم أر أحداً، رحت أراقب الباب مراقبة خفية وأنا استريح بالوقوف على ساقي معاً، وعندما أشعر بأحد يقترب أعود للوقوف على ساق واحدة، تكرر هذا الأمر عدة مرات طوال أكثر من ساعتين. خاطبت نفسي: إنها مجرد لعبة، متى سيبدأون عملهم؟

هذه المرة بدأوا بطريقة مختلفة، إذ حضر المحقق وسألني:

- ماذا تريد أن تقول؟

- أخبرتكم بكل شيء.

أشار لأحد الأشخاص الواقفين خلفي، وإذا بهذا الشخص يتقدم مني ويكشف عن ظهري ثم عن ساقي، تفحص صدري ونظر في وجهي

ثم أشار للمحقق إشارة أنه لا يوجد شيء. في تلك اللحظة أيقنت أن موضوع تبادل الأسرى ورجال الدين لم يكن مسرحية، إنه يتفقدون جسمي بحثاً عن آثار التعذيب، وهذا لا يكون إلا بسبب إحتمال تبادل الأسرى.

بمحاولة منه لإظهار الصرامة والجدية أمر المحقق بإعادتي، ولكن دون غلظة تجاهي.

عندما وجدت نفسي بين رفاقي رويت لهم ما تم معي، وأظهرت تأكيدي أن هناك عملية تبادل للأسرى، وأن هذه العملية قد تتم في القريب، ولا أعرف ما إذا كانت ستشمل الجميع أم أنها ستقتصر عليّ وعلى المختار، نحن اللذين تم أخذنا لمقابلة رجال الدين.

لم يصدق محمود الحلاق ولا سامي اللل هذا التحليل، وقد أكد سامي أن أحداً منا لن يخرج حياً، وأنه يعرف الكتائب لأنه إبن بيروت. ثم التفت إليّ وقال:

- لو حدث وخرجت حقاً، سجل اليوم الذي تخرج فيه على أنه يوم ميلادك، بل وثبته على جواز السفر!.

أشار أبو مروان أن سامي لديه بعض الحق، ولكنه لم ينكر وجاهة مقدمات استنتاجاتي، فتذكرت ما قاله لي المحقق "لن نتركك حياً دون ثمن"، أخذت هذه الجملة تكبر في ذهني، ولما أخبرت أبا مروان بها، سرح قليلاً ثم قال:

- إذا خرج واحد منا حياً فإن الجميع سوف ينجون.

ثم أضاف:

- فكرت بالأمر بعد أن خرج أبو علي، وقلت لنفسي، إذا خرج أحد غيره من هذه المجموعة، فإننا ناجون حتماً.

وتابع أبو مروان مرة أخرى:

- ستخرج إن كان هناك أسرى عزيزون عليهم، أو ربما بفدية مالية كبيرة، وفي كلا الحالتين سيكون خيراً لنا جميعاً.

لا أعرف متى استفرد بي بعدها وهمس في أذني:

- إذا خرجت أنت ستتبدل الظروف، وتتغير الخطة التي في رأسي، ستصبح مسؤوليتك أن تعمل لإخراج الجميع.

شددت على يده بدوري متعهداً، أمسك بيدي وأضاف:

- اجمعوا أسراهم، واحتفظوا بهم لمبادلتنا، إنني أعرف جماعتنا يطلقون الأسرى دون حساب أو تفكير بأن يكون لنا أسرى بالمقابل.

استثمرت الفرص للإستفراد بالشباب واحداً واحداً، لأوصيهم كيف يتصرفون، وأعيد التدقيق في أقوال كل منهم همساً، وأخبرهم أنني حتى لو خرجت من دونهم فسوف أذهب لجمع الأسرى الكتائبيين والمبادلة بهم، وأنني لن أتخلى عنهم.

راحت الساعات تمر وأنا في حالة من الترقب، أعود من حين إلى حين أتطلع إلى البحر الهادر، أتأمل أمواجه وحركته وزبدها وارتطامها بالشاطيء، فيمتد في أعماقي خيط خفي من العلاقة بين الجبال التي نبت في أحضانها وبين هذا البحر الذي لا أعرف منه سوى صفحته الزرقاء الصاخبة، وإتساعه الممتد وهو يحتضن الأنواء ويطلق زئيره الرتيب

ويلقي بزبده على حافة اليابسة.
إنني إبن الجبال يا بحر، عاركت صخورها، وأقتفيت ينابيعها، وبحثت عن ضالة وسط أعشابها ونباتاتها البرية والمزروعة.
عاندت صعود وهبوط وديانها وقسوة السير بين منحنياتها والبحث عن مخابئها ومواقع الظلال فيها، تربيت مع صيفها المشمس بنسماته الطرية والندية، ومع شتائها العاصف المثلج، فتركت لي الكثير من حكايا الصيف وملامحه ومن حكايا الثلج وقسوة رياحه العاتية وهطوله الجميل ونقائه الجامح.
أخذت منها كل عادات أهل الجبال وصفاتهم، وزرعت على سفوح آفاقها أحلامي وهمومي، وها أنت أيها البحر أمامي تعيدني إلى جبالي وذكرياتي، وتجعلني أتتبع خط الصعود والهبوط ما بين الجبال ووديانها على صفحة الأمواج لأكتشف الحبل السري الذي يمتد بيني وبين مداك الرحب بأعاصيره وعمقه وصفائه.

البحر يا للبحر، يدنيني ويقصيني
وأنا البحار ومن ضلوعي الماء
وأنا النهار ومن صفاتي الشمس والصحراء
وأنا وما أعطى رغيف كفافنا الفقراء
فاسأل مجيئك عن رجوع العائدين
واسأل كتابك عن حصار القلب، حاصرني الحصار
وأنا الجدار

ومن يديّ الصخر والأشياء
آتي على مر السنين
ند الشجاعة واليقين
والبحر يا للبحر، يدنيني ويقصيني
آتي إليك من السيوف المشرعات
فأبعث نشيد الإغنيات
وأبعث إليّ دلائل الأعماق
اشتاق!! هل تشتاق؟؟
يا بحر والأنواء من لون الغضب
أطلق أعاصيري فقد شب اللهب
هذي يميني..
لا السجن يرهبني ولا السجان يثنيني
يا بحر هل يشجيك إن لمس السفين لك الجراح؟
لا ينحني في الدرب من عجم الكفاح
فارقب مجيء الفجر، لاح على الدجى جمر الصباح
واسأل رياحك عن حنين الساعد المعتد إذ حمل السلاح

***

مع نفاذ ساعات النهار، صار الإنتظار يغُير في الحيز الخلفي من مشاعري، ففي كل ساعة جديدة كان يقترب المساء ويتضاءل الأمل باليوم إلى أن حل الظلام ورجعت إلى ليل النافذة، أتأمل السماء والنجوم والقمر وأناجي نفسي واعداً بالكثير ومنتظراً الغد.

وقف أبو مروان في تلك الليلة إلى جواري من جديد، واستغرق يحدثني بالهمس إياه عن أسرته وأولاده وبلده في فلسطين، وكيف هاجر مع ذويه مطرودين من قبل العصابات الصهيونية، وكيف وقعت المجازر الإرهابية بحق الفلسطينيين على أيدي هذه العصابات، ثم أردف:

- اعتقدنا أنها ستكون رحلة أيام ونعود بعدها إلى بيوتنا وقرانا، انصرف ظننا إلى أن العرب سيتدخلون، وأن العالم لا يقبل الظلم، وأن الدول ستأباه وتعيد الحق إلى نصابه.

كنا نظن أن هناك مُثُلاً وعدالة ومبادئ تحرك الرأي العام العالمي، وأن ذلك كله كفيل بأن ينصفنا، تبين أنه لا يوجد في اعتبارات الدول غير المصالح. المباديء لا مكان لها إلا من أجل استكمال الصورة الشكلية للمواقف والمصالح والبرامج. يبدو أنها ضرورية لذر الرماد في عيون الناس والتاريخ.

إنتظرنا قرابة الثلاثين عاماً حتى الآن، تصدقوا علينا بالطحين، وواجهنا القمع والإضطهاد والممنوعات. في لبنان كنا ممنوعين من مغادرة مخيماتنا ومن العمل ومن أبسط الحقوق، أصبحنا أجراء بثمن بخس، تجبر المكتب الثاني علينا، كان الواحد منا لا يستطيع أن يخرج من دائرة المخيم دون إذن.

عندما جاءت الثورة تغير حالنا، أصبحنا نحمل السلاح، وأصبحنا مثل الآخرين لنا كرامتنا وآدميتنا، لم ينته الفقر لكننا أصبحنا في صفوف البشر، يريدون للفلسطيني أن يعود إلى قيوده لكي تضيع فلسطين. هذه الحرب ليست حرب الكتائب: إنهم أدوات فيها سواء أدركوا أم لم يدركوا، الحرب أكبر منهم ومن الدول العربية التي تحيط بهم.

ذكرني كلام أبي مروان بقصة كل فلسطيني، تلك القصة التي تتكرر على لسان مئات الآلاف من أبناء شعبي من جيل النكبة، اعتقدنا أنها ستكون رحلة أيام ونعود بعدها إلى بيوتنا وقرانا.

العبارة ذاتها، قالها لي أبي، وقالها جدي "تركنا بيتنا في القدس، وكنت أنت طفلاً رضيعاً، وفقدت عيني بشظايا قذيفة أطلقها اليهود على البازار في القدس، بينما أنا جالس أمام دكاني أبيع واشتري، سقطت القذيفة فجأة وبدون مقدمات، فأصبحت نتيجتها ضريراً، وليس لي غير أبيك، الحمد لله أنه بقي حياً. قلنا اسبوع، اسبوعين، ونعود وما زلنا ننتظر الفرج، تعذبنا يا ولدي في البلدان العربية".

لقد تعذبنا حقاً، استطرد أبو مروان، ثم تابع قائلاً:

- لم نأخذ نفساً من الراحة إلا بعد أن أصبح بأيدينا السلاح، وجدنا الراحة المعنوية فحسب، سلاحنا وثورتنا هما الكرامة والحرية. صحيح أن هناك بعض الأخطاء، لعل واقعنا يفرض ذلك، فلا توجد ثورة دون عيوب، ونحن لم نستورد ملائكة من السماء نقاتل بها، لنا عيوبنا وخطايانا، لكن الثورة والمنظمة هي الصورة الوحيدة للوطن لدى الفلسطينيين، من دون السلاح والثورة والأرض سوف تهضم كل حقوق الفلسطيني أينما حل.

حتى وأنا أتفهم ظروفنا فإنني كثيراً ما اتساءل عن أخطائنا، لماذا نسمح بها؟ إن تقليص الأخطاء يقوي المنظمة، والأخطاء الصغيرة تنمو مع الزمن وتصبح أخطاء قاتلة، علينا أن نحذر كثيراً. إن التعايش مع الأخطاء يعبر عن حالة من الضعف أحياناً، ولكنه يعبر غالباً عن بذور الخطيئة لدى من يقبلون هذا التعايش.

صمت أبو مروان عن استطراداته هنيهة، وقد أحس أن ذهني قد شرد بعيداً، نظر متأملاً عمق الأفق والظلام ثم قال بلا مقدمات:

- غداً سيأخذونك، وستنجو إن لم تكن هناك مفاجآت، أخشى عليك من المفاجآت. وإذا نجوت أنت سوف نتبعك بالتأكيد، لا تنس الأمر الأساسي، اجمعوا الأسرى.

كأنني نسيت الانتظار في ضحى اليوم التالي عندما حضروا فجأة وطلبوا مني أن آخذ حقيبتي من غرفة مجاورة وأبدل بعض ملابسي، طلبوا المختار أيضاً، أيقنت لحظتها أنني والمختار وحدنا المعنيين بالتبادل.

استوقفتني رؤيتي لعلي وهو عائد من دورة المياه يحمل بقايا لفاف التبغ ويقدمها لرفاقه، وقد نظر إليّ ليتبين ما إذا كنت قد لاحظته، استوقفني المنظر وسعدت به وأدركت نجاح التحول في علاقاتنا.

ليس بوسعي الآن أن أصف تلك اللحظة عندما رحلت عن رفاقي، خفقت القلوب، تقاطعت النظرات، الأمل، الفرح، الفراق، فقدان الأعزاء، الرجاء بعدم النسيان، الوعد، كلها أمور تجمعت في تلك النظرات المتقاطعة دون كلام.

وجوم على الوجوه، كأن الخيمة فقدت أحد أعمدتها، وتردد يجيش

بداخلي كأنني فقدت الرغبة بالخروج. وتحت وطأة اقتياد المسلحين لنا تبادلت الوداع مع رفاقي ومضيت.

***

هبطنا إلى الدور الثاني، لأول مرة أهبط طليق العينين، أدخلونا في غرفة وجدنا فيها رجل الدين، أكد لنا أننا سنمضي بعد القيام ببعض الإجراءات.

اقتادونا إلى غرفة أخرى سلموني فيها أشيائي التي بحوزتهم ناقصة كل ما هو ذي قيمة، ثم غرفة ثالثة وجدنا فيها مصوراً ومعه آلة تصوير، اجلسوا المختار والتقطوا له صورتين: واحدة أمامية والأخرى جانبية، ثم تليته بدوري، سألني المصور ما إذا كنت أعرف بيروت، أنكرت معرفتي لها، وسألته متمادياً ما إذا كنا سنتمكن من الوصول إليها قبل الغروب. أكد لي أننا في وسط بيروت، وأننا خلال وقت قصير نكون في الجانب الآخر.

أعادونا إلى الغرفة السابقة، تجمع عددٌ من الذين شاركوا في التحقيق، ووجوه أخرى لم أرها من قبل، تجاذبوا معي الحديث، ثم لاحظ أحدهم:

- لهجتك قريبة من اللهجة الفلسطينية.

- ليس كثيراً، مع هذا فقد عشت في الكويت بين بعض الفلسطينيين وخاصة في المدرسة.

سألني آخر:

- أين تذهب في بيروت؟

- لا أعرف.

أغراني سؤاله لأن أتمادى في التهكم مرة أخرى، فطلبت منه أن يوصي المختار بإيوائي، فنظر إلى المختار مؤكداً عليه:

- يا مختار، هذا شخص غريب، أمنه في بيروت، وساعده حتى يصل دمشق.

نظر إليه المختار نظرة تردد وحيرة كأنما يريد أن يقول شيئاً، فوجهت له نظرة حادة فهم منها أن يلعب الدور، فحرك رأسه مستدركاً وقال:

- إن شاء الله.

فأضفت:

- وأن يعطوني نقوداً بدلاً من النقود التي أخذتموها.

- أمّنَه أيضاً بنقود توصله إلى دمشق.

رد المختار مؤكداً مرة أخرى:

- إن شاء الله.

أقبل رجل الدين يحمل بيده أوراقاً وبرفقته أحد المسؤولين الذي سمح له بأن يصطحبنا. لم ننتظر المصعد، هبطنا الدرج، وجدنا أنفسنا خارج الباب، وسيارة أجرة بانتظارنا، ركبت أنا والمختار في المقعد الخلفي، وركب رجل الدين في المقعد الأمامي، وانطلقت بنا السيارة.

الحرية، ما أعظم الحرية! هذه الكلمة التي ناضل الإنسان تحت لوائها طوال تاريخه، استشهد الشهداء، وقاتل المقاتلون، وهبت ثورات، وواجه المناضلون العسف والاضطهاد والتنكيل، وكتبت القصائد الجميلة والمعاني الحلوة، وتعطشت شعوب وألهبت حناجر، ما ألذ مذاقها! وما أطيب التنفس بها، شعرت كأن رئتيّ إتسعتا، صار الهواء طلقاً نقياً، واليدان طليقتان، والأشياء أمامي، أراها كما أشاء واتنقل بينها.

أيتها الحرية الجميلة فوق أرض الوطن العزيز، أنت الهدف الأنبل لكل نضالنا وأحلامنا.

مرت السيارة في شوارع مليئة بالخراب وآثار الدمار وشظايا القنابل والقطع المتناثرة، والرجال المسلحين، تحدث معنا رجل الدين:

- أنتما الآن طليقان، وبصحة جيدة، وبعد لحظات ستريان الأشخاص الذين تستبدلان بهم، إنهم مصابون وعلى الحمالات.

سألته على الفور:

- هل أسروا مثلنا في سفينة ركاب؟

- لا. أصيبوا في معركة العيشية.

أبرز رجل الدين أوراقه لدى كل حاجز من حواجز المسلحين، أخذ كل مسلح يقرأ الأوراق، يثبت نظره علينا، سمح بالمرور، أو تلكأ قليلاً، أو أشار لزملائه فأحاطوا بالسيارة يحملون أسلحتهم، ثم نمضي إلى أن وصلنا الحاجز الأخير.

توقفت بنا السيارة، شاهد مسؤول كتائبي الأوراق، ثم تم نقل شابين مصابين باتجاه المنطقة الشرقية، عندئذ تقدم أحد المسلحين يحمل على كتفه إشارة كتب عليها "النمور" عرفت منها أنه ينتمي لجماعة حزب لأحرار، وهو الحزب الأكثر تطرفاً قياساً بحزب الكتائب، سألنا بعض الأسئلة عن المكان الذي أسرنا فيه وعن أشخاصنا، فأجبناه الإجابات التي كررناها عليهم.

أمرنا بالنزول من السيارة، تباطأنا، سحب أقسام سلاحه وصوبه باتجاهنا، فزع رجل الدين راكضاً دافعاً إيانا داخل السيارة، واستقل مقعده وهو يأمر السائق بسرعة السير. فر بنا فراراً. تذكرت ما قاله أبو مروان "أخشى عليك من المفاجآت".

نجونا يا أبا مروان، صدق حدسك، وبقي وعدي، ولا أدري، لو أن أبا مروان قد سمعني فلعله أجابني "ليس بعد".

عبرنا شارعاً طويلاً في منطقة المتحف، إنه شارع مليء بآثار الدمار والقصف، يقع في المنطقة الفاصلة بين الطرفين، وتظهر عليه لعنة الحرب الأهلية. ما أسوأ الحروب الأهلية، لقد كرهتها من كل قلبي، ذكرني هذا الشارع بأيام أيلول 1970 عندما كنا في عمان، سبق أن رأيت في حينها شارعاً مشابهاً بين منطقة النظيف الأوسط وجبل المريخ، وكان كذلك منطقة فاصلة بيننا وبين المواقع التي سيطر عليها الجيش، وفيه المظاهر نفسها من بقايا الدمار وآثار القصف، وخلوه من السكان والمارة وحتى المسلحين.

سرحت بأفكاري مع اخوتي أبطال هذه المنطقة، القائد الشجاع حلمي أبو غربية، نائبه "أبي وائل" حمدي غنيم، أبي وائل الصغير، الشهيد

الفارس محمد بركة، الشهيد الشجاع سمير الفتيان، المناضلات المتميزات كفاح الفتيان وجهاد وهدى..

القائمة كبيرة وأيام أيلول طويلة ومليئة، أتابع تذكر تفاصيلها مثل من يركض في لعبة المواصلات من محطة إلى محطة دون توقف، وفي كل مرة من تذكري لها لا أجد سوى غشاوة من السواد لا أرغب في رؤيتها، صفحة الحرب هذه يجب أن تطوى إلى الأبد وأن يكون هذا درسها الأساسي.

أنقذني من هذه الهواجس سقوط قذيفة أمام سيارة الأجرة التي تنقلنا برفقة رجل الدين في منطقة المتحف، سقطت قذيفة أخرى وراءنا تماماً، نظرت إلى رجل الدين قائلاً:

- أعتقد أنهم مستعدون لأن يقتلوك معنا!.

غمزت له بعدم اكتراثهم بحياته، أراد أن تتوقف السيارة، وضعية الشارع لا تسمح، أصبحنا على وشك الإحتماء بمنعطف، سارعت إلى حض السائق: واصل لا تتوقف.

امتثل السائق، وانهمر الرصاص، وتتابعت القذائف، ولكننا احتمينا أخيراً.

توقفت الرماية، بعد اختفائنا عن أنظارهم، كدنا أن نكون ضحايا اللحظة الأخيرة، لكننا وصلنا منطقة أمنية وجدنا فيها من ينتظرنا. إنه أحد ضباط الحركة وهو ضابط قديم من ضباط قطاع (201) حيث خدم في نفس الفترة التي خدمت أثناءها في ذلك القطاع، تربطني به صداقة وأخوة، ويرافقه أحد العناصر القديمة التي جذورها من ذلك

القطاع أيضاً.
ما أن شاهداني حتى ارتفعت يد الضابط بالتحية، وأخذني بين يديه معانقاً، ثم تلاه الآخر، تبادلنا السلام بحرارة الرباط الأخوي القديم بيننا، سلموا على المختار سلاماً عادياً، مما لفت انتباه رجل الدين، فنظر إليّ مستغرباً وقال:

- عرفوك يا يمني!!

ابتسمت وأنا أرد عليه:

- نعم عرفوني.

اقلتنا سيارة عسكرية برفقة الأخوين، ركبت في المقعد الأمامي، وركب الضابط الذي جاء لتسلمنا بيني وبين السائق، وفي الخلف ركب المختار ومعه بعض الأخوة الآخرين من المقاتلين، قبل ساعات كانت أفكاري تذهب باتجاه بيروت الغربية، أما في هذه اللحظة فإنها تذهب في الإتجاه المعاكس، عادت إلى بيروت الشرقية، وقد قلت في نفسي الآن تبدأ المعركة الأخرى، معركة جمع الأسرى وإنقاذ الرفاق الآخرين.
لقد عبرت رحلة من الكفاح والأمل، ونظرت ورائي إلى شريط الكفاح والأمل الطويل، والذي استحضرت بعض محطاته، وليس بوسعي أن أسجل وقائعه اليومية الكثيرة والمليئة أو التي لا يجوز لي تسجيلها، وتذكرت أنني ما زلت في الثلاثين من عمري وأن أمامي الأكثر والأعظم في طريق محفوف بين ضفتي السيف والضمير.
إن السيف بدون الضمير مجرم، وإن الضمير من غير السيف عاجز، يجب أن يعيشا معاً على صهوة إرادة واحدة.

ثمة أوجه شبه بين السيف والضمير، فكلاهما حاسم وحاد وجارح، ولا يجوز له أن يبقى متوارياً في غمده لحظة الحاجة إليه، وهما ضفتا الحق، وبين السيف والضمير، يجب عليّ أن أمضي في رحلة الحياة.

وبينما السيارة تخترق شوارع بيروت الغربية، وجدت نفسي أستلهم مقطعاً من قصيدة محمود درويش.

إنني عدت من الموت لأحيا وأقاتل
علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي
وأمشي
ثم أمشي وأقاوم.
علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي
وأمشي
ثم أمشي .. وأقاوم

***

إنصرفت، قبل أن تتوقف بنا السيارة في بعض المحطات بين سؤال وجواب من قبل الأخوة الذين استقبلونا، إلى حساب ما الذي يجب علي أن أفعله الآن من أجل الأسرى الآخرين، أعددت أفكاري، سأقوم بحملة هادئة منظمة مستمرة تؤدي إلى نتيجة، يجب أن أخبر القائد العام والقادة الآخرين، وبعض المنظمات التي ينتمي لها بعض الأسرى، وأن أوضح ما الذي يجب عمله وأتابع التنفيذ، وستكون النتيجة مضمونة حتماً.

توقفت السيارة أول ما توقفت عند أحد المكاتب حيث التقيت بالأخ

أبي جهاد نائب القائد العام ومعه أحد كبار ضباط قواتنا، وهو بمثابة أخ حقيقي، وبعد السلام والعناق الحارين استمعا إلى روايتي حول ما حصل لي.

اهتم الأخ أبو جهاد بأمر الأسرى الآخرين، وسجل اسماءهم وانتماءاتهم، وراح يحدد اتجاهات الحملة من أجل إطلاق سراحهم، وتلمس في هذا السبيل بعض المؤشرات ومنها أن هناك أسرى كتائبيين سيجري تسليمهم دون مقابل إكراماً لبعض الزعماء اللبنانيين، والتزم من جهته بأن يوقف هذه العملية فوراً حتى نتمكن من التبادل. ثم أخبرني أن القائد العام موجود في إجتماع في مكتب العمليات، وأمر أحد الأخوة باصطحابي إليه.

انتقلت إلى مكتب العمليات، باب غرفة الإجتماع مغلق، فوجيء الأخوة مرافقو القائد العام بوجودي، اندمجنا بالسلام والعناق، وفتح لي أحدهم الباب مباشرة. اجتزته، نظر إليّ الأخ القائد العام، مكث لحظة من الشك أو تكاد، لم يكن يعلم بخروجي، وقد أصبحت نحيلاً للغاية، ولحيتي طليقة، أمكنه التأكد من شخصي لإقبالي إليه، فنهض من مكانه وأخذني بين يديه.

بضع دقائق من التأثر والإنفعال والأيدي المتوترة، أخذتني حرارة لقائه، بينما راح يخاطبني:

- حبيبي، لقد سميناك شهيداً، في قائمة الشهداء، إنك في عداد الشهداء.. ثم أخذني بيده لأسلم على الآخرين. ما لبثت أن وقعت عيناي على الأخ أبو موسى (سعيد موسى مراغة) قائد القوات المشتركة في الجنوب، يسميه القائد العام فارس الثورة، وهو الآن منقذ حياتي.

تعانقنا بحرارة، وتعانقت معنا نشوة فوزه وعرفان مشاعري.

ما أن اكتملت المصافحة وتبادل العناق مع الأخوة وبقية الحاضرين حتى سمعت أحد الضباط يتحدث للأخ القائد العام بلهجة لبنانية، قائلاً:

- أرى أن عندكم الآن مناسبة خاصة، نستأذن بالذهاب.

أذن لهم القائد العام، وانصرف الجميع، وبقيت أنا وقائد القوات المشتركة، توجه إليّ القائد العام بالسؤال:

- كيف نجوت؟!

أشرت إلى قائد القوات المشتركة قائلاً:

- لديه الجواب أكثر مني.

بدأ الأخ قائد القوات المشتركة يشرح الأمر:

- بادلناه بأسرى معركة العيشية.

حضر إلى خيالي ذلك اليوم الذي تكهرب فيه الجو، كانت تلك معركة خلاصنا إذن! عدت ثانية استمع بينما الحديث يتواصل:

- لقد خضنا هذه المعركة من أجل إنقاذه.

سأل القائد العام:

- وكيف تمت عملية التبادل؟!

- عن طريق الأب...

وقد ذكر أسم رجل الدين لكنه غاب الآن عن بالي تماماً، ثم أضاف عنه:

- إن له نفوذاً في الجانب الآخر، ويعتبر نفسه الإبن الروحي للأب شربل قسيس، وقد أسرنا إبن شقيقه في معركة العيشية، وهو من مقاتلي حزب الكتائب الذين جرحوا في هذه المعركة، وتمت المبادلة به وبزميل آخر له أصيب بجرح مثله.

لمع على الفور إشعاع في عيني القائد العام وسأل:

- ماذا يمكن أن نفعل من أجل نعيم وأبي عمر (وهو الشهيد حنا ميخائيل) وأبي الوفا؟! استدع هذا الرجل، وأعرض مقابل توقيع من نعيم مليون، اثنين، ثلاثة وحتى خمسة ملايين، أريد توقيع نعيم.

- سأطلب منه الحضور لمقابلتي غداً.

طرقت مباشرة مع القائد العام الموضوع الذي يشغل بالي، الأسرى الباقين، اسماءهم وانتماءاتهم وكيفية الوصول إلى إطلاق سراحهم. رد القائد العام:

- نعم، إن لدينا بعض الأسرى، اتصل بالجهات المحددة واطلب منهم بأمري جمع هؤلاء الأسرى والاحتفاظ بهم: كذلك سنبلغ المنظمات الأخرى وخاصة تلك التي لها أعضاء أسرى لدى الكتائبيين.

قدمت له كشفاً بالأسماء وبانتماء كل واحد منهم، فتناوله وأمر قبل أن أنصرف بإجراءات فورية.

وجدت القائد العام بالغ الإهتمام والحرص على مصير الأسرى، وبالغ التذكر للرفاق المفقودين، وحتى بالنسبة إلى طبيعة علاقتنا وما أصابها

فلم أكن أتوقع منه أن يستقبلني بكل هذا الحس الأخوي، ذلك أن ثمة شيئاً من التباعد تركته الأيام بيني وبينه من أواخر 1971. لقد وجدت نفسي حائراً في تفسير بعض الظواهر ونحن نخوض معركة بناء القوات، بتقاليد من نمط جديد وعلى أساس أن العمل السياسي هو شريان قيمها القتالية والمعنوية.

اكتشفت مسافة في الرؤيا، ومن يومها شعرت أنه هو الذي بدأ التباعد وأن التباعد يكبر في ظل الخيارات السياسية، وتراكم السلبيات بل ولقد شعرت بكل أعماقي كأنه لا يطيق عنفوان الأخرين.

وعلى الرغم من كل شيء ها هو الأكثر حنواً ووفاء لرفاق آخرين هم في عداد الشهداء. إنه يعرض خمسة ملايين مقابل توقيع واحد لرفيق حبيب عاش معه، ونموذج من نماذج النضال والعنفوان.

أيها القائد، هناك فارق في المنهج بيننا، لكنني لن أنسى التيار الدافئ الذي سرى في أحاسيسي لدى استقبالك لي.

علمت بعد لقائي بالأخ قائد القوات المشتركة في الجنوب كيف تواترت وتضاربت الأخبار عنا، فقد وصل أول الأخبار بداية من قبل الذين تم إطلاق سراحهم في الليلة الأولى من احتجاز السفينة، وهم الذين أكدوا تصفيتنا في ميناء جونيه، وهو الاعتقاد الذي تشكل عند من بقوا على متن السفينة حول مصير من تم إنزالهم. بل لقد راودني الاعتقاد نفسه عمن سبقوني في النزول.

بناء على هذه الأخبار أبلغ القائد أحد أصدقائي هو الدكتور فايز النتشة، والذي ذهب خصيصاً لملاقاته في القاهرة من أجل السؤال عن مصيري، إنني قد استشهدت، واستمرت هذه القناعة قائمة أكثر من عشرة أيام

إلى أن وصل البحار أبو علي إلى صيدا، والتقى بقائد القوات المشتركة، وأخبره عن ملابسات احتجازنا، مبرهنا أقواله بتعيين أوصافي ومؤكداً وجودي على قيد الحياة، مما أوقف نشر نبأ الاستشهاد والإجراءات التي يمكن أن ترافقه.

تم التخطيط لمعركة العيشية على أساس أن يكون من أهدافها جمع الأسرى لكي تتم المبادلة بنا، ولم يدر بخلد قيادة القوات في الجنوب آنذاك، والتي أخذت المسؤولية على عاتقها أن هناك أخوة آخرين برفقتي، ذلك أن البحار أبا علي لم يكتشف أمرهم.

شارك في معركة العيشية عدد من أصدقائي الحميمين، منهم المفوض السياسي لقوات القسطل عبد الناصر عبد الحميد، وقد فشلت المحاولة في الليلة الأولى، إلا أنها نجحت في الليلة الثانية، حيث أعيد تنظيم الهجوم، وأمكن اختراق ذلك المتراس اللعين!.

كلف رجل الدين بمهمة الوساطة، وساعد في هذا الأمر أن له إبن شقيق من مقاتلي حزب الكتائب الجرحى في أسر قواتنا، ويحتفظ به في أحد مستشفياتنا في الجنوب.

عندما رجع رجل الدين بعد مقابلتنا، نفى وجودي اعتماداً على إنكاري لشخصيتي إلا أن الأخ قائد القوات المشتركة استفسر منه عن أوصافي، وتلقى ردي على السؤالين اللذين وجههما إليّ بوساطة رجل الدين، فتأكد أنني المعني، عندها قال بحزم لرجل الدين:

- نعم. هذا الرجل أريده بأي ثمن، إن مجيئه هو الثمن الوحيد لتسلمك إبن شقيقك، وأحملك المسؤولية في حال عدم وصوله سالماً.

على هذا الأساس، بذل رجل الدين قصارى جهده.
دعتني قيادة القوات المشتركة في الجنوب لغداء بمناسبة خروجي، أقامته قوات القسطل، ولما وصلت برفقة أحد الأصدقاء إلى مكان قريب من مدينة النبطية، حيث أقيم الغداء، علمت أن رجل الدين غادر قبل وقت قصير بعد لقاء معه بخصوص الأخوة المفقودين الذين تحدث بشأنهم القائد العام، وأن حديثاً قد جرى عني علم منه أن الغداء يقام على شرفي وأنني ضابط برتبة رائد في قوات العاصفة.
وجدت هذا الغداء مناسبة لجمع معلومات من أصدقائي الضباط حول وجود بعض الأسرى، تراكمت هذه المعلومات مع أخرى حصلت عليها من بعض الأجهزة والوحدات العسكرية، فسلمت صورة عنها للأخ القائد العام، وعقدت جلسة عمل بناء عليها مع الأخ أبي إياد استجاب لكل ما هو مطلوب وساهم بالاتصال بالمنظمات الفلسطينية الأخرى. وواظبت على الاتصال اليومي بالأخ أبي جهاد نائب القائد، وهو الذي جعل الأمر على جدول مهامه اليومية، وسلك الخطوات العملية. أبو جهاد قائد متميز مبدع في الممارسة والمبادرة والإنجاز، بناء على مجهوداته بشكل خاص تراكمت خطة العمل الأساسية لإنقاذ الأسرى.
أصبح واضحاً أن المجهودات سوف تثمر، وأنه من الضروري القيام بإتصالات هادئة الهدف منها عدم التسبب في فضح انتماءات الأسرى من رفاقي، وبالتالي عدم التسبب في إيذائهم وضمان حياتهم.
أخذ الوقت يمر، وقد أنجزنا عملاً صامتاً آمنت أنه من المؤكد سيكون مجدياً.

حرصت في أثناء جمعي للمعلومات عن الأسرى الكتائبيين لدينا، أن أستفسر عن معاملتنا لهم، وقد تلقيت في كل مرة تأكيدات على حسن معاملتهم، وتوفير الطعام والغطاء لهم وعلى عدم إيذائهم أو ضربهم. شاهدت البعض منهم واستفسرت عن أحوالهم وأخبرتهم عن أحوال أسرانا لديهم.

الححت مرة في أسئلتي لأحد الضباط المعنيين بالأمر من أصدقائي حتى وصلت إلى السؤال:

- هل قتلنا أحداً من خصومنا بعد أن وقع في أيدينا؟ هل ذبحنا أسيراً؟

رد عليّ باستنكار:

- كيف تسأل مثل هذه الأسئلة، أنت تعرف نفوسنا، أنت أبن قوات العاصفة وتعرف تربيتها، إنك بالذات أحد الذين صنعوا هذه التربية!

قلت في نفسي، حقاً إن قوات العاصفة هي أنبل ما أنجبت الأمة من ظواهر مسلحة، قوات العاصفة تضم المقاتلين ولا تضم القتلة، إن شهامتنا ومناقبيتنا كمقاتلين من أجل الحرية لا تسمح بقتل الأبرياء. قد تفسد المدن المقاتلين، ولكنهم لا يتحولون إلى أنذال. علقت بقولي:

- إنني متأكد مما تقول، ولكن مندساً واحداً يمكنه أن يلطخ جبيننا، لدينا بعض التجارب الماضية، يجب أن ننتبه حتى نجتاز الحرب بضمير نقي يلمع كالحراب.

أنني أبحث عن مبرر أفسر به معاملتهم للأسرى، وقتلهم للفلسطينيين الذي يقعون في أيديهم، وأنا الآن لا أجد هذا المبرر أبداً.

إزداد الإلحاح عليّ للتوجه إلى الكويت، ولو لمدة قصيرة جداً، وذلك بسبب إصرار عائلتي وخاصة الوالدة للإطمئنان بأنني سليم معافى، لكن الرغبة في إنجاز مهمتي هي التي تغلبت طوال الفترة السابقة على الرغم من تعهدات الأخوة في بيروت بالمتابعة والمثابرة. وصلت الأمور أخيراً إلى نقطة تجعل النتيجة حتمية، لم يبق سوى التريث وإنتظار قليل من الوقت حسب نصيحة الوسطاء.

استثمرت هذه الفترة المطلوب إنتظارها. ولبيت رغبة من حولي في القيام بزيارة قصيرة إلى الكويت، وما أن وصلت مطارها حتى أدركت أنه كان من الضروري حقاً أن أقوم بهذه الزيارة.

عندما عدت إلى بيروت تأكدت أن الأمور تسير على ما يرام، راجعت كل شيء من جديد، التحقت بموقع عملي، واظبت على السؤال والاتصال حتى علمت أن الأسرى قد خرجوا، سألت عنهم في بيروت، لقد تخاطفهم ذووهم.

توقفت المعارك في الجبهة الثانوية، في الاتجاه الذي لا نرغب في أن تكون فيه، ورجع العدو الرئيسي يتولى بنفسه محاولة إنهائنا في لبنان، بعد أن فشلت الحرب بالوكالة عنه، فبرز من جديد وجه الصراع الحقيقي على سطح الأحداث. ووجدنا أنفسنا مرة أخرى في مواجهة الحرب، أو بالأحرى في مواجهة الحلقة الجديدة من حلقات الحرب المتصلة. تلك الحلقة التي استهدفت إنهاء البنية التحتية لثورتنا، وإنهاء قواتنا المقاتلة في جنوب لبنان.

كنت قد تسلمت مهمات جديدة، واسترقت الوقت بناء على إلحاح أصدقائي لكتابة كل فصول هذا الكتاب، وذلك عندما هبت نذر حرب الأيام الثمانية فالتحقت بالقوات في منطقة الجنوب.

أصبح جزء من قواتنا يعمل منذ بداية المعركة خلف خطوط العدو الصهيوني في المناطق التي تم احتلالها، وقع العدو في عش الدبابير، وبدلاً من الانسحاب أمامه باتجاه الشمال قامت قواتنا بالإنتشار خلف خطوطه.

إنقطع الاتصال ببعض الوحدات، وببعض الأخوة منهم الأخ بلال قائد القطاع الأوسط، وترددت الروايات حول استشهاده، يا بلال، أيها الغضنفر، أنت الذي اخترت معركتك في مواجهة العدو الذي تحب أن تقاتله، جاء الآن دورك لكي ننتظر رجوعك أو تتضارب الروايات عنك. عملنا معاً، بلال ونور وجلال وأنا وأبو الفتح وآخرون، أصبحت مشاعرنا مشتركة امتزجت أحلامنا وأمانينا ووجيب افئدتنا.

في يوم من الأيام الأخيرة لهذه الحرب، وصل المقاتل الأسد بلال[٥]* عبر نهر الليطاني، استقبلناه، مجموعة من أصدقائه ورفاقه، مكثنا في منطقة صيدا، وكنت في موقع قرب أبي الأسود جنوب الظهراني. توقفت الحرب بناء على طلب العدو، وانسحب أمام قوات العاصفة يجر أذيال هزيمة ذريعة.

بينما أنا عائد إلى دمشق، مررت ببيروت لمدة يومين، وفي إحدى

٥ استشهد الأخ بلال قائد كتيبة القطاع الأوسط فيما بعد، أثناء القتال عام ١٩٨٢ في حرب الاجتياح.

*

زياراتي لمكتب من مكاتب الحركة فيها وجدت شاباً يمتشق بندقية الكلاشنكوف على كتفه ويعترض سبيلي، إنه الأخ معين أحمد، تبادلنا المصافحة والعناق، واندفع يحدثني عما تم لهم بعدي، استمعت إليه طويلاً، ثم قال لي:

- هل تعلم أنك تسببت لنا بوجبة من الضرب المبرح؟

- أنا؟! كيف؟

بعد خروجك بأيام قليلة جاء إلينا المسلحون، وشتمونا شتائم بذيئة، وقالوا أننا كذابون ومخادعون، ثم تساءلوا "هل تعرفون ماذا أتضح حول اليمني؟!" وأجابوا: "تبين أنه رائد في حركة فتح، لقد خدعنا".
سألته عن جميع الرفاق الأسرى، أجابني عنهم واحداً واحداً، كلهم نجوا، صدقت نبوءة أبي مروان.

- حدثني عن أبي مروان؟

- أبو مروان كان يحدثنا كثيراً عن حيفا، وعن الكرمل وعن الطريق الطويل الطويل، تحدث ببوصلة البحار، ورأى الشواطيء البعيدة بأنوار روحه وإرادته، وقال أنه ذاهب إلى الجنوب، وأن علينا مهما تعقدت الظروف أن لا نفقد طريق الجنوب.

ما أصلب هذا الرجل، كان يتحدث عنك كثيراً، وقد شبهك بالبحر، أنه يتذكر كل شيء بدر منك، ويحفظ وصاياك وكان متأكداً أنك ستفعل شيئاً من أجلنا.
تطلع في عمق ذاكرته وقلبه ثم تابع قائلاً:

- أبو مروان مرشدنا، كان صخراً وجبلاً من الصوان، لحيته أصبحت أطول من ذي قبل، وقد خرج معنا.